روايته «ابنة سوسلوف» في القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية 2015
نزوح
حبيب عبد الرب سروري
رواية
دار الساقي
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

t.me/twinkling4

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتماً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2024

الطبعة الإلكترونية، 2024

ISBN-978-614-03-0339-3

Published 2024 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi

Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

T: +44 (0) 20 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

www.saqibooks.com

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

٢٧٠٦٠٩٠٢٩٤

هكذا أودّ أن أموتَ عشقاً فيك، كقِطعِ سُحبٍ تذوبُ في ضوء الشمس.

مولانا جلال الدين الرومي

في أيّ مكان! في أيّ مكان! شريطة أن يكون خارج هذا العالَم!

بودلير

النجوم جميلةٌ، بسببِ زهرةٍ لا يمكن رؤيتُها.

أنطوان دو سانت إكزوبيري

ما بكِ أيّتُها الأَرضُ؟

أرضُ الأجنحةِ المشتعلة في هواء أسودَ،

أَرْضُ العَصْفِ، الأَرضُ المرتجفةُ على الأُخدودِ،

الأَرْضُ المِرجلُ، الأَرْضُ الصّخرةُ الخرَساءُ، الأرضُ الشظيَّة (...)

نوري الجرّاح

جميعُنا في الحضيض. بعضُنا فقط ينظرُ باتّجاه النجوم.

أوسكار وايلد

لمحمّد الشقّاع...

1

عن رِحلتَي XxxXx00F وYyy4+1W الشهيرتين

(بقلمِ رئيس لجنة الإشرافِ الأرضيّ)

أيُّ بيتٍ من دون امرأة، كما يعرفُ الجميعُ، لا يُعوَّلُ عليه: لا مركزَ جغرافيّ له، ولا مركزَ ثقل!

وأيّ مركبةٍ تغادر الأرض لِمهمّةٍ استيطانيّةٍ طويلةِ الأمد، إن كانت من دون أنثى، تتحوّلُ، رويداً رويداً، كما برهنَت تجاربُ رحلات الفضاء، إلى عرينِ مجانين مسعورين: ديوك يُعادي بعضُهم بعضاً، يكرهُهُ ويمقتُه. تضمُرُ أفئدتُهم وتتصحّرُ أرواحُهم، إثر مزيجٍ من خلطٍ موسيقيّ وتوتّرٍ نفسيّ وضغطٍ عصبيّ، يُضرِمُ تدريجياً عصبوناتِ أدمغتهم، يكلّس شُعيراتهم الدمويّة، ويقودُهم، يوماً بعد يوم، إلى الانكماشِ والخواءِ والتّهلُكة.

"لا غرابة في الأمرِ إذا ما آلَتْ مصائرهم إلى شيءٍ ما يُشبِهُ الصرعَ أو الشّللَ النصفيّ!"، كما قال أستاذِي الجامعيّ في "فلسفة الطبيعة الإنسانية" ذاتَ يوم، مُضيفاً: "الرَّجلُ مثل غاز الهيدروجين. قابلٌ للاشتعال. سريعُ الاحتراق. يُسبِّبُ الاختناقَ إذا وُجدَ في جوٍّ خالٍ من الأكسجينِ-المرأة. يحتاجُ ذلك الغازُ الذكوريّ إلى هذا الغازِ الأنثويّ على نحوٍ عضويٍّ، لا انفصامَ له. باتّحادِهما يُولدُ مصدر الحياة: الماء".

"كيمياءُ علاقةِ الرَّجُلِ بالمرأة انعكاسٌ واستمرارٌ لعلاقاتِ عناصرِ الطبيعة (مرجع الفلسفةِ الصينيّة الدائم)"، كما استهلَّ أستاذي تنظيرَهُ وتفسيراتِه.

ولأن الذّكَر، حتّى كتابة هذه السطور، ليس مبرمجاً بيولوجيّاً للحملِ والإنجابِ والحيضِ والنِّفاس، فانطلاقُ المركبة، دون نساء، مشروعٌ غيرُ مضمونِ النجاح كثيراً، إذا كان أهمُّ الأهداف الخفيّة للرحلة الإجابةَ عن سؤالٍ مصيريٍّ جوهريٍّ خطِرٍ، مُلِحّ جدّاً هذه الأيّام، لا يعرف بعدُ أحدٌ الردَّ عليه:

هل يمكن للإنسان المقيم في بيئةٍ سماويّة مستديمة، بعيداً عن الجاذبية الأرضية، أن يُناكِحَ ويضاجعَ ويُنجِبَ ويتكاثر؟

كان بإمكان طاقم مركبة الرحلة الفضائيّة XxxXx00F (التي أترأسُ لجنةَ الإشرافِ الأرضيّ عليها) أن يتكوّن من ثلاث نساءٍ ورجُلين مثلاً.

لكنّ لجنتَنا، وكمبيوتراتها الذكيّةَ الفذّة، اختارته من فتاتين وثلاثة شبّان، في ضوء تحليلِ تاريخِهم وعلاقات بعضِهم ببعض، نفسيّاتِهم وأحلامِهم ومشاريعِهم، وفرضياتِ أفضلِ إمكانياتِ اندماجِهم المثمر، وتفاعلاتهم ككليّةٍ متناغمةٍ واحدة، في مركبةٍ فضائيّةٍ فاضلة.

خمسةٌ جميلونَ مذهلونَ غايةَ الإذهال، ومدهشونَ كما لا يخطر ببال. رحلتُهم، التي ستدوم سنتين كاملتين، ذات أهميّةٍ إستراتيجيّةٍ فاصلةٍ حاسمة: هي الأطول زمناً بين آلافِ الرحلات الفضائية الأخرى المواكِبة والسابقة لها، لامتحان مقدرات الإنسان على الحياة طويلاً بعيداً عن مهدِهِ الأصليّ: كوكبِ الأرض.

أو بالأحرى (إذا أردتُ ألّا أُخفيَ عليكم السرَّ المكتومَ المصون): لامتحانِ مقدرتهِ على الاستيطان الدائم، والتناكح والتناسلِ والتكاثر، خارج مجال الجاذبية الأرضيّة!

لذلكَ بالتأكيد: لم يتوجّب الاختيارُ الذكيّ للطاقم فقط، بل لزمَ تركُه يعيش بِحُريّةٍ غير مألوفةٍ في طقوس الرحلات الفضائية: يتنزّهُ ويتجوّلُ ويرقصُ ويتصعلكُ في أرجاء السماء، ويقترحُ لوحدِه اختيارَ محطّاتِ ترانزيت مركبتِهِ، أوّلاً بأوّل، هنا وهناك، حسب أمزجتهِ ورغباتِه، تحت شعار "الطريقُ، بحدِّ ذاته، هو الهدف!"، وليس الوصول إلى المرفأ الأخير.

ثمّة أيضاً رحلةٌ من نمطٍ خاصٍّ آخر، Yyy4+1W، طويلةٌ جدّاً، لكنّها ستدوم أقلّ من رحلتنا: عاماً ونصفاً على الأكثر. طاقمُها مكوّنٌ من أربع فتياتٍ وشابٍّ تزوّجهنّ معاً، بعد بدء الرحلة بقليل: فيلسوفة، شاعرة، فيزيائية، عالمة أحياء، و"نبيّ" من طرازٍ جديد، يريد نشرَ رسالتهِ على

"الأرض وبقية كواكب الكون التي لا تخلو من الحياة الذكيّة"، أو ما يُسّميه: "فيدرالية الكواكب الذكيّة"!

لا علاقة لي بالإشراف الأرضيّ على رحلتهم، وإن كانت، هي أيضاً، ذات أهميّةٍ استيطانيّةٍ وميتافيزيقيّةٍ خاصّة.

تعرّفتُ سريعاً على آنساتِ طاقمِها الأربع فقط، خلال لقاءاتٍ مهنيّةٍ سبقَتْ مغادرتهنّ الأرض، في مركزِنا الفضائيّ الدوليّ، الواقع في أرخبيلٍ في أقصى المحيط الهنديّ، المقابل للقرنِ الأفريقي.

لكنّ رحلتَهم ستُهِمُّني كثيراً، لأن مركبتَها (مركبة العائلة السعيدة) سترتبطُ لاحقاً بعلاقةٍ مصيريّة بمركبتِنا، ولأنّ... خامسَهنّ عصفورٌ نادر، "نبيٌّ" متعدِّدُ الكواكب والمجرّات، أحِبُّهُ على نحوٍ خاصّ!

سيجدُ نفسَهُ غالباً سفينةً ولهانةً هائمة، تعومُ في أمواجِ أربع مغامِراتٍ طليعيّاتٍ فاتنات (أربعة "حقولٍ مغناطيسيّة")، وسط سماواتٍ هائجة، صاخبةٍ أحياناً.

لِنجاح رحلتِنا التاريخية التي ينتظرُ نتائجَها الجميعُ (ونجاح رحلتِهم أيضاً)، من المهمِّ غايةَ الأهميّة بطبيعةِ الحال، أن تظلّ أدمغة الطاقمِ جميعُها، طوال العامين، مشغولةً على نحوٍ إيجابي، ألّا تشعر بالملل والإرهاق والقرف والجفاف العاطفيّ والجنسيّ، والحياةِ كروبوتاتٍ خاضعةٍ لأوامر عليا، وألّا تتسلّلَ إليها كآباتٌ وتذمّراتُ العُزلات الطويلة، وألّا تُصابَ، قبل كلِّ شيء، بالتوتّر والاضطراب والضغط العصبيّ... لأنَّ ذلك سيقودُ إلى نهايةٍ تراجيديّةٍ لأدمغة الفريق، وكارثيّةٍ للرحلة. وسيؤخِّر، قبل كلِّ شيء، الإجابةَ عن السؤال المركزيّ:

هل يمكننا، نحن البشر، أن نُضاجعَ ونُجامِعَ ونُنجبَ ونتناسلَ ونتكاثرَ بعيداً عن نطاق قوّة جاذبيةِ أمِّنا الأرض؟

2

رؤية ما وراء الأكمة

سأختصرُ هنا بعضَ أهمِّ ما يقوله التقرير التحليليّ (مئات الصفحات) عن شخصيات روّاد فريق رحلتنا XxxXx00F الخمسة، انطلاقاً من تقارير لجنة الإشراف التي أترأسها، ولجان الامتحانات وكمبيوتراتها الذكيّة.

مرّ الخمسة، الذين تربطهم علاقاتٌ متينةٌ قديمة، أصعبَ الامتحانات الانتقائية وأكثرها "همجيّة"، خلال أشهر عديدة، ضمن عشرات آلاف المرشّحين للرحلات الفضائية، من كل أنحاء الأرض. تلتها أشهرٌ أخرى عبروا خلالها سلاسل من الاختبارات النفسيّة والرياضيّة والتجريبيّة المتنوِّعة المعقَّدة.

أصولُهم وقوميّاتهم لا تُهمّني هنا، وإن ولدوا في أصقاع متباعدة: شرق آسيا، غرب أميركا، شبه جزيرة العرب، أفريقيا، وأوروبا. لأن ما يربطهم طوال سنوات الدراسة والعمل، في صالات محاضراتٍ وامتحاناتٍ مشتركة، من تجارب ومشاريع، مرتعٌ ثريٌّ لأحاديث جماعيّة لا تتوقّف بينهم، ولتطلّعاتٍ وذكريات لا تفارقهم جميعاً. ناهيك عن كونهم منسجِمين ومتناغِمين مع بعضهم بعضاً، بالفطرة تقريباً. لا تعني لهم الانتماءاتُ الوطنيّة شيئاً، لأن المجموعةَ الشمسيّة، بمجملِها، قريتُهم الصغيرة.

ما يهمُّني هو مواهبُهم، ألمعيّتُهم، مشاريعُهم، وجنونُهم العظيم. الجنونُ العظيم، كما يعرف الجميع، شراراتٌ تخاطبُ النجومَ والمجرّات، طريقٌ كاسحٌ نحو العبقرية والإبداع والابتكار والحكمة.

إذا كان هوَسُ "رؤيةِ ما وراء الأكمة" مغروساً في الحمض النوويّ DNA للإنسانِ عموماً، فالهوَسُ، مع هؤلاء، مسٌّ محمومٌ من تيّارِ كهرباءِ الجنونِ العظيم، والأكمةُ بالنسبة إليهم: كوكبُ الأرض. يرونهُ مجرّدَ نقطةٍ زرقاء شاحبةٍ رقيقةٍ مهترئة، هشّةٍ زائلة، في محيطٍ كونيّ متلاطم، لا بداية له ولا نهاية.

لسانُ حالِهم: كيف يمكن للإنسان التشرنقُ في النقطة، وعدمُ الخروجِ منها نحو الفضاء؟ إذ لا يمكن رؤية الغابة كليّةً إلا من الأعالي، وليس أثناء القبوع في أحد فروع شجراتها.

ثمّ هل هناك ما هو أجمل من رؤية الكون من القمم الشاهقة؟ كيف يمكن لِدودِ الأرض أن تمتلكَ رؤيةً كاملةً دقيقةً للكرة الأرضية!

سأطلقُ عليهم أسماء رمزيّة تعبيريّة: سباسكي، فيشر (اسما بطلَي الشطرنج الروسي والأميركي الشهيرين، في سبعينيات القرن الماضي)، خولة، وجلال، ومانيارا، لا علاقة لها غالباً بمواطن ولاداتهم. تعكس ذواتهم وماهيّاتهم أفضل من أسمائهم الأصليّة.

سأبدأ، حسبَ الترتيب التنازليّ لِلعُمر، بِجلال وأُنهي بمانيارا. أو من اللياقة بمكان أن أبدأ بأنثى: خولة، وأُنهي بأنثى: مانيارا.

خولة شابّةٌ لها جسمٌ خُلِقَ لِتأجيجِ المعارك الغرامية. طالما اعتبرتُ هذا الاسم رومانسيّاً، حتّى لا أقول مثيراً جنسيّاً، وإن لا أعرف لماذا. كل الخولات اللواتي رأيتهنّ في حياتي، أو سمعتُ عنهنّ، لهنّ ملكاتٌ غراميّةٌ خصبة، وطاقاتٌ إيروتيكيّة عجيبةٌ أحياناً، كما يُقال، والله أعلم.

كنتُ أنوي أيضاً أن أطلقَ عليها اسم هيلين التي تفجّرت حرب طروادة بسببها. أو ربما أفروديت، إلهة الحبِّ والجمال والرومانسيّة، من وعدَتْ أميرَ طروادة بهيلين. أو ربما إيريس صاحبة "تفاحةِ الفتنة" بين كبيرات إلهات الإغريق: جذرِ جذورِ تفجير حرب طروادة.

أتساءلُ دوماً لماذا أصرّ كمبيوترُ لجنة الإشراف، بعنادٍ خالص، على اختيار خولة لفريق رحلتي بالذات؟ ألأنّهُ أراد أن تكون، مثل المريخ، كوكباً يدور حوله قمران: فيبوس وديموس، أي: سباسكي وفيشر؟

أم لأنهُ أراد أن يتنازعاها، كقابيل وهابيل، لِيسيلَ إثر حروبِهما دمٌ تنبتُ فوقهُ شجرةٌ يعرفُها الفارسان جيّداً، وتجمعهما بها كثيرٌ من الذكريات: شجرة

"دم الأخوين"(1)؟

(1) شجرة لا تنمو إلا في أرخبيل سُقطرى. الأخَوان هنا، بطبيعة الحال: قابيل وهابيل! الشجرة، كما يعرف الجميع، من أغرب وأجمل أشجار الأرض، واسمها لغزٌ حقيقيٌّ أيضاً. شجرةٌ عتيقةٌ مزمنة، جبارةٌ متينةٌ صامدة، لها شكلٌ متميّزٌ عجيب. فروعها جميلة التشعُّب، تحترم التماثل الهندسي في انتظام تفرّعاتها. يسيل منها، مرة في السنة فقط، سائلٌ بِلونِ الدم، اسمه ميثولوجيٌّ مدهش: "دم العنقاء"، ثمينٌ جداً لاستخدامه، منذ ما قبل التاريخ، في الطب وفي التجارة.

أم لأن علاقة خولة بالفضاء، وبالقمر خاصّة، مغروسةٌ في حِمضِها النووي؟

إجابَتُها عن السؤال التقليدي الأوّل لكلِّ مرشّحٍ للرحلات الفضائية:

- ما الذي يجذبُكِ للعمل في مجال الفضاء؟

- القمر! كان رفيقي في كلِّ أحزاني وسعاداتي منذ الطفولة. أناجيهِ يومياً. لا أتوقّف لحظةً عن النظر إليه. صنعتُ تلسكوبي اليدوي البسيط لِوحدي في الطفولة لأراهُ عن قرب! أحيا لهُ وبه. هدفُ حياتي الأعظم والأوحد: زيارتُه، والإنجابُ فيهِ إن أمكن!

الحقّ أن خولة بهيّةٌ رائعة، ثاقبةُ الذكاء، جميلةُ الحديثِ رهيفةُ الحسّ، نشيطةٌ متعدِّدةُ الطاقات على نحو لا يُصدّق أحياناً، تربطها علاقةٌ وديّة عميقةٌ خاصّة مع بقية الفريق، ومشاريع مستقبليّة خفيّة تمنّاها مع أحد البطلَين ربّما، وإن تكِنُّ لهما معاً أكثر من إعجابٍ هائلٍ جداً.

تحيا خولة بالحبّ وللحبّ. تميل إلى الرجل على نحوٍ غريزيّ، فِطريّ. تحتاج جينيّاً إلى الشعور بأن الجميع معجبٌ بها، بل يهواها حتّى الثّمالة. ربما لا تحتاج كثيراً إلى ذلك، لأنها تدرك أن كلَّ من يراها يعشقها بالضرورة. كلّ من أحبّها تحوّلَ مجنوناً، وكلّ من لم تحبّ فقدَ عقلَه.

ومع ذلك، "ميزان الحسابات" الغرامية لخولة، بمجمله، ليس ثريّاً جداً. اختيارُ القدَر لمن افترِضَ أن يكون نصفَها الآخر لم يحمل لها ما تحلم به: زميلٌ في بداية دراستها الجامعية، ارتبط بها عضويّاً، عشقَها فعلاً كما تمنّت

ذلك.

ولعلّها عشقتْهُ بالمثل وبإخلاص، يوم قال لها هذه الجملة التي أردَتْها قتيلة: "أتذكّرُكِ كلّما أرى القمرَا". فعَلتْ فِعلَتها، ولا شكَّ، كلمةُ "القمر": إلهها، معبودها الذي مغنَطها منذ أن قضتْ طفولتها تحدِّقُ به بعشقٍ ووله ازداد مع العمر.

ثم خسفَ غرامهما، كما يبدو، بسبب اختيارين وجوديّين متعاكسَين تماماً.

كان من المهمّ جداً لنا، في لجان الإشراف والامتحانات، أن نعرف لماذا. لم تُفضِ خولةُ كثيراً سببَ ذلك: يُخفي كلُّ المرشحين للرحلات الفضائية ما وراء اختياراتهم الفاصلة، وميولهم العاطفيّة والجنسيّة، وأحاسيسهم الجوهريّة، خوفاً من عدم مرورِهم الامتحانات الانتقائية.

حتى عندما نسألُهم، مثلاً، عمّا سكنَتْهم من مشاعر، في رحلات فضائية سابقة وهم بعيدون عن كوكبنا، عندما رأوهُ أمام أعينهم كرةً زرقاء ترنو إليهم، تُشرقُ ملءَ الفضاء وتملؤه جمالاً لا يمكن وصفه (أو ما نُسمّيهِ "تأثير الإطلالة الشاملة")، نلاحظ عدمَ ذكرِهم للدموع التي سالت في مآقيهم حينها: لا يمكن لأي إنسانٍ شاهد ذلك المنظرَ يوماً ما، ألّا تسيلَ دموعُه، وألّا يُصابَ بمسٍّ حميميّ لا شفاء له!

اكتفتْ خولةُ في ردِّها بالحديث عن تباعدِ رغباتهما و"ميولهما في الإنجاب".

قلَّ الإنجابُ، في الحقيقة، كثيراً مع اقتراب هذا النصف الثاني من القرن الواحد والعشرين. لعلّها الإشكاليةُ الأولى للحضارة البشريّة، الأكثرُ تهديداً لمصيرها الوجوديّ.

الشعوب التي كانت تنجب، بأرقام تجارية، كاليمن مثلاً، لم تعد تستطيع مواكبةَ الحضارة. تقلّصَ سكّانها، حدّ الاندثار، بسبب صراعاتها وحروبِها الداخلية، تخلّفِها المستفحل، وفتكِ الفقرِ بها، والأمراض المتشابكة والأوبئة (القديمة والجديدة) والبؤس والمجاعات...

والشعوب المتطوِّرة (التي كانت ضعيفةَ الإنجاب أساساً)، زاد نفورُ معظمِ شبابِها من الإنجاب، في عالمٍ غيرِ مضمون، يسحقُه الاختلالُ البيئي وتداعياتُ التطوّرِ التكنولوجيّ الماحقة.

كردِّ فعلٍ على ذلك، ظهر تيّارٌ معاكسٌ متطرِّف، يحثُّ على الإنجاب، بأيّ ثمن، لإنقاذِ النوعِ البشري من الانقراض. ويدعو أحياناً للعودةِ إلى تقاليد "الزواج بأربع نساء، على سنّةِ الله ورسوله"!

لعلّ شريكَ حياة خولة السابق كان أنانيّاً فعلاً. لم يكن يريد، في أي حالٍ من الأحوال ولأسبابٍ شخصيّةٍ ونفسيّةٍ كثيرة، أن تنجب خولةُ طفلاً ذات يوم، على غرار الشاعر الضرير الذي قال سابقاً:

هذا جَناهُ أبِي عليَّ

وما جنيتُ على أحد

أو ما اسُتبدِل ضمنيّاً بِ"هذا جَنتْهُ أمّي عليّ..."، في عصرنا الراهن الذي أضحى الرجلُ فيه "كائناً بيولوجياً فائضاً على اللزوم"، إثرَ التطوّرات التكنولوجية التي قادت إلى اختراع "الرّحم الاصطناعية" و"الإنجاب الآلي" (بعد شراء الحيوانات المنويّة، عبر أمازون، حسب المواصفات الجينيّة والقوميّة المطلوبة أو المرغوبة)، وغيره من "تكنولوجيات الإنجاب بلا ذَكَر".

ذَكَرُ الذكَرِ (حتّى لا أقولَ: زبّ الرَّجل)، الذي برهنَ بجدارة على دورِهِ المركزيّ في كلِّ تاريخ البشر، صار الآن مجردَ اختيارٍ، لا غير. من يصدِّق ذلك؟ أضحى مجرّدَ وسيلةٍ، بين وسائل إنجابيّة أخرى، بعد أن كان الفاتحَ الواحدَ الأحد!

من منظور رفيقِ خولة: الإنجابُ جريمةٌ في هذه الكرة الأرضية التي أضحتْ "للطوفانِ مشتاقة"، لعلّها "من درَنٍ تُغسلُ" كما قال ذلك الشاعرُ الضرير نفسُه، بعدما أصابها اختلالٌ بيئيٌّ ماحق وتقدّمٌ تكنولوجيٌّ ساحق. فيما تعصفُ بخولة رغبةٌ معاكسة، تسكنُها كلمٌ أساسيٌّ لا شفاء منه (ساعدَ

ذلك على اختيارها ضمن فريق رحلتِنا الطويلة الصعبة، دون أن تُدركَ خولة ذلك!).

كانت تريدُ منه سريعاً طفلاً أو طفلةً تحملُ جيناتِ أمِّها، تُشبِهها تماماً، كي ترفعَها بيدَيها، أمام القمر، أمام الشمس والنجوم، بعشقٍ ونخرٍ وسعادة.

أو لعلَّ شريكَ حياتِها كان غيوراً متطرِّفاً جدّاً. يؤرقهُ أن تكون خولة بؤرةَ إعجابٍ وقطبِ استحواذِ غراماتٍ دائمة. يتَّهمُها بأنها "دونجوانة"، رمتْهُ في "مستنقعِ" جيشٍ من المفتونين بها، آذوهُ ودوّخوا به.

ولعلّها، لِتغييرِ رأيِهِ في الإنجاب وإرغامِه على احترام رغباتِها، أو لإحراق أعصابِهِ ربّما، لجأتْ، من باب اللهوِ أحياناً ومن باب متعةِ الغواية حيناً آخر، وعلى نحوٍ موازٍ لنشاطاتِها المهنيّةِ التعدديّةِ الكثيفة، لجأتْ لِتأجيجِ غرامات مليشياتٍ من العشّاق، "على الطائر" وعن بُعد غالباً. دون فتح الباب على مصراعيه لأي علاقةٍ جادّةٍ ملموسة، بانتظار تغييرِ رأيِهِ في الإنجاب، أو انكسارِ علاقتِها بهِ كلّيّةً... على أملِ حلٍّ جذريٍّ آخر لمعادلاتِ حياتِها!

ثمّ، بعد أن تقدّمتْ خولةُ لمسابقات مغامرات الرحلات الفضائية، واجتازتْ الكثير من امتحانات الاختيار لطاقم رحلتنا، هجَرتْ مسارَ حياتِها المتعثّر مع معشوقِها "الأنانيّ الصغير"، وبدأتْ تتساءل: لمن، مِنَ البطلَين المرموقَين، ستمنحُ قلبَها وجسدَها أخيراً: سباسكي أم فيشر؟

أو، بمعنىً آخر (أكثر تفَرُّداً وألوهيّة): لماذا لا تكون أوّلَ إنسانة، في تاريخ البشرية، تنجبُ خارج كوكب الأرض؟ في القمر (معشوقِها الأوّل والآخر، مثلاً)، إذا أمكن!

في آخر المطاف، هل ثمّة ما هو أعظم وأهمّ وأخلد من تصميمِ أوّل طفلٍ بشريٍّ خارج كوكب الأرض، وإنجابِهِ في السّماوات؟

3

الرّجال الثّلاثة

أكبرُ روّاد الطاقم سنّاً، و"صِمامُ أمان نجاح الرحلة" حسب رأي كمبيوتر الإشراف والتحكيم والقيادة: جلال. راهبٌ صوفيٌّ بامتياز (لِذا اخترتُ اسمَه من وحي اسم الصوفيّ الشهير: مولانا جلال الدين الرومي)، لا يُحبُّ كوكبَ الأرض!

يعشقُ الفضاءَ فقط، ولا يريد إلّا الحياة في شِعابِ السماء. لا يشتغلُ دماغُه إيجابياً إلا عندما يكون خارج الغلافِ الجويّ!

السببُ بسيط: تعيش ثمّة رنيم، عشقُ حياته الكليُّ الأوحد. تلك التي عندما كانت أصابعُه تلامس أطرافَ ساعدِها يلجُ الجنّة.

رنيم، كلوروفيلُ حياةِ جلال: جسدٌ رهيفٌ من موسيقا، روحٌ لا نظيرَ لها، جَمالٌ لا يتكرّر. خانهُ القدرُ يوماً، أعتى خيانة، عندما فقدَها إثرَ مرضٍ مفاجئٍ عضال (سرطانٌ فتّاكٌ جدّاً استباحَ أجملَ نهدَين في تاريخ الكرة الأرضية والمجموعة الشمسية، وتفشّى في جسدِها بسرعةٍ مداهمةٍ غير متوقّعة).

منذ وفاتِها، يراها جلال في السماء، في كل لحظة. يبحثُ عنها كما يبحث العاشقون الصوفيّون عن طائر السيمرغ. ورحلتهُ في مركبتنا الفضائية رحيلٌ إليها، على نحوٍ أو آخر.

جلال "شيخ" الرحلة، الأكثر خبرةً من الجميع في شؤون الأسفارِ الفضائية الطويلة، الأكثر صبراً وبراءة، وإن كان في السابعة والثلاثين من العمر. طبيعتُه هادئةٌ بالفطرة. يتعاملُ مع أيّ خطرٍ أو مفاجأة بلا قلق، بعقلانيّةٍ وذكاء.

برهنَ، دوماً، لِكمبيوترات الإشراف داخل المركبات وخارجها، أنّ دماغَه يعيش أسعد لحظاته عندما يكون خارج كوكب الأرض. لا يحث، في

الحقيقة، إلّا عن الهروب منه إلى عالَمٍ آخر. لا يزعجه في الحياة أكثر من العودة لهذا الكوكب، إلا إذا كان ذلك للاستعدادِ لرحلةٍ فضائية جديدة.

جلال "ابن السماء" كما أسمّيه. لم ألمحْهُ عندما كنّا طلاباً إلا مرّةً أو مرّتين، لأنهُ أكبر منّي سنّاً. لكنّي التقيتُ بهِ مراراً عند التحضيرات للرحلة. أعجبتُ بهِ كلّ مرّةٍ أكثر فأكثر. صار نموذجي في الحياة!

في "تقرير لجنة الإشراف" فقراتٌ استقصتْ بعضَ الجوانبِ النفسيّة لِجلال، واللحظات المفصليّة الحاسمة في ريعانِ صباه، أختارُ منها:

في طفولتِه، كان جلال يرهبُ السماء والليل. يُفزِعُهُ الغسقُ والظلامُ الأبديّ. جبالٌ من الأشباح سكنتْ رأسَه. يرى الفضاءَ مملوءاً بالجنّ والشياطين والعفاريت والتنّينات والأرواح الخبيثة، التي يقود أوركسترا شرورِها: "الثعبانُ الأقرع"!

في الليل، يتحوّل الفضاءُ في عينيه إلى مسرح حربٍ ضروس. شُهُبٌ ترميها الملائكةُ على الشياطين، عفاريت تسكنُ البيوتَ عند نوم ساكنيها، تغتصبُ النساء أحياناً.

كان يتقطّرُ عرقاً، أحياناً، عندما يسمعُ صوتاً ما في المطبخ وهو نائم! صوت "جنيّةِ البيت"؟! "أمّ الصبيان"؟!

ثمّ انقشعتْ كلّ هذه الأوهام دفعةً واحدة، وتلاشتْ كدخانٍ تبتلعُهُ الرياح، بِفضلِ مدرّسٍ في المدرسة الابتدائية، كان يلتقي بانتظام، خارج الحصصِ الدراسية، بثلاثةِ طلاب، أحدهم جلال، لاحظَ مقدرتهم على التساؤل والشكِّ، وحبّهم للاستبيانِ والمعرفة.

في لحظةٍ ما، عندما استوعبَ جلال بفضلِ مدرّسِهِ أن "الصّرع" الذي يعاني منه جارُه، ليس بسببِ "جنّ تَرْكَبُه" حسبَ مسلّمةٍ لُقّنَ بها منذ نعومة أظفارِه، تهاوتْ جبالُ الأوهامِ كلُّها بضربةٍ واحدة!

صار الحديث عن أيِّ كائنٍ لا مرئيّ، لا يعني لِجلال شيئاً. أحبَّ السماءَ

بعدَها حدّ الولَه. تحوّلتْ جنّتَهُ المثلى. لا تسكنُها إلا الأرواحُ الفاضلة. يهربُ إليها من خزعبلاتِ الأرض وأوهامِ أهلِها التي لم تعُدْ تعْنيهِ من قريبٍ أو بعيد.

ثمّ صارت السماءُ مملكةَ رنيم، بدلاً من مملكة الثعبان الأقرع!

استعرتُ اسمَي سباسكي وفيشر من اسمَي بطلَي شطرنج، كلّ واحدٍ أشهر من نارٍ على علَم، كانا نجمي عصر الحرب الباردة.

مبارياتهما لبطولة العالم في الشطرنج في إيسلندا، عام 1972، استحوذَتْ على لبّ البشريّة آنذاك. معاركُها لم تقلّ حينها أهميّةً، من منظور البعض، عن الحروب العسكريّة!

كذلك حالُ رائدَي الفضاء: كانا بطَلَي شطرنج في كليّة الفضاء، تربطهما العلاقة الوديّة نفسها التي ربطتْ سباسكي وفيشر، ولهما المنهج الشطرنجي نفسه.

الأوّل، 32 سنة، عبقريٌّ إستراتيجيٌّ ماكرٌ، مثل بطلِ الأوديسة: عولِيس. والثاني، 31 سنة، مغامرٌ مزاجيٌّ قاهرٌ لا تلين له قناة، بِجبروتِ نصفِ الإله: أَخِيل، بطل الإلياذة.

أو باستعارةٍ ميثولوجيّة إغريقيّة أخرى: الأوّل عقلٌ أبولُويّ أثناء لعبِ الشطرنج، موزونُ المنهجِ بِدقّةٍ مُثلى، على غرار سباسكي السبعينيات. والثاني ديونيسيوسيُّ الانزياحاتِ الشطرنجيّة الحرّة، مثل فيشر السبعينيات أيضاً.

تنافساتُ بطلَي شطرنج فريق الرحلة ومبارياتهما، عندما كانا طالبَين في كليّة رواد الفضاء، مغْنطَتِ الكثيرين، ونُقِلتْ حينها مباشرةً للشبكات الاجتماعية الدولية، لِتمتلئَ بآلاف التعليقات. أُبّهَةُ وجَمالُ النجمَين ضاعفا أيضاً من إثارةِ واستقطاب المشاهدِين: كلاهما رياضيّان مرموقان، مفتولا العضلات، سينمائيّان بامتياز.

ما يفرق بينهما ضئيلُ الأهميّة: سباسكي أشقرُ الشَّعر أزرق العينين، فيما

فيشر فاحمُ الشَّعر بخصلاتٍ دائرية، بعينين سوداوين لامعتين دوماً. الأوّل نادرُ الابتسامات، عبوسٌ قَمْطَريرٌ معظم الوقت، والثاني بابتسامةٍ لا تُفارِقهُ تقريباً، يميل إلى الفكاهة والنكتة بأي ثمنٍ، ومن أيّ نوعٍ أحياناً. يُطلقُ عليه الجميعُ: "مسيو ضدّ التوتر، anti-stress"!

الأوّل يمينيٌّ سياسيّاً، والثاني يساريّ (إذا جاز قول ذلك عنهما).

لكن إجابتهما متقاربة، عن السؤال التقليدي الأوّل الذي نوجِّههُ لكلِّ رائد فضاء:

- ما الذي يجذبُكَ للعمل في مجال الفضاء؟

- مياهُ المريخ! البحثُ عن حياةٍ قديمةٍ اندلعتْ قربَها، أو ما زالت موجودةً حتّى الآن هناك! (سباسكي)

- تأسيسُ حياةٍ جديدةٍ على ضفاف مياه المريخ! (فيشر)

الحقُّ أنّ كلا رائدَي الفضاء نجمان في الشبكات الاجتماعية، يتابعهما عشراتُ الملايين بإعجابٍ خالص. كلاهما نرجسيّان أكثر من بقية الخمسة. تُهِمُّهما سيولُ عباراتِ الإطراء. تُدغدغُ أفئدتَهما وهي تغمرهما كلَّ يوم. كان ذلك مُهِمّاً أيضاً عند اختيارهما ضمن الطاقم!

للجنة الإشراف، وأنا شخصياً، "مؤامراتُنا" وبرامجُنا لربط سباسكي وفيشر اليوميّ، طوال الرحلة، بملايين المعجبين بهما في الشبكات الاجتماعية الدولية. هدفُنا: تشغيلُ دماغيهما إيجابيّاً في كل لحظة، بما يملؤهما بهجةً وغروراً وسعادات، تُخفِّف من وطأة التصفيد في سفينةٍ فضائية، لزمنٍ طويلٍ خارج الأرض.

منيرٌ جدّاً استيعابُ الجانبِ النفسيّ، في ضوء "تقرير لجنة الإشراف"، لِهذين البطلَين الآتِيين من دولتَين متباعدَتين جغرافيّاً، ومن بيئتين ثقافيّتين لم تسمعا يوماً بالجنّ والعفاريت والثعبان الأقرع. أختارُ منه هذه الفقرة:

بدأتْ علاقتهما بالسماء، في صباهما، برغبةِ أن يصير كلُّ واحدٍ منهما طيّاراً

عندما يشبّ. شغفُ كبرَ معهما واستحال كبحُ جِماحِه. نوعٌ من "إرادة القوّة" النيتشاويّة.

ثمّ مع ازديادِ إعجابِ محيطِهما بهما، وتضاعُفِ نرجسيَّتِهما، طارتْ أحلامهما عالياً وبعيداً. سكنهما جنون المجد، لا سيّما بعد أن توالت نجاحاتهما الدراسيّة والاجتماعيّة الباهرة.

مجدُ جاجارين، أوّل من غزا الفضاء في 1961: لا يكفي!

مجد أرمسترونج، أوّل من غزا القمر في 1969: لا يكفي!

مجدُهما، مع اقتراب منتصف هذا القرن الواحد والعشرين: المريخ، ولو طال السفر.

العجيب فيهما، كما يقول التقرير، هو "تشابه شخصيّتيْهما حدّ التماثل غالباً، بل التطابق أحياناً"! كلٌّ واحدٍ منهما صورةٌ مرآتيّةٌ للآخر، غالباً! "وكيل حوْسَبَتِه" حسب تعبير علوم الكمبيوتر. أو، كما قال التقرير، ببلاغة علميّة راقية: "كأنّهما جُسَيمَينِ في تشابكٍ كُونْتِيّ"!

سأتحدّثُ لاحقاً عن خامس عضوٍ في فريق المركبة، مانيارا (اخترتُ لها اسم بحيرةٍ شرق أفريقية، أعشقُها على نحوٍ خاص، وأعشقُ الكيمياء الصوتيّة لأحرفِ اسمِها). هي قائدةُ الرحلة، وأصغرُ طاقمِها سنّاً!

كم كنتُ ضعيفاً عندما لم أعرقل سفرَها، لسببٍ أو لآخر (عند جدلِ لجنتنا حول انتقاء أفراد الطاقم)، وجباناً بائساً لأني لم أُصرِّحْ لها بعشقي قبيلَ قلوع المركبة، على الأقلّ، كوني قد سقطتُ عشقاً بها، يوماً بعد يوم، أكثر فأكثر، طوال التحضير للرحيل!

أقضمُ أظفاري، عندما أتذكّر ضعفي. أي طوال الوقت. حزنٌ دائمٌ عاصفٌ يسكنني. ما أتعسَ العشّاقَ الذين يتركون عشقَهم يسيلُ بين أصابعهم، ويتبخّرُ في قلب العاصفة!

4

بيغاسوس

مركبةُ رحلة XxxXx00F كاتدرائيةٌ إلكترونية مهيبةُ الجمالِ والتصميم. أحدثُ وأبدعُ "الصافناتِ الجيادِ" الإلكترونية، بلا منازع. اسمها بيغاسوس (2).

(2) الحصان الأسطوريّ المجنّح في الميثولوجيا الإغريقيّة.

لا ذائقةَ لهُ، إن لم يكن بليدَ الحسّ عديمَ الرهافةِ في الأساس، من لا تُدغدغُه، عند رؤيتِها، ولو لبضع دقائق، رغبةُ لمسِ جدرانها المتلألئة ونوافذها الزجاجية، والتجوّل في فناءِ مختبراتها وغُرفِ أعضاءِ فريقها، والصعود إلى محرابِها: قُبّتها الزجاجية التي تنتصُّ عليها كتّاج.

تبدو، من الخارج، تحفةً عبقريّة. كاتدرائيةٌ صُمّمت لتعرج نحو أغوار السماء. أناقتُها الكليّة والتفصيليّة معاً، تنوّعُ وتداخلُ ألوانِها، تلألؤُ جدرانِها اللامعة، وبريقُ انعكاسات زجاج نوافذِها وألواحِها الشمسيّة وأذرعِها الروبوتيّة، تجعل المرء ينحني بخشوعٍ أمام ألمعيّةِ هندسةِ صُنعِها وجماليّته.

أمّا للتجّولِ في أحشاء هذه الكبسولة الهائلة البديعة، ورؤيَتِها من الداخل، فتكفي مشاهدةُ فيديو، على موقع مركزِنا الفضائيّ، تُقدّم فيه الكابتن مانيارا سفينتها الفضائيّة، بعد أن تجاوزتْ مجالَ الجاذبية الأرضية، لعشرات الملايين من المشاهدينَ في العالَمين، بناءً على رغباتهم التي كتبوها، وألحّوا عليها في تعليقاتهم في الشبكات الاجتماعية، على منشورات موقع يوميات XxxXx00F.

سأعودُ لاحقاً لسردِ رحلةِ بيغاسوس منذ لحظةِ العدِّ التنازليّ، قبيل إقلاع صاروخٍ عملاقٍ مارد، مدجّجٍ بعشرات الموتورات، يحتضنُها في أحدِ أدوارِ عليائِه (وصفُهُ لِوحدِهِ يحتاج إلى كتّاب): "عشرة، تسعة... اثنان، واحد، صفر"، وما تركتْهُ تلك اللحظة التاريخية من جرحٍ أبديّ في سويداءِ قلبي،

بسبب مغادرة مانيارا!

بِشورتٍ رياضيٍّ بنفسجيٍّ جميلٍ داكن، وفانيلةٍ قطنيّة بيضاء فاتحة (ينسجمان كثيراً مع بشرتِها النحاسيّة، ولمعةِ عينيها الفاحمتين)، تقف العصفورة الإلهية مانيارا، بثقةٍ وسعادةٍ وابتسامةٍ تفتح النفس، في صالة الاستراحاتِ وتناولِ الوجبات اليومية والقهوة، في قلب الدور الثاني من المركبة.

يصوِّرُها جلال الذي لا يبدو، طوال الفيديو، إلا خلال دقيقةٍ عابرة صوّرَتْهُ خلالها خولة، في نهاية الفيديو.

رافقَ الفيديو جزآن من سيمفونية "الكواكب"، لجوستاف هوست (اختارتهما مانيارا وخولة)، تعزفهما أوركسترا برلين الفيلهارمونيّة: "الجزء الثالث: عُطارد، الرسالةُ المجنَّحة"، و"الجزء الرابع: المشتري، حاملُ الفرح".

تبدو خولة في بدايات الفيديو جالسةً تُعِدُّ القهوةَ في المطبخ للجميع، كما تحبُّ ذلك دوماً وتفعلُه بعناية ومتعة، غير بعيدةٍ عن مانيارا.

في ركنٍ قصيٍّ، يبدو البطلان سباسكي وفيشر جالسَين، منهمِكَين في مباراة شطرنج، تتناقلُها الشبكات الاجتماعية في الكرة الأرضية. تحيطُ بثلاثتِهم أحزمةٌ تُثبِّتُهم على كراسيِّهم، لِمقاومةِ ضعفِ أو انعدامِ الجاذبية.

تتنقّل مانيارا، طوال الفيديو، من مكانٍ إلى مكان في المركبة، من دورٍ إلى دور، وهي تطير بمهارةٍ وثقةٍ وخفّة، كسوبرمان أو كفراشة.

أما في ممرّات الأنابيب المعدنية العريضة، الأفقيّة أو المائلة، التي تربط بعض غرف وأدوار المركبة (لتلافي الاصطدام بموادّ يمكنها أن تطير في كل الاتجاهات، بسبب غياب الجاذبية، لأنّها غير مربوطة، أو غير ممغنطة كقطع الشطرنج)، فتسبح مانيارا فيها كسمكة. تجيد ذلك بلياقةٍ ومرونةٍ أيضاً. هي، بامتياز، عصفورةٌ وسمكةٌ في الآن نفسه!

تبدأ الفيديو بتقديم مكوّنات الصالةِ الترفيهية، ثمّ غرفة القيادة التي تربطُ

المركبة، دون توقّف، بمركزنا الفضائي الدوليّ، رفوف المناشفِ الورقيّة، متنوّعةِ الوظائف، لغسل الجسدِ ونظافته، الحمّامَين المتقابلَين في جهتين مختلفتين من المطبخ، أجهزة تطهير الماء التي تسمح للروّادِ بِشربِ بَولِهم - إي نعَم! - لأنّهُ يصيرُ أنظف من ماء الأرض!

تبدأ بعد ذلك بوصف المطبخ المملوء بالمشروبات المنعشة أو المقاوِمة لتأثير غياب الجاذبية الأرضية، وبالمأكولات الخاصّة المعلّبة بالبلاستيك المضغوط، بكلِّ أنواعها من لحوم وأسماك وخبز.. وأخيراً: زاوية ممارسة الرياضة اليومية (ثلاث ساعات إجبارية يوميّة للجميع، للحفاظ على تماسك ولياقة الجسد، في بيئةٍ خاويةٍ، بلا جاذبيةٍ أرضيّة تقريباً).

تشرح مانيارا لملايين المتابعين في كوكب الأرض والفضاء، بتفصيلٍ فنيٍّ جذاب، كيف يُنظِّف رائد الفضاء فَمه بمعجون الأسنان، كيف يغسل الفرشاة بعدها بماء قنينةٍ صغيرة، شافطاً بِفمِهِ أيَّ قطرةِ ماءٍ تظلُّ معلّقةً في هواءِ المركبة (بسبب غياب الجاذبية)!

لا تجرأُ الحديثَ عن الطرش الذي يمكنْهُ أن يظلّ أيضاً معلّقاً في هواء المركبة! أو عن تداعيات حالات الإسهال، إذا خانت تلك الإفرازاتُ البيولوجية أحداً!

لكنّ الرسالةَ تصلُ، وهي تقولُ بتمتمةٍ مسرحيّةٍ جذّابةٍ ساخرة: "لحسنِ الحظِ أن روّادَ الفضاءِ لا يبصقون في الجوِّ، مثل لاعبي كرة القدم!".

تنتقِلُ، بعد ذلك، لِوصف أجزاء الدور الأول الذي يمكن الهبوط نحوه من خمسةِ منافذ أرضيّة أفقيّة، أشبه بأبوابٍ تقود إلى خمس "مقابر"، متجاورةٍ على نحوٍ دائري. صُمِّمتْ جميعُها على الطراز العمليّ البديع نفسه تماماً.

تفتح مانيارا أحدَ الأبواب الأرضية، باب "مقبرتِها": غرفتها الأنيقة الحميمة. بلياقتِها الجسدية المثالية، تدلقُ فيها بحركةٍ مطّاطيّةٍ رياضيةٍ ناعمة، ماهرة وسريعة. نهايات شعْرِها الدائريّة تماوج، ترتفع، تُحلِّق عموديّاً في منظر

مفاجئ آسر!

من وسط الغرفة، تُقدِّم للمشاهدين، أوّلاً بأوّل: سريرَها، حزامَهُ الوقائي عند النوم، مكتبَتها العامرة وكمبيوتراتها، بعضَ ذكرياتها الشخصية والعائلية التي حملتْها من الأرض...

لاحظتُ فيها ما لم يدركهُ أحد: على جهاز تسخين غرفتها قطعةُ بخورٍ سُقطريٍّ، فوق طبقٍ صغير! دار جدلٌ طويلٌ بينها ولجنتنا حول منع أخذهِ معها في السفينة الفضائية، لولا أنها برهنت فعلاً أنها لا ولن تُحرقه إطلاقاً.

الحقّ أن من أندرِ خصوصيات مانيارا، وأروعِها، وضعَها الدائم، في غرفة نومِها، لقطعةٍ صغيرةٍ من البخور السُّقطريّ، ذي العبق العطريّ الذي لا مثيل له، على صحنٍ صغيرٍ، فوق صفيحةٍ خفيفةِ السخونة (دون استخدام المجامر والنار إطلاقاً).

رائحةٌ زكيّةٌ تفوح ببطء، بلا دخان، تملأ الغرفةَ سحراً رقيقاً خاصّاً صار مندمجاً في بشرة مانيارا، في حمضها النوويّ. أتذكّرُ الآن رائحتَها العميقة، في لقائنا الثنائي الأوّل! ستظلُّ ملتصقةً بخياشيمي وروحي أبداً. جنّنَتْ بي يومذاك، وما زالتْ!

لعلّ مانيارا تحتاج عضويّاً إلى هذه الموسيقا العطريّة، وسيلتِها الشاعريّة المثلى للتخلّصِ من أيّ توتّرٍ أو ضيق.

شعرتُ بالدّوخةِ وأنا أرمقُ طويلاً قطعةَ البخور! أستنشق عبقها في المركبة الفضائيّة وأنا في الأرض! تخيّلتُ رائحتَها الدائمة في بيتٍ أعيشُ فيه. ألم يكن من الأجمل أن تظلّ هذه القطعةُ وصاحبتُها في كوكب الأرض، في منزلٍ عطريٍّ أعيش فيه؟

أي جنونٍ وعبثٍ اكتسحَ حياتي وأنا أترك هذه العصفورة الربّانيّة تهاجرُ، تغادرُني نحو السماوات! ألم يكن من الأجدر بي أن أختطفها وأهرب بها إلى قريةٍ نائية في طرف الدنيا!

من كوّةٍ زجاجيّةٍ مزخرفةِ الإطار في غرفتها تبدو لوحاتٌ سرياليّة بألوانٍ عميقة عجيبة: مليارات أجرامٍ ناصعة تتغامز، ثمّ يدخل سريعاً على خطّها مجرٌّ قطبيٌّ رهيبُ الجمال. كويكبات، بأحجامٍ مذهلة، تعبر وسط سُدمٍ من غازاتٍ وغبارٍ كونيٍّ محتدم... ومناظرُ تسحر الروحَ للأرض وهي تفترش تحت معبودها: القمر، وحيدَين، عاشقَين أبديّين، ثالثهما الشيطان!

تقول مانيارا للمتابعين، ونظراتها تمشط أرجاءَ الكون من الكوّة: "الحركة هي الثابت الوحيد الدائم في هذا الكون. يتعانق فيها الزمان والمكان. لا وجود لهما من دونها!".

صدقتْ إلهةُ الحركة، مانيارا.

ثمّ تؤشر مانيارا بأصابعها باتجاه الزهرة، المريخ، وأبرق النجوم: الشّعرى اليمانية. تتحدّثُ عنها بشوقٍ وحميمية وعشق، كما لو كانت مدناً مجاورة ستزورها قريباً.

من بعيد، يبدو للعين المجرّدة: كوكبُ المشتري العملاق، وبعض الأقمار الكبيرة التي تدور حوله، والذي رآها جاليلو بتلسكوبه، في العاشر من يناير 1610، وتغيّرَتْ جذريّاً بفضلها رؤيةُ الإنسانِ للكون، بعد ذلك.

غرفُ الدورِ الأولِ الخمس دائريّةُ الترتيب: على يمين غرفة مانيارا تقعُ غرفةُ خولة، وعلى يمين غرفة خولة غرفةُ جلال. وعلى يسار مانيارا تقع غرفة فيشر، ثم على يسارهِ غرفةُ سباسكي (المتاخمةُ لغرفة جلال).

بين كل غرفةٍ وغرفةٍ مجاورة بابٌ صغير. يمكن إغلاقه من الداخل، لكنه يظلّ مفتوحاً على الدوام، للوصول إلى الجارِ عند الضرورة أو الحاجة.

تصعدُ مانيارا مجدّداً لصالة الاستراحة في الدور الثاني، المملوءةِ في كل رفوفِ جوانبها، على نحوٍ يبدو عشوائياً، بالكمبيوترات والشاشات والأسلاك الكهربائيّة المبعثرة والأجهزة الإلكترونية المختلفة.

يتساءلُ عددٌ كبيرٌ من المشاهدين في تعليقاتهم المباشرة على فيديو المركبة:

كيف يستطيع المرء عدمَ الضياع في هذه المتاهات والأدغال الإلكترونيّة؟ "ما هذه الفوضى؟! تنقصُكم شغّالة تطلع ترتّب لكم البورديل دَه!" تكتب سيّدة من بلجيكا! (لا تنقصهم، في الحقيقة، "قاعدة بيانات" كمبيوتريّة، تُدركُ موقعَ كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، في أيّ لحظة).

تنتقِلُ مانيارا نحو خولة التي أنجزتْ عملَ القهوة، وتوجَّهتْ، نحو سباسكي وفيشر، تحمل فنجانين تطير بهما (وبجَمالِها الفريد قبل ذلك: منظرُ خولة بفانيلتها السوداء الناعمة الأنيقة وشورتها الياقوتي الفاتح، بجسدِها الاستثنائيّ المقاسات والجمال، وبساعِدَيها وكتفَيها الأبيضينِ الطليقَينِ الساحرين، فجّرَ آلاف "سبحان الله!" في بعض تعليقاتِ المشاهدين على الإنترنت).

ابتسامتا شكر خفيفتان آليّتان تفلتان من بطلي الشطرنج، دون أن ينتبِها إلى لمعةِ عينَي خولة وهي تَرُدّ على كلِّ ابتسامة.

لم تُرِد مانيارا تعكير صفوِهما، بالحديث معهما عند تصوير الفيديو. المباراة حاميةُ الوطيس. اكتفَتْ بتوجيهِ جلال لتصويرهما عن قُرب، وهما يحملقان بالشطرنج في مركز الطاولة.

تسألُ مانيارا خولةَ، وهي تحمل لها فنجان قهوتِها:

- ما أكثر ما تشتاقين له في كوكب الأرض، خولة العزيزة؟

- جُبنُ "الكامامبير" النورمانديّ الفرنسيّ!

ردّت خولةُ بتلقائيةٍ وضحكةٍ طفوليّةٍ صغيرة. ثم أضافتْ:

- والسباحة في "حيدِ المرجان العظيم" في أعماق المحيط الهادي على تخوم شمال شرق أستراليا، أو في "جزيرة عبد الكوري" في أرخبيل سُقطرى، بجانب الشُّعَب المرجانية!

خولة سبّاحةٌ معروفة ماهرة. استغلَّ جلال ردَّها لينقلَ عدسة الكاميرا نحو صورةٍ لها في إحدى مسابقات السباحة المهنيّة الطلابيّة الدوليّة، على جدارٍ صغيرٍ وَضعَ فيه أعضاءُ الفريق بعضَ صورِهم الشخصيّة الحميمة (أرمقُ،

وسط الجدار، صورةَ الكلبة الشهيرة، "الشهيدة" لايكا، التي نجحتْ في مرور مسابقات روّاد الفضاء للحيوانات، ثمّ احترقتْ داخل مركبة سبوتنيك 2، قبل نحو قرنٍ من الآن، في 3 نوفمبر 1957. لعلّ سباسكي، "مجنون لايكا" كما يُسمِّيه فيشر، هو من اختار وضع الصورة!).

من الصالة، تطير مانيارا، تتبعها خولة، عبر أحد الأنابيب العمودية العريضة الذي يؤدّي إلى الدور الأعلى.

في قمّتِه: القبّة، غرفةٌ زجاجيّةٌ رهيبة، يُسمِّيها الجميعُ حيناً "الفقاعة"، وحيناً: "العرش". هي محرابُ المركبة التي يمكن منها مشاهدة كلّ الكون، بزاوية 360 درجة!

لا تَفرغ الفقاعةُ لحظةً واحدة. من يجلس فيها، بكاميرتهِ الخاصّة، أو للتأمّلِ أحياناً، لا يريد مغادرتَها، ويلزم انتزاعُه منها انتزاعاً.

بالإضافة إلى هذه القبّة الزجاجية المقدّسة، كلّ غرفِ الروّاد، وكذا قاعُ المركبة، وكلُّ جدرانِها الجانبية، تعجُّ بالكوّات والنوافذ الزجاجية الواسعة، ذات التصميمِ الفنيّ الجميل والأطرِ المزخرفةِ البديعة والألوانِ الآسرة، لتحسين الحياة النفسيّة للطاقم.

منظرُ الكونِ من الفقاعة، ومن هذه الكوّات والنوافذ، أروعُ وأرهبُ وأجملُ ما يمكن لإنسانٍ أن يحلم برؤيتِهِ في حياته. لا يمكن لمن يراه ألّا يشهق!

عندما وجّهتْ مانيارا كاميرا جلال باتجاهِ ما يمكن أن يشاهدهُ المرءُ من إحدى النوافذ، كتب أحدُ المعلِّقين المصريّين على الفيديو، في موقع إنترنت المركبة: "عايز شراء تذكرة على الشبّاك، في الفآعة!".

تتناثر في الدورِ الأعلى المختبراتُ المدجّجةُ بأجهزة تجارب كيماويّة وبيولوجيّة عديدة. تعبر مانيارا سريعاً، بصحبةِ خولة، أمام عدد كبير من الصناديق والأقفاص الزجاجية، حيث تُجرى تجارب زراعةِ النباتات والورود، والاحتفاظِ بالعيّنات الكيماوية والجيولوجية، وبعددٍ من العصافير.

نتوَقَّفُ أمام أحواضٍ زجاجيّة للسمك والنباتات المائيّة، وبعض الأنواع البيولوجية الصغيرةِ الحجم، أو الميكروسكوبية، أو تلك التي سوف تحملها المركبة عند العودة...

تتركُ مانيارا خولةَ تشرحُ وظائف بعض موادّ هذه المختبرات، ونماذج من أهمّ تجاربها.

تهبط الرائدتان إلى الصالة، بِصحبة المصوِّر جلال. في أحد جوانبها الرئيسية خَمسُ بدلات فضائيّة بيضاء عازلة (في رأسِ كل بدلةٍ قناعٌ زجاجيٌّ لِغطاءِ الوجه). ارتداها أعضاء الطاقم، عند بدءِ الرحلة، وهم جالسون في مقاعد الإقلاع، في كبسولةٍ داخليّةٍ صغيرة، مُجاورةٍ لِغرفة القيادة.

يتسربلونَ بها عند خروجهم من المركبة، لمُتْعةِ السباحةِ قليلاً في الفضاء السحيق والإصغاءِ الخاشع لِلصمتِ الكونيّ المطلق، أو لإجراءِ عملياتِ صيانةٍ للألواح الشمسية، أو لأذرعِ المركبة الخارجية التي تأتي دوريّاً لِتلتحمَ بها مركَباتٌ فضائيةٌ تحمل لبيغاسوس المؤنَ الغذائية والمعدّات، وتعودُ منها بالمخلفات البيولوجية للطاقم وغيرها من النُّفايات، ترميها في الفضاء الجويّ، فتصير شهباً نتمتّعُ بمشاهدتِها، كبقيّة الصخور وهي ترتطمُ بأرجاء الغلاف الجويّ وتتحوّل إلى ألعاب ناريّة تأسرُ النظر!

بدلاتٌ مهيبةٌ وثقيلة، تسهِّل التنقّل، لكنها لا تحميهم (أو تحميهم نسبيّاً فقط) من "الأشعة الكونية"(3)، و"الرياح الشمسيّة"(4)، وغير ذلك من أشعّةٍ فضائيّةٍ عدوانيّةٍ فتّاكة.

(3) جسيماتٌ ذات طاقة عالية، مُضرّةٌ للجسد، تأتي من أعماق الفضاء، وتصطدمُ بالغلاف الجوّي الذي يحمينا منها.

(4) جسيماتٌ مشحونة، تنبعث من الغلاف العلويّ للشمس، يحمينا منها "الحقل المغناطيسيّ" للأرض.

طارتْ خولةُ لِتعودَ لِجلال بفنجان قهوتِه، ولتستعيرَ الكاميرا دقيقةً منه،

لِتصويرِهِ والتركيزِ عليه. استغلَّتها مانيارا لتوجيهِ هذا السؤال المفاجئ لجلال، لزيادةِ تشويقِ ومفاجآت الفيديو، فيما خولة تسلِّطُ العدسةَ على وجههِ الملائكيِّ البشوشِ الخدومِ الطيِّب:

- جلال، كبيرنا الذي علّمنا السحر، هل حلمتَ ليلة البارحة بشيءٍ ما يدور في كوكبِ الأرض؟

- البارحة؟ بتوقيت أي كوكب؟

ردّ جلال ساخراً بِلطف.

ضحك الجميع من كلمة "البارحة"، لأنهم فعلاً لا يدرون بتوقيتِ أيّ كوكبٍ تحدّثُ مانيارا! يتوالى، على المركبة الليلُ والنهار، كلَّ ساعةٍ تقريباً، من كلِّ يومٍ أرضيّ! ثمّ ماذا يعني التوقيتُ في كوكبٍ كالقمر، مثلاً، تظلُّ الشمس مشرقةً فيه خلال أكثر من أسبوعينِ أرْضِيّين؟ أو ماذا يعني أساساً وسرعاتُ كلِّ هذه الأجسامِ الفضائيّة مختلفة!

- كوكبُ الأرض، طبعاً!

قاطعَتهُ مانيارا بابتسامةٍ مشرقة.

- بتوقيت أيّ ضيعة من ضِياعِ الأرض؟ (يسأل).

- أرخبيل سُقطرى، طبعاً!

ثمّ ردّ جلال، بهدوء، على سؤال مانيارا الأوّل:

- لا، لم أحلم بأيّ شيءٍ في كوكبِ الأرض!

- لم تحلم إذاً "البارحة"، كعادةِ ثراء أحلامِك التي تحكيها لنا كلَّ صباح؟

- بلى، قائدتنا الأصغر سنّاً، عبقريّتنا الغالية مانيارا!

- ماذا حلمتَ، أو على الأقل: في أي زاويةٍ من الكون كان مسرحُ حلمِك، إن لم يكن في الأرض، كما قلتَ؟

- المريخ!

- ماذا حلمتَ إذاً، إن لم يكن في الحلم ما تريد الاحتفاظ به لِوحدِك؟

بعد تردّد، أجاب جلال:

- هو حلمٌ راودني مرّةً سابقة، وحكيْته لكم، كما تعرفين. يبدو أن أحلام الإنسان، وهو بعيدٌ عن الجاذبية الأرضيّة، تظلُّ معلّقةً في فضاء اللاوعي، لا تراوحُ مكانها! (عقّبَ بجدٍّ أو بِمرح، لا أعرف!).

- ماذا حلمتَ إذاً؟

- كنتُ في الحلمِ أصعدُ جبل الأوليمبوس(5) في المريخ، مشياً نحو القمّة! ثمّ هبطتُ قليلاً في الجهة الأخرى من قبّةِ الجبل، لأرى ظهرَ فتاةٍ جالسةٍ تنتظرني. أقتربُ منها...

(5) أكبر جبل في المجموعة الشمسية. ارتفاعه 25 كيلومتراً. أعلى من جبل الهملايا بمرّتين ونصف تقريباً.

لم يشأ جلال مواصلةَ الحلم. اكتنفتْهُ سُويداء جذريّة، نوستالجيا حزينةٌ انعكست في تحشرجِ صوتِه. توقّفَ الفيديو عند هذه النهاية المؤثّرةِ المفتوحة، كما أرادتِ المخرجةُ الألمانيّة مانيارا.

لعلّ خولةَ وحدَها من تعرفُ ما يدور في دهاليزِ دماغ جلال، وأقبيةِ أحلامه. جمعتْهما علاقةٌ طويلةٌ عميقةٌ لم تخسر، وإن يكبرها بسبع سنوات.

هي الوحيدةُ في الطاقم من تعرف رنيمَ حتّى وفاتها المفاجئ الذي زلزل حياة جلال، بل عاشرتْهما معاً كصديقةٍ حميمةٍ لهما الاثنين، عندما كانت تعيش في سكنِها الجامعيّ، قريباً من منزلهما بسُقطرى "الجديدة".

5

مانيارا

كان بِودّي أوّلاً أن أطلِقَ على مانيارا اسم جايّا: إلهة الأرض في الميثولوجيا الإغريقية، لسببٍ بسيط: هي مهووسةٌ بجَمال كوكبِنا وإن كانت رائدةَ فضاء، لِدرجةِ أنّها تريد تصديرَ ورودِه وطيورِه نحو القمر والمرّيخ، وأبعد من ذلك!

اخترتُ اسمَ مانيارا، بدل ذلك، لأني أعشقُ فعلاً كيمياءَ أحرُفِه، وأعشقُ البحيرةَ التي تحمل هذا الاسم، الرابضةَ في أجمل براري الأرض المجاورةِ لجبال نجورو نجورو، قرب مهدِ الإنسانِ الأول: متنزّهات سيرنجيتي في شرق أفريقيا. "أجمل بحيرات أفريقيا قاطبة" كما قال إرنست همنغواي.

منذ صغرِها، بعد أن قرأتْ روايةَ أنطوان دو سانت إكزوبيري **الأمير الصغير** (الذي يعشق وردةً "وُلِدتْ في نفس يومِ ولادةِ الشمس" في كويكب B612) حلمتْ بأن يمتلئَ القمرُ والمريخُ ببساتين وغابات ومروج، بأزهارٍ وحقولِ بنفسج، وبأسرابِ حمامٍ كثيرة تُظِلُّها، بِعصافير تهزج وتزغرد، بدجاجٍ وديوكٍ تنقنق وتصقع، وفراشات تتطايرُ في كل فضاءاتهما.

ثمّ خفّفَتْ مانيارا من تطرّفِ الحلم، هذّبَتْهُ وعقلَنَتْهُ، بعد أن التحقتْ بالدراسة الجامعية، لكنها ظلّتْ، في الجوهر، أمينةً لبداياته، كما يبدو من إجابتها عن السؤال التمهيدي التقليدي للمرشحين للسفر إلى الفضاء:

- ما الذي يجذبُكِ للعمل في مجال الفضاء؟

- أريد أن أحملَ إلى القمر والمريخ، في صناديق احتباس حراري، باقاتٍ ونباتات أرضية، تزهر وتنمو هناك، تغمرُ بأُكسجينِها كبسولاتِ الإقامة الإنسانية داخل قرىً استيطانية دائمة! أحلمُ أن أكونَ "فلّاحةَ القمر والمريخ الأولى"!

أعرف تماماً لماذا أصرّ الكمبيوتر، الذكيُّ جدّاً، أن تكون مانيارا ضمن فريق

المركبة، بل قائدته رغم صغر سنّها: هي فلّاحةُ أحلامٍ بامتياز، وكاميكازُ مشاريع تطبيقيّة في الوقت نفسه. إذا راودها حلمُ مشروعٍ ما (كما لاحظ الكمبيوتر، ومعظم أعضاء لجان الإشراف والامتحانات) فبإمكانها لتحقيقهِ أن تُضحّي بحياتها، مثل كاميكازٍ، لو لزم الأمر. ثمّ هي ماكينةٌ ذات طاقةٍ نوويّة، تُنجزُ تكليفاتها ومهامَّها قبل انتهاء موعدِها، وتطلبُ المزيد. شعارُها في الحياة "العمل أخو الحلم".

يكفي أن أتذكّرَ لقاءَنا الأوّل، وجهاً لوجه، برفقةِ بعض أعضاء لجنة الإشراف، بعد أن مرّتْ مانيارا عدداً كبيراً من الامتحانات. كانت جالسةً على يميني. لم تنبس ببنتِ شفة، رغم أن أكثر من موضوعٍ عبرَ دردشتَنا، وكان بإمكانها أن تُدلي بِدلوها، بل أُتيحت لها أكثر من فرصة.

استغربْنا من سلوكِها، كما لو كانت تحت تأثيرِ مخدّرٍ ما!

ثمّ في لحظةِ صمتٍ جماعيّ عابر، قدّمتْ مانيارا لي، دون لفظِ حرفٍ واحد، شاشةَ هاتفِها... لأقرأَ عليها سيرتَها الذاتية، بكلّ ما تعجّ من إنجازات ودراسات ومشاريع وأبحاث مرموقة، ومؤشراتِ تفوّقٍ استثنائيّ، مبكّرٍ جداً، يتجاوزُ الجميع!

كنتُ أعرفُ كلَّ ذلك مسبقاً، ولم تكن تحتاجُ إلى تقديمِه أو استعراضِه. استغللتُ تلك اللحظة لأحدّقَ بعينيها المتلألِئتين، ووجهِها النحاسيّ الملائكيّ الذي لا يخلو من بعض ملامح بدويّة تأسرُ القلب، وشَعرِها السلس الفاحمِ ذي النهايات الدائريّة المدهشة قرب الكتفين، وهي تُقدّم لي شاشة الهاتف. تسلّلتْ نظراتي نحو انسيابِ هذه الدوائر المتعانقة الجذّابة.

كان أوّل انطباعٍ لي، أو أوّل جملةٍ راودتني: "ثمّةَ بُعدٌ تراجيديّ في شخصيةِ هذه الفتاة!".

"فتاةٌ ميتافيزيقية"، هكذا خطر ببالي حينذاك. لاحقاً، سأضيفُ عندما أعرِفها أكثر، وأشتغلُ وأتفاعلُ معها يومياً (كونها كابتن الرحلة): جبّارةٌ هذه "الكتكوتة" النادرة، هذه العصفورة الفولاذيّة الهادئة، لا يُعرقِلُها عن

تحقيق مشاريعها عائق. لعلّ شعارها هذه المقولة النيتشاوية: "الكلامُ الأكثرُ صمتاً يُحرِّك الزوابع، الأفكارُ الآتيةُ بأقدام الحمائم تَقودُ العالَمَ"!

بعد مغادرة بقية أعضاء اللجنة، واصلتُ الحوارَ معها على الطاولة، وجهاً لوجه. أراقب تلألؤ عينيها العميقتين وهي تنظر لي أحياناً.

- سؤالٌ أودّ توجيهَه، لأخذ الرأي فقط، لا علاقة له بامتحانات الانتقاء أو بأيّ تقييم: ألا تظنّين أن هناك كواكبَ يعيش فيها أناسٌ مثلنا؟

- أظنّ أنكَ تظنّ شخصيّاً بوجود مثل هذه الكواكب!

ردّتْ.

- محتملٌ جدّاً ذلك فعلاً، من وجهة نظرٍ إحصائيّة، على الأقل. ثمّة ملياراتُ ملياراتِ الكواكب! ما الذي يمنع وجود ظاهرة الحياة في بعضٍ منها؟ لماذا لن توجد الحياة إلّا في كوكبنا فقط؟ لكنّ سؤالي كان موجَّهاً لكِ!

- أظنّ شخصيّاً أننا وحيدون في هذا الكون. أو ربما استثنائيّون على الأقل!

- ألِفَحْوى اعتقادِكِ أسبابُه الدينية؟

- ربّما. مثلما لِفحوى اعتقادِكَ أسبابُه اللادينيّة، كما أظنّ. لعلّي قرأتُ لكَ يوماً أنّكَ لن تستغربَ إذا وُجِدَ "بشرٌ" يتنفَّسونَ غازَ الميثان، بدلاً من الأكسجين، في كوكبٍ ما، غلافهُ الجويّ مملوءٌ بهذا الغاز، وخالٍ من الأكسجين، وظروفُه قابلةٌ للحياة، بشرٌ قادهم "التطوّر والانتقاء، في عوالمِهم، إلى ذلك"! لعلّكَ ممن يظنّون أنّ مبدأ "التطوّر والانتقاء" على كلِّ شيءٍ قديرا!

- ربّما... سؤالٌ آخر من الطراز نفسه: ما رأيكِ بكلِّ هذه الميزانيات الخيالية المكرّسة لرحلات الفضاء، فيما كوكبُنا الذي يحتضر أحوجُ لها لإنقاذه؟

- بالنسبة إليّ: لِتكنْ الأولوية لكوكبنا دوماً. لكنّ استكشافَ الفضاء

وغزوَه ضرورةٌ عضويّة موازية أيضاً، ستساعد الإنسان على حلِّ كثيرٍ من أزمات حياته، وهي توفِّر له مصادر طاقات وموارد جديدة في غاية الثراء والأهميّة. بل لعلّها ستكون ربما سبب إنقاذهِ وديمومةِ حضارته على سطح البسيطة، أو في كوكبٍ مجاورٍ يُهاجِرُ إليه، إذا اقتضتِ الضرورة! كوكب الأرض "الجديد"! "الأرض 0.2"! وأنتَ، ما رأيك الشخصيّ بذلك، إذا يحقُّ لي أن أعرفَه، خارج مواقفِكَ والتزاماتِكَ الرسمية؟

كِدتُ أقاطعها سائلاً:

- "يُهاجِر إليه"! وماذا عن الأشجار، يا ابنة المراعي والأشجارِ وسيِّدتها؟ كيف ستفعلُ، وبأيّ أقدامٍ ستهاجر، هي أيضاً، إلى "الأرض 0.2"؟

لكنّي تريّثتُ. لا أودُّ دعكَها بِسُخريّةٍ لا أدري كيف ستستقبِلُها، أو تردُّ عليها.

ألاحظ: تصرّ دوماً على تكافؤِ توجيهِ أسئلتِنا (ما دامت غير رسميّة، كما قلتُ لها)!

لم أبُحْ لأحدٍ قبل ذلك بما يدور في عمقِ أعماقي، وأنا أقعُ في شِباكِ أسئلتِها المعاكسة، وأفضي بسرٍّ كان بإمكان كشفهِ إقالتي من مهنتي:

- لِيكُنْ سرّاً بيننا: أعيشُ تناقضاً وجودياً صارخاً في هذه الأمور، في الحقيقة: يُهمّني نجاحُ بعض مشاريع الفضاء فقط، لأسباب معرفيّة لا غير، ولا أكثر! أو لِأقلْ: لأسبابٍ معرفيّة أساساً. لا أدري في الحقيقة ما أريد! أيّ سعادةٍ أعظم من سعادةِ رؤيةِ أرشيف الماضي، منذ الانفجار الكوني الكبير(6) وتشكّلِ أولى المجرّات، نجماً نجماً، كوكباً كوكباً، رؤيتهِ بكلِّ تفاصيلهِ الصغيرة، بمفعولٍ رجعيّ: بواسطة التقاط الضوء الذي انبعث من الكون آنذاك؟! لكنّ كوكبَنا الأزرق هذا أحقُّ بكل آلاف وآلاف المليارات التي تُصرف لغزو الكون اليوم، ولِترويضِ فضاءٍ خارج الأرض، مُعادٍ للحياةِ بطبيعتِه: بلا جاذبية أرضيّة، بلا غلافٍ جوّي ولا أُكسجين، تقصفهُ "الأشعة الكونية" و"الرياح الشمسية"... أقول لنفسي أحياناً، عزيزتي

مانيارا: ليس وقت هذه المشاريع الآن إطلاقاً، في كوكبٍ يحتضر. وربما لا داعي لها إطلاقاً اليوم أو غداً! فالإنسان بطبيعتهِ كائنٌ محدود القدرات الجسديّة، لهُ عمرٌ ضئيلٌ جدّا لا يمكن تجاوزه، لا حول لهُ ولا طاقة للسفرِ إلى المريخ مثلاً، بأيّ حالٍ من الأحوال! يُفترَضُ أن تكون كلُّ المشاريع البشريّة، بمجملِها، لإصلاح خرائب هذا الكوكب وإنقاذِه، واقتلاع جذورِ الشقاء الإنسانيّ منه. ثمّ ما أخشاه أكثر: يبحث الإنسانُ اليوم عن كواكب أخرى لِتخريبها، بعد أن أكمل تخريب الأرض بنجاح: "لِحماية الأرض" (كما يُقالُ برياءٍ لا يخلو من اللؤم)، ينقلُ البشر اليوم مجمّعات كمبيوتراتهم الهائلة إلى مدارٍ قريبٍ من الأرض. تنزحُ مصانعُهم الوسخةُ والمخرِّبةُ للبيئةِ نحو القمر. ويملؤون الفضاء بمحطّات طاقة شمسيّة، وبفنادق للسياحة السماوية... يلزم أن يكون الفضاءُ محميّةً طبيعيةً لا يمسُّها أحد! يبدو لي أحياناً أن ثمّة غطرسةً انتحاريّةً وجنوناً كليّاً فيما نقوم به جميعنا، أنتِ وأنا!

(6) "البيغ بانغ"، قبل 8.13 مليار عام.

امتزجَتْ نظراتنا بارتباك، بعد هذا الاعتراف الخطِر. ثمّ سكونٌ شارد، كأنّ على رؤوسنا الطير.

رمقتُ، بين بريق الثقة الهائلة بالنفس في عينيها، وهدوءِ نظراتهما، ظلالاً راقصةً لابتسامةٍ ما، تُشبِهُ بدايةَ استقبالٍ حميدٍ لما يدور في وجداني من إعجابٍ بها وثقةٍ كليّة، وبوْحٍ صادق.

لاحظتْ أن اعترافاتي كانت مُخْلِصةً، في كلِّ الأحوال، وغريبةً جدّاً، بل ازدواجيّةً وغير متوقَّعة البتّة، ممن عُيِّنَ مديراً أرضيّاً لرحلةٍ فضائيةٍ يمكنُها الذهابُ إلى المريخ، هي قائدتُها!

أظنُّ أن شرارةَ مشاعرٍ خفيّةٍ صامتة (أكثر من الإعجاب بكثير) اندلعتْ في لاوعيي يومذاك، وهي تجيب، بهدوءٍ أكثر من اللازم، وبرصانةٍ لا تخلو من الحذر، عن أسئلةٍ تقليديّة أردتُ بها تطويلَ الحوار بيننا، قبل بَوحِي الذي كان مفاجئاً لنا الاثنين.

فجأة، أستنشقُ شرارةً أذكتْها رائحةٌ فذّةٌ، زكيّةٌ جداً وغيرَ اعتياديّة، تفوح منها، كما لو كانت جزءاً من تركيبِها البيولوجيّ: ليست رائحة عطرٍ تقليدي! لعلّها رائحة بخورٍ عطريٍّ راقٍ جدّاً، لم ألاحظْه من البداية. يكتشفه المرء، باستغرابٍ وارتباك، بعد برهةٍ من الحديث معها.

لا، ليس عطراً، بل عطر العطر، بامتياز: عبقُ جسدِها، رائحةٌ تتغلغلُ في ثنايا حمضِها النوَويّ، وليست رائحةً اصطناعيّةً ملتصقةً بالبشرة!

(إلهي، ماذا أفعل؟! تراجيديا حياتي تكمن في عشقي المجنون لِلمرأة، بِجمالها، لِصوتِها، لِنظراتِها، لِرائحتِها...).

ثمّ خانني هذا السؤال الساذج، انزلقَ من لساني دون أن أشعر:

- أتعتقدين أنه يمكن أن تكون هناك علاقةُ حبٍّ بين إنسانين يعيشان في كوكبين مختلفين؟

- يحتاج هذا السؤال إلى مخيّلة روائي! يعتمدُ الأمر على المسافة بين الكوكبين ربّما، من يدري؟! أمّا القمر والمريخ فقد صارا ضاحيتين لكوكب الأرض، لا غير!

- المريخُ أيضاً؟

ابتسمتْ، مما خفّف من جفافِ الحوار. كانت فرصةً مناسبةً لأسألَها:

- تقصدين أن الإنسانَ سوف يستطيعُ المجيء منهما، أو الوصول لهما من الأرض، لزيارةِ نصفِهِ الآخر، في عطلة رأس الأسبوع، ثم يعود؟!

ابتسمتْ بِحذَر. لعلّي فسّرتُ إحدى نظراتِها لي كما لو أنها استوعبَتْ ما يختلجُ في أحاسيسي، بل كما لو أنها استقبَلَتْ أصداءَها بأُذنٍ رهيفة، وبمشاعرَ متناغمة.

أو لعلّي أحلمُ لا غير. أحلمُ دوماً، في الواقع. "تحمينا الأحلام غالباً من الخيبات والأسى، وتجعلُنا نشعرُ أحياناً أننا أنصافُ آلهة" كما قال من قال.

لاستيعابِ جذورِ شخصيّة مانيارا، لا يمكنُ عدمُ الإصغاءِ إلى "تقرير لجنة الإشراف" وهو يفصِّلُ مقارباتٍ دقيقةً تمسّ طفولتَها، في غاية الأهميّة:

ترعرعتْ مانيارا في أسرةٍ فلّاحيّةٍ عريقة. عشقُ الأرضِ، والعملُ الدؤوبُ المُضني فيها ليلَ نهار، دِينُها ودَيْدَنُها، أباً عن جَد.

حياةُ أبويها منمَلةٌ لا تهدأ، كما رأتهما منذ طفولتِها: بين الحقول والمراعي، في المحميّاتِ الطبيعيّة لأشجار دمِ الأخوين في "روكب مرمهِن" بأرخبيل سُقطرى، حيث يقبع منزلُهم، محاطاً بمراتع الغنمِ والدجاجِ والأبقار...

كَبرتْ مانيارا وتجَذّرتْ، مثلهما، صِلَتُها الحميمة بالأرض، وتعمّقتْ علاقتُها المفتونةُ بالسماء: منبع المطرِ والضياء والمددِ وكلِّ الخيرات.

ثمّ، في يومٍ عصيبٍ كالحٍ تراجيديّ، اقتلعتْ "الحضارة الحديثة" غابات دم الأخوين، وقضتْ على آلاف الطيور والنباتات النادرة، لبناءِ مطاراتٍ فضائيّة شاسعة، ولمدِّ طرقٍ سريعة للسيّارات، تتزاحمُ حولها ناطحاتُ سحاب!

كان على مانيارا أن تتكيّفَ مع الواقع "الجديد"، وأن تقتحمَ عالَم الحضارة "الجديدة"، بالتعلُّمِ والمثابرة، بذكائِها المشتعل، بالكفاح اليوميّ.

لم يتبقَّ معها، بعد فناءِ الأرض وسحقِ أشجارِها، غيرُ الاكتفاءِ بعشقِ السماءِ فقط، والحلمِ بنقلِ محميّاتِ الأرضِ الزراعيّة إليها!

أوّل حلمٍ راودها، ولم تتجرأ الإفضاءَ به: زراعةُ أشجار دمِ الأخوين في القمر والمريخ!

6

عشرة، تسعة... اثنان، واحد، صفر

لعلّ أرهب وأروع اللحظات التي شاهدها عشراتُ الملايين من سكّان الأرض، على الهواء مباشرةً، هي التي أعقبت بركان العدِّ التنازليّ: "... ثلاثة، اثنان، واحد، صفر" لانطلاق الرحلة XxxXx00F.

عيونُ مئات المهندسين والباحثين، في مركزنا الفضائي الدوليّ، ملتصِقةٌ بِشاشاتٍ تنقُلُ لهم كلَّ إشارات ومؤشرات أجهزة الصاروخ المركوز في وسط ساحة المطار الفضائيّ. قلوبُهم ترتجف، في قاعاتٍ مدجّجةٍ بأحدث الأجهزة الإلكترونية.

المنظرُ مهيبٌ في الحقيقة: الصاروخ الذي يحملُ الكاتدرائيةَ عملاقٌ كناطحة سحاب تقريباً، على هيئة برج بابل معدنيّ مروِّع، مقدمتُه المخروطيةُ الحادّةُ مرعبةٌ، كما لو كانت في طريقها لطعنِ أحشاء السماء!

أنظارُ العالم شاخصةٌ نحوهُ، وهو يملأ شاشةَ موقعِ محطّتِنا الفضائية الدوليّة على الإنترنت، الذي يتابعه مئات الملايين مباشرة. نحوهُ ونحو الخمسة الروّاد، وهم جالسون ببدلاتهم الفضائية البيضاء العازلة، ومسترخون على مقاعدهم المصطفّة المتكاتفة في كبسولةِ الإقلاع، في الدور الثاني من المركبة، يتبادلون أنصاف ابتساماتٍ، بين الآن والآن، ويُصغون لِنكاتٍ "ركيكةٍ" مضحكة، يتعمّدُ فيشر، "مسيو anti-stress"، مهامستهم وإغراقَهم بها.

وحدَها مانيارا تحمل على فخذِها شاشةَ جهازٍ صغيرٍ يربطها بالقيادة الأرضية للرحلة، لأنّها كابتن الطاقم. جذوةٌ لا يتوقّفُ توهُّجُها، مانيارا. تكتب أو تملي عليه لنا، رغم عائق قفّازات اليدِ الصمّاء، كلّ ما لا نراه حولها، وإن ليس مهمّاً جدّاً.

أتذكّرُ، ونحن نتصفّح كلّ تاريخ حياتها منذ الطفولة عند مسابقات اختيار روّاد الفضاء، تعليقَ أحدِ مُدَرّسيها في هوامش إحدى نتائجها الدراسيّة:

"مانيارا، ابنة الأرض، ماكينةُ عملٍ دائم. الجهدُ الذي يلزمُها لتتقاعسَ، أو تتكاسَل، أصعبُ وأتعبُ جهدٍ يمكنُها بذلُه!".

ما إن انطلق المحرّكُ النفّاثُ (المدعومُ بعشرات الموتورات الضخمة) للصاروخ الجبّار الذي يحتضن بيغاسوس، وسط جبلٍ حُممٍ دخانيّة غمرَتْ مطار المركز الفضائي الدوليّ، تُشبِهُ حممَ فوهة بركانٍ مقلوب، ينفثُها نحو الأسفل، وما إن تلتْ ذلك رعشةٌ فظيعة هزّت الكلّ، تُشبِهُ رعشةَ رجفةِ الرادفة، التي تتبع نفخةَ الراجفة (نفختَا الصُّوْر الإلهيّ، عشية يوم القيامة)، حتّى تنفّسَ الجميعُ الصعداءَ في المطار، وفي قاعات الإشراف في المركز... تعانقوا، دموعٌ هنا وهناك انسابت من أعينِ الحاضرين من أهل وأقرباء روّاد الفضاء. أحاسيسُ مؤثِّرة رهيبةٌ عصفتْ بالجميع.

أمّا عندما تكون معشوقتك مَن تطير نحو أقصى السّماوات، فالأمر مختلفٌ تماماً: الحزن فتّاكٌ والشعور بالضياع والاختناق مريع، خاصةً إن لم تبحْ لها بعدُ بِحبّكَ (يسكُنكَ حينها شعورٌ إضافيٌّ بأنك تافهٌ تعيس، أضاعَ أهمَّ شيء في حياته)!

هزّني، منذ لحظة الصّفرِ في الحقيقة، هلَعٌ واضطرابٌ عاصف وأنا أرى كرَةً من نار تضيءُ دائرةً قطرها عدّة كيلومترات، في ليلِ سُقطرى المدلهمّ، تلاها جبلٌ من الدخان واللهبِ البركانيّ المضيء. ثمّ تابعتُ، بعينين دامعتين، الصعودَ العموديّ للصّاروخ الذي أضحى أفقيّاً فوق جبال السحب.

انهمرتْ دموعي، أكثر فأكثر، حتّى اختفى الصاروخُ عن الأنظار، ولم تصمدْ منه إلا كتلةٌ من دخانٍ وسِخٍ في كبدِ السماء (هي كلّ ما تبقّى من أوديسةِ التحضير للإقلاع، الذي بدأ، قبل أشهر، بجلبِ المهندسين لأجزاء الصاروخ الضخم وبساطِه الهائل، نحو أرض المطار).

لم يفهم أحدٌ حولي سببَ بكائي الشديد، وإن تسيلُ دموعُ الجميع فرحاً في الغالب، عند نجاح الإقلاع! لعلّهم، بالتأكيد، اعتبروها دموعَ فيضان سعادة.

أمّا داخل بيغاسوس، فقد صدحتْ موسيقا منتقاةٌ بإبداعٍ وذكاء، بعد

انتهاءِ زلزالِ الانطلاق (الذي سمعتُ فيه أحدَ الخمسة يتمتمُ بِآية الكرسي!).

بدأتْ الموسيقا أوّلا بِرُبع ساعةٍ من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن. تلاها بعد ذلك مقطعٌ صغيرٌ من موسيقا فيلم سوبرمان، لِجون وليامس. ثمّ لحقها مقطَعٌ أطول من "بحيرة البجع" لتشايكوفسكي، وأخيراً كلّ سيمفونيّة "بوليرو" لِموريس رافيل.

توالى، مع بدءِ الموسيقا، وابلٌ من صور "السيلفي" والصاروخ يبدأُ صعودَهُ نحو أعماق السماء: سيلفي للمركبة، من الخارج، أخذتْها لنفسِها بكاميرا أحد الأذرع الروبوتية لها، سيلفي للمركبة، من الداخل، أخذتْها لنفسِها بكاميرات في زوايا مختلفة من الأدوار الثلاثة، سيلفي لشلّةِ أعضاء الفريق الخمسة، بعد أن تحرّروا من مقاعدهم وبدلاتهم الفضائية الثقيلة، أخذَها كلّ واحدٍ منهم بهاتفهِ الخاص، وسيلفي أخذَتْها ملكةُ الفراشات، خولة، لها مع كل واحدٍ من الطاقم على حدة.

بِرقّتها الطبيعية، الغريزية، تضع خولةُ رأسَها في كل سيلفي ثنائي، على كتف هذا أو ذاك، تحيطُ بذراعِها هذا أو ذاك. يحتضنُها الجميعُ عند هذه الصورة أو تلك. من لا يجذبه، في الحقيقة، احتضانُها؟!

من يستطيعُ مقاومةَ سحرِ تلك التي ما إن انطلق الصاروخ حتّى ابتسمت بسعادةٍ لا توصف، كمن ستبدأ أخيراً حياةً جديدة انتظرتْها منذ أزل الآزلين.

سيتذكّر الجميعُ أبداً دويَّ صرخةِ سعادةِ خولة، حال انطلاق الصاروخ: "واااااو! حياةٌ جديدة!".

الدقائقُ التالية من عروجِ المركبة لحظةٌ تاريخيّة لا تُنسى، هي أيضاً. أراقِبُها من مكتبي في مركزنا الفضائيّ، يُواجهني عددٌ محترمٌ من شاشاتٍ كبيرة تنقلُ كلّ ما يحدث في الأدوار الثلاثة للمركبة. أهمُّها خمس شاشاتٍ مهيبةٍ شاسعة، تموجُ عليها المنحنيات البيانية الديناميكية لحركاتِ وسكَناتِ كل واحدٍ من أدمغةِ أفراد الطاقم.

تصلنا هذه الرسومات البيانية، شديدةُ الأهمّية والجوهريّة، من أحد كمبيوترات المركبة الذكيّة، المرتبط لا سلكيّاً بِقُبّعات إلكترونيةٍ خفيفة تلتصقُ بجماجم أعضاء الفريق، وتنقلُ ما يدور في أدمغتهم (أي ما تمرّ من تيّاراتٍ كهروكيماويّةٍ بين عصبوناتها) كما تفعل أجهزة سكانير الدماغ الحديثة، بل تترجمها لنا أيضاً.

نُطلق على هذا الكمبيوتر اسمَ "وادي عبْقَر"(7)، وهو كذلك!

(7) وادٍ ميثولوجيٌّ سحيق، يقع في اليمن، جاءت منه كلمة "عبقريّ"، يسكنه جنُّ الشعراء العباقرة.

هو همزةُ الوصل بيننا جميعاً، وصاحبُ القرار الأوحد في لحظاتِ الطوارئ. هو وحدهُ من يتولّى القيادةَ عندما يلزم اتخاذ القرار سريعاً جدّاً: اختيارُ نقطةِ هبوط المركبة في أرضٍ صخريّةٍ معقّدة على هذا الكويكب البعيد أو الكوكب، في هذه المحطّة الفضائية أو تلك. وعلى نحوٍ خاص، عندما ينبغي التعاملُ مع وضعٍ خطِرٍ يلوح من بعض منحنيات الرسومات البيانية، لحالةِ دماغ هذا أو ذاك من روّاد الطاقم، أو لِسوء وضعهِ الصحيّ. أقصد: عندما تصل الصور إلى الأرض متأخّرةً عدّة دقائق، كلما ابتعدت المركبةُ عنها ملايين الكيلومترات، ولا يمكننا، في المركز، المساهمةُ برأيٍ أو توجيهٍ عاجلٍ للطاقم.

عموماً، "وادي عبْقَر" ابنُ آخرِ إبداعاتِ الذكاء الاصطناعي، "دماغُ الأدمغة" بامتياز. صار هو القائد الأوّل والأسرع لكلِّ شيءٍ تقريباً. ولم أعدْ متأكّداً أنّهُ سيظلُّ لوجودِ لِجان الإشرافِ البشريّةِ الأرضيّةِ داعٍ في المستقبلِ القريب.

أرثي روّادَ الرحلات الفضائية قبل نحو قرن، في زمن جاجارين وأرمسترونج، عندما كانت كلُّ أكداسِ كمبيوترات مركباتِهم الفضائية أقلَّ فعاليةً من نصف هاتفٍ محمول، في يدِ طفلٍ في زمننا هذا!

أراقبُ شخصياً، على نحوٍ خاص، الرسومات البيانية لما يدور في دماغ

مانيارا، حال وصولها. كلُّ منظومات دماغِها تشتغلُ بحيويّة. قلبي يتجوّلُ، بكلِّ حسرات الدنيا، بين أنسجتها وتلافيفها، بين شعابها وجبالها، بين مجرّاتها وثقوبها السوداء.

بفضلِ كلّ الرسومات البيانية التي تصلنا، تستطيع برمجيّاتُنا استيعابَ الأوضاعِ الصحيّة لكل زاوية من زوايا دماغ صاحبها، وحالته العامة. غير أن مناطق معيّنة، في كل الرسومات البيانية التي تسيل على الشاشة، تظلّ غامضةً، عصيّةَ التحليل، لا تستطيع المعارفُ والأبحاث العلميّة الراهنة بعدُ تفكيكَها أو حتّى مقاربتَها. تعكسُ ما يدور في لاوعيِ صاحبها: هذا الثقب الأسود الغامض في الدماغ، الذي لم يستطع العِلم بعدُ الغوصَ في متاهاته، وفكَّ معادلاته وأسراره!

يسكنني هذا السؤال الحادّ الدائم، وأنا أحدِّقُ، معظم الوقت، بالمناطق الداكنة في الرسومات البيانية الخاصّة بمانيارا، على نحوٍ خاص: هل تُفكِّر فيّ؟ هل ستنتظرني؟ هل تشعر بالخيبة لتوقُّفِ علاقتنا، قبل بدايتها، عند نقطةٍ حرِجة، سادتْ فيها، بأنانيّة، مصالحُ مشاريعنا المهنيّة، وضرورةُ نجاح الرحلة، على متطلبات بدايات عشقٍ جنينيٍّ مرتبكٍ دَهَمني لِوحدي، أو ربما شَعرْنا به معاً، كما أتمنّى؟!

قبل انطلاق الرحلة، كان الفريقُ قد قرّر لوحدِه أن تكون أولى قِبلاتِه محطّةٌ فضائيّةٌ خارج الجاذبيّة الأرضية، في مدارٍ أرضيٍّ منخفض (على بعد عدّة مئاتٍ من الكيلومترات)، للبقاءِ فيها بضعة أشهر، والدوران معها حول كوكبنا، لإنجاز مشاريع متنوِّعة، ولِتجاربَ كثيرةٍ ضرورية.

لكن، قبل هذا وذاك، ليملأ أفرادُ الطاقمِ أعينَهم طويلاً بأقدسِ المناظر الكونيّة قاطبة: جمال الكوكبِ الأزرق الذي لا يضاهي جمالَه كوكبٌ آخر، وهو يسيلُ تحت أقدامِهم.

أمامهم قوسٌ محدّبٌ هائلٌ مُضيء، لعلياء كرَةٍ زرقاء بحجمِ مئةِ قمر. تتخلّلها ألوانٌ مختلفةٌ لأراضٍ وغاباتٍ وجبالٍ وصحارٍ وثلوجٍ شاسعة. يتوسّطها أحياناً خيطُ البحر الأحمر بنهايتِه التي تشبه حرف V.

تفجّرتْ في هذه الكرة (ملكةِ جَمالِ مجموعتنا الشمسية، بلا منازع)، قبل نحو 4 مليارات سنة تقريباً، ظاهرةٌ ساحرة لم تعرفها، كما يبدو، الكواكبُ الحجريّة المجاورة: الحياة. ثُمّ الحياة الذكيّة. هل تعرفون كلمةً واحدة أعمق وأثرى وأجمل وأعظم من هذه الكلمة، أو من هاتين الكلمتين!

مناظرُ هذه الكرة، تتجدَّدُ في كل لحظة، لا يملُّ أحدٌ التحديقَ بها، طوال الأبديّة.

سيفتقد الخمسةُ طويلاً هذه الكرة الخارجة عن السرب، بعد مغادرة محطّتهم الفضائية الأولى. أو ربما قد افتقدوها جميعاً، منذ الثواني الأولى للإقلاع (عدا جلال بالتأكيد، الذي تفجّرتْ فيه سعادةٌ ميتافيزيقيةٌ، بعد الانطلاق مباشرة. بدا فجأةً كأنّه استعاد رونَقَهُ عندما كان يعيش في أحضان رنيم، كما لاحظتْ ذلك مَن تعرِفُهما جيّداً: خولة).

أمّا أنا فلا أفتقدُ إلا صاحبةَ تلك الرائحةِ السحريّة والوجهِ النحاسيّ الآسر، ولا يسكنني غيرُ سؤالٍ واحد: هل بوّحي لها بتناقضاتي الجذريّة خيّبَ ظنَّها فيّ، وجعلَها تُبعِدني من حسبانِ عواطفها، وهي تراني مجرّدَ انتهازيٍّ، "يضعُ مؤخّرَته بين كُرْسِيّين"، لا يُنفّذُ ما يؤمن به من مبادئ وأفكار؟

7

الرحلة الموازية

لم أتعرّف على بعض أعضاء طاقم رحلة Yyy4+1W إلّا في المراحل الأولى من امتحانات الانتقاء التي نوجّهُ خلالها أسئلةً عامّةً للمرشّحين. لكني لم أشكّ لحظةً واحدة أن الشابّات الأربع سيتمّ اختيارهنّ سريعاً جدّاً، وسيكُنّ في الطاقمِ نفسه.

السبب: يُضاهينَ، أوّلاً، بدبلوماتِهنّ وتجاربهنّ الفضائية، روّادَ فريق بيغاسوس الذي غادر الأرض قبلهنّ بنصف سنة تقريباً.

ولهنّ دبلومات أخرى موازية: إحداهنّ فيلسوفة (سأطلق عليها اسم فاء)، الثانية شاعرة (سأسمّيها: شين)، والثالثة بيولوجية (سأسمّيها: باء)، والرابعة فيزيائيّة (سأسمّيها: زاي).

تجمعهنّ الأربعَ، ثانياً، المواقفُ نفسُها (الأيديولوجية "المحافِظة" كما يُطلَقُ عليها) المعادية لحركات "الإنجاب من دون ذَكَر"، واستخدام الرّحم الاصطناعية، وتربية الأطفال بمساعدةِ الروبوتات الذكيّة.

وربما لأنهنّ جميلاتٌ أيضاً مثل مانيارا وخولة، شابّاتٌ مشعشعاتٌ، طليقاتُ الروح والفكرِ والجسد، بأوجهٍ مبتسمةٍ يتفجّرُ فيها حبُّ الاستطلاع والإرادةُ والثقةُ بالنفس. وكأنّ هناك رغبةً ضمنيّةً مكتومةً عنيفة، لِلجان الإشراف على مسابقات الاختيار، وكمبيوتراتِها الذكيّة، في أن يكون الرعيلُ الأوّلُ ممن سيُنجِبون ويتكاثرون، في الفضاءِ والكواكبِ الأخرى، وَسِيمِين جداً إناثاً وذكوراً، لِيُنجبوا أجيالاً من أجملِ وأذكى الأطفال، كي يزداد تهافتُ الناس مستقبلاً على الحياةِ في الفضاء، واستعمارِه، والبحث عن النصفِ الآخر فيه (إن كانت فرضيّةُ الإنجاب والتكاثر البشريّ، خارجَ نطاق الجاذبية الأرضيّة، ممكنةً فعلاً)!

الحقّ أن الذي لم يدع لجانَ امتحاناتِ الانتقاء تتأنّى كثيراً في اختيارهنّ

الأربع، ليس فقط مواهبهنّ وشبكة علاقتهنّ الوثيقة، وانسجامهنّ في مختلف المجالات، بل لعلّهنّ أوائلُ وطليعةُ جيلٍ جديد من المرَشّحين للسفر الفضائي، قرّر أن تكون رحلاتُه استيطانيّةً دائمة، بلا رجوعٍ إلى كوكبِ الأرض!

برهَنَتِ الأربعُ مسبقاً على ذلك، على نحوٍ لا يخلو من التطرّف، بتوزيع كلّ أموالهنّ وعقاراتهنّ، رواتبهنّ الحاليّة الدسمة جداً وما سيرِثْنَهُ مستقبلاً، بل كلّ صغيرةٍ وكبيرة مما يمتلكنَ في حياتهنّ الخاصّة، على أقربائهنّ وأصدقائهنّ وعددٍ من المنظّمات الإنسانية. وتركْنَ تعهُّداتٍ تؤكّدُ أنّهنّ طلّقنَ إلى الأبد "كوكبَنا المريضَ"، ولا يرغبنَ أيَّ عودةٍ مستقبليّة إليه!

لم أتعرّف شخصيّاً على السيّد نون (مثل أوّل حرفٍ في كلمة "نبيّ"، وإن كانت علاقته بالنبوءة من طراز خاصّ جدّاً)، خامسِ رائدٍ في طاقم هذه الرحلة الفريدة، ولم أسمع عنه إلّا مؤخّراً جدّاً. ولا أدري لماذا ضمّتْهُ لجنةُ الإشراف وكمبيوتراتها لرحلةِ الآنساتِ الأربع، لا سيّما أنه، بِعكسهنّ، أراد العودة إلى الأرض، بعد انتهاء موعد الرحلة، كما قال لِلّجنة.

بل أكثر من ذلك: أراد العودةَ لها "نبيّاً" جديداً، بعد أن ينزل عليه الوحي في "جزيرة الوحي"، في مكانٍ ما من الفضاء! نبيّاً يُخلِّص الأرضَ، بدينهِ الجديد، من كلِّ كوارثِها وأوجاعِها وويلاتِها، ومشاكلِها الصغيرة أيضاً.

أظنّ أن كمبيوترات اللجنة، وحدَها، من أصرّتْ على سفرِه ضمن فريق رحلة Yyy4+1W، بجانب الآنسات الأربع، واعتبرتْ عدم ترشيحهِ "في الطاقم نفسِه خطّاً أحمر".

لها في ذلك، ولا شكّ، مآربُ وشؤون!

ردودهنّ، الأربع، على السؤال التقليدي الذي نُوجّهُهُ لكل مرشّح، كان لافتاً لنا، ومفعَماً بشعورنا الأكيد، بل بيقينِنا، بتميّزِ رحلتهنّ الواعدة العجيبة:

- ما الذي يجذبُكِ للعمل في مجال الفضاء؟

أنيقةٌ جدّا الفيلسوفةُ الشقراء فاء، كابتن رحلة Yyy4+1W. تردّ وهي

تبتسمُ بِرِقّة عند سماعها هذا السؤال الذي تنتظره:

- كما تعرفون أيها السادة: اندلعتِ الحياة في كوكبنا قبل نحو 4 مليارات عام. ثمّ قاد التطوّر والانتقاء الطبيعيّ إلى النوع الإنساني مؤخراً جداً، قبل بضعةِ ملايين السنين لا غير. ما يسكنُنِي، وأريدُ تجنيدَ حياتي له، كلّ حياتي، هو اكتشافُ كوكبٍ واحدٍ، على الأقل، اندلعتْ فيه الحياة قبل 10 مليارات سنة مثلاً، وتطوّرَتْ فيه كائناتٌ فوق إنسانيّة، منذ عشرات ملايين السنين، وربّما أكثر! أي: كوكب أرقى منّا بملايينِ ملايين المرّات، يعيشُ فيه اليوم بشرٌ سبقونا حضاريّاً، بما لا يخطر ببال، في كلِّ المجالات! حياتي، كلُّ حياتي، مهووسةٌ برؤية كوكبٍ كهذا، وباستيعاب التعقيدات الديالكتيكيّة لمفهوم "التقدّم الحضاريّ".

كنّا مذهولِين، في لجنة الاختيار، كمن "سقط من غيمةٍ على الأرض!" (حسب تعبيرٍ يُردِّدهُ جلال كثيراً، في دردشات شلّة بيغاسوس، مما يفسِّر نقمةَ رفاقِه، التي لا تخلو من المرح الساخر، من مفرداتِهِ السُّحبيّة، واستثقالَهم الودّيّ لغرامِهِ الطافح بها). صمتٌ مفاجئٌ خيّمَ على صالة اجتماعنا الرماديّة، في أعلى دورٍ من إحدى عمارات مركزنا الفضائي.

ثمّ دخَلنا مع فاء في نقاشٍ جدليّ إرباكيّ متعمَّد. ردّ عليها زميلي:

- حلمٌ يصلحُ لأفلام الخيال العلميّ فقط! لا ينكرُ أحدٌ، أيّتها الآنسة، أنه لا يمكن برهنةُ أن وجودَ مثل هذا الكوكب مستحيلٌ إطلاقاً، ما دام هناك كواكبُ بلا عدّ، شبيهةٌ بِكوكبِنا في فترات دورانها ومسافات بُعدِها عن شموسها الخاصّة، وفي كتلتِها وظروف طبيعتِها ووجود المياه فيها والأغلفةِ الجويّة والحقولِ المغناطيسيّة... وما دام هناك أقمار (تدور حول كواكب)، بلا عدّ، يمكن أن توجد فيها حياةٌ ما أيضاً. لكن عدمَ وجود ما تمنّينَ واردٌ جدّاً أيضاً! ثمّ إن وُجِد كوكبُ أحلامِك، فستفصِلُنا عنه ملايين السنين الضوئية، ربّما! ولا سبيل للوصول إليه لذلك، بسبب حاجزِ سرعةِ الضوء الذي لا يمكن تجاوزُه، وبِسببِ عُمْر الإنسان المحدودِ جدّاً. كلُّ ما يمكننا، في أفضل الحالات، هو أن "نتغازل" من بعيد، نحن وسكّان كوكبكِ، إن

وُجِدوا، وبُطرقٍ غير مجدية إطلاقاً: نبعثُ لهم إشارات تصلهم بعد ملايين أو مليارات السنين، لِيردّوا عليها، عندما تصلهم، بإشاراتٍ ستصلنا بعد دهورٍ مماثلة. تذكّري: منذ عام 1977، تتوالى بلا نتيجة، مسابرُ "تبشيريّة"، Voyager 1, 2...، يبعثها الإنسان من الأرض: تطوف الكونَ بعد أن تجاوزت المجموعةَ الشمسيّة، منذ عقود، لتعريف بقيّةِ أهل الكونِ بكوكبِنا! ترسلُ أصواتاً مختلفةً لا تتوقّف، بِـ55 لغةٍ أرضيّة، بينها عباراتُ سلامٍ ومحبّة على غرار: "نحن أهلُ الأرض، أهلُ محبّةٍ وسلام، نريدُ أن نتعانقَ معكم تحت سماءٍ واحدة!".

ردّدتُ في قرارةِ نفسي، وأنا أصغي لِزميلي: "يا للدّجلِ الإنساني!". نقدِّمُ أنفسنا كذلك نحن الذين نقضي حيواتنا نتقاتلُ ونكرهُ بعضَنا بعضاً.

شعرتُ بالقرفِ والتقزّز، وسط الاجتماع، وأنا أستحضرُ شريطَ حروبِنا اليوميّة التدميريّة والإباديّة، قنابِلَنا الذريّة، روبوتاتنا القاتلة... وأصنافَ التعذيبِ الذي نمارسهُ في السجون طوال التاريخ، لا سيّما ما شاهدتهُ في فيلمٍ قبيل أيّام، ولم يفارقْ ذاكرتي: سجّانٌ يعشقُ وضعَ الدبابيسِ والإبرِ في خصياتِ المسجونين (كمقبّلاتٍ، أو "مزّة" كما يقول، تسبق التعذيبَ الرسميّ المهنيّ المنظّم)!

لم ترتبك الآنسةُ الفيلسوفة فاء، وجدتْ دوماً ثغراتٍ في كلِّ حُججِنا. تجيب:

- لا نعرف بعدُ كلَّ أقمارِ وكواكبِ مجرّتِنا، فما بالكم، أيّها السادة الأعزّاء، بأرخبيل مليارات المجرّات البعيدة. ناهيك أن ثمّة عدداً هائلاً من الكويكبات والأقمار الصغيرة، في مجموعتنا الشمسية نفسها (بيتنا الصغير)، لم ندرسها بعدُ، أو نراها! ماذا لو كشفَتْ لنا التلسكوباتُ الجديدة مزيداً منها، لِنتفاجأ بأنه توجدُ في بعضها أشكالٌ متطوِّرةٌ جدّاً من الحياة، وبشرٌ متقدِّمون علينا في كلِّ المجالات العامّة والخاصّة بما لا يخطر ببال؟ وماذا لو كان معدّلُ أعمار بشرِ الكواكب البعيدة، الأرقى منّا، ملايين السنين مثلاً، أو إن كانوا قد استطاعوا قهرَ الموت، على نحوٍ أو آخر، ربّما! ألن يكون زمنُ وصولِهم

إلينا، وإن دام آلاف السنين الأرضيّة، دقيقةً صغيرةً من أعمارهم، أليس كذلك؟! وماذا لو...

- ما الذي يجذبُكِ للعملِ في مجال الفضاء؟

"كتكوتةٌ" جدّاً البيولوجيةُ باء. تُذكّرني قليلاً بمانيارا. ربما لذلك كان قلبي يخفقُ كلّما تتكلّم، حتّى لا أقولَ: تمنّيتُ أن أقضمها قضماً... كستنائيّةُ الشَّعر، هيفاء، أسنانُها الجميلة الناصعة ولونُ وجهها الأسمر الناعم الحالم يلفتان النظر سريعاً. لعلّها من كان يبحث عنها فنّانٌ من عصر جدّي، اسمه محرّم فؤاد، صاحب أغنية: "أبحثُ عن سمراء، قامتُها هيفاء، تسكنُ في قلبي، تمشي على دربي!"، وإن لا أضمنُ له أن باء ستمشي على دربِ أحد.

تردّ على سؤالنا التقليدي، على نحوٍ مشابهٍ للفيلسوفة فاء، وتكميليّ له في جوهر ما تبحث عنه:

- هَوَسي الواحدُ الأحد هو العثور على كواكب ما زالت الحياةُ فيها في طورٍ بكتيريّ، داخل المياه، أو بدأتْ فقط تتشكّلُ برمائيّاً قرب مياهٍ دافئة. حياةٌ عمرُها، لِنقلْ، مليار أو مليارا عامٍ بالكثير!

- في كوكبٍ يهيمنُ عليه الدناصير مثلاً؟ تخيَّلي نفسكِ أسفل سربٍ من الدناصير المتوّحشة الطائرة العملاقة تريدُ الانقضاضَ عليك، تسبقُهم لالتهامكِ قافلةٌ من الحشرات الطائرة الجبّارة السامّة... ماذا ستعملين!

بقيةُ الجدل المتعارض بين البيولوجيّة باء، ولجنتِنا، لم يختلف عمّا دار مع الفيلسوفة فاء. لكلتَيْهما مشروعُ حياة، متجذّرٌ لا يتزحزح، قرّرتْ أن تهبَ عمرَها لأجله. ولكلتيهما برنامجُها الخاص لتحقيقِ مشروعِها، بالتواصل، من الفضاء البعيد، مع مختبراتٍ وجامعاتٍ أرضيّة لدراسة وتحقيق ذلك.

- ما الذي يجذبُكِ للعمل في مجال الفضاء؟

تباطأتْ في الردِّ عمداً. رشفةُ ماء. كان الجميعُ ينظر لها بخشوع. لجمالها ربما، ولِعينيها الزرقاوين الرماديتين الساحرتين، بالتأكيد. أو لأنّ لِبنطلونها لونَ

عينيها نفسه، ولِفانيلتها ذات الأكمام الطويلة لونَ جسدِها القمحيّ الفاتح، الملتصقة بها كما لو كان بشرَتها تماماً!

كان ردّ الفيزيائية زاي مذهلاً أيضاً، بطريقتهِ الخاصّة. اختلفنا حوله كثيراً في لجان الاختيارات والتحكيم. لكنها أجادت بهدوءٍ تفنيدَ رغباتها، وإقناعَ اللجنة بتركِها تغادر مع طاقمِ رفيقتَيها فاء وباء.

عمَّ تبحثُ زاي؟

عن الوصولِ إلى "العوالم الموازية"! هكذا، بكلٍّ بساطة: "العوالم الموازية"! يا إلهي!

كدتُ أنفجر ضحكاً في البداية، لولا أنها لم تقل علمياً أي شيءٍ فيه خلل.

شرحَتْ لنا ما يعرفه الجميع أوّلاً:

- ثمّة، كما تعرفون سيّداتي وسادتي، لحظةٌ لا نهائية الصغر(8)، اسمها "حائط بلانك"، عقبت "الانفجار الكبير" (البيغ بانغ) مباشرة، غامضةٌ جدّاً، ما زالت هناك نظرياتٌ علميّة مختلفة لِتفسير ما حصل فيها. البيغ بانغ بحدِّ ذاته، وما بعد تلك اللحظة الغامضة، عندما بدأ الكونُ في التمدّد، مبرهَنٌ فيزيائياً على نحوٍ جليّ، ولا خلاف عليه (بل برهنَ العلمُ أن سرعة التمدّد ازدادت منذ 5 إلى 7 مليارات عام، مما ينذر بيومٍ - من يدري - بعد مليارات سنين، يتمزّقُ فيه هذا الكون شذراً مذراً. أشعرُ بالهلع والرجفات من الآن!).

(8) مدّتها 10-32 من الثانية!

كنّا نُركِّز، سادِرين مبهورِين، على أدائها الفنيّ واختيارِ كلماتها بإعجاب. تسترسل:

- لكن ما حدث في تلك اللحظة اللانهائية الصغر ما زال موضع جدلٍ وافتراضات نظريّة (ما دام لم يستطعْ أحد بعدُ دمجَ نظرية النسبية بالميكانيكا الكونتية): تجد الأغلبية الساحقة تفسيرَها لذلك بما يسمّى: "التضخُّم".

ويُفضِّل البعض الآخر تفسيرَه، بطرقٍ مختلفةٍ أخرى، بوجود "عالمٍ موازٍ" لعالمنا، لا سيّما "الكون المرآة"، Mirror univers. البديع جدّاً: التفسيرات المختلفة هذه تنسجم جميعها، كلٌّ بطريقته، مع ما حصل بعد تلك اللحظة الغامضة!

تُفضِّلُ الفيزيائية زاي تفسيرَ الفريق الثاني، لأسبابٍ عدّة، يعرفها المتخصِّصون.

كلّ ذلك جميلٌ ومعروفٌ للعامّة من الناس. لكن ما أذكى الخلاف في اللجنة هو أنّ زاي دكّتْ قناعات الجميع بأنه يستحيل الوصول إلى "العوالم الموازية"، كونها خارج الزمان والمكان، وكون الزمن يسير على نحوٍ خطيّ، ولا يمكن لذلك التواصل مع "الكون المرآة"، هذا إن كانت نظريةُ وجود هذه العوالم الموازية هي الأصحّ من نظرية "التضخّم"، وإن كان لكلِّ "ثقبٍ أسود" في كوننا "ثقبٌ أبيض" في كونٍ موازٍ له.

فجّرتْ زاي هذه القنبلة، بقولها، بكلِّ هدوء، وهي توجِّهُ أشعّة ليزر نظراتِها القاتلة لكلِّ فردٍ من لجنتِنا على حدة:

- ما دام العالم الموازي موجوداً، فربّما يمكن الوصولُ إليه، أو التواصلُ معه، بشكلٍ أو بآخر، أو كشفُ ما فيه أو بعض ملامحِه، على الأقل!

ردّ عليها زميلٌ:

- لعلّكِ متأثرةٌ بأفلامِ الخيال العلميّ، حتّى النخاع! ليس علميّاً الحديثُ عن الوصول إليه أو التواصل معه!

علّقتْ بهدوء، وبعينينِ تُمغنِطان الحجرَ والشّجر، الشمسَ والقمر:

- ليس علميّاً أيضاً الإيمانُ المسبق باستحالة ذلك. سيظلُّ السؤالُ مفتوحاً. ما دام العالم الموازي موجوداً، فيمكن إدراكُه ربّما على نحوٍ ملموسٍ، أو التواصلُ معه فقط على الأقل، بشكلٍ أو بآخر.

استفسرتُ ساخراً:

- بخاتمِ سليمان؟ بالخروج نحوه من ثقبٍ سحريّ؟ بالوصول إليه من فوهة "ثقبٍ أسود"، يقود إلى "ثقبٍ أبيض"، يقود إليه...

فردّت عليّ بسخريةٍ "موازية" لا تخلو من ابتسامةٍ وديّة استقبلتُها بعرفانٍ وحساسيّة إيجابيّة عالية:

- لا أعرف بعدُ، وإلا كنتُ قد نلتُ جوائزَ نوبل، لمئة سنة متتالية! أمّا حكاية "التخييل العلميّ" فتعرفون، أيّها السادّة والسيّدات، أن معظم ما نعيشهُ اليوم كان يعتبرُ خيالاً علميّاً قبل سنين فقط!

كِدْنا نرفضُ جميعاً، في اللجنة، ترشيحَ الفيزيائية زاي. لكنّ مواصفاتها الشخصية والنفسية، وسيرتَها المهنيّة في كلية المركز الفضائي وأثناء دوراته التدريبيّة، وحوافزَها العلميّة والفضائية (وإن اختلفنا معها كليّةً حول جدوى غايتِها)، وعلاقتَها القديمة والعميقة برفيقاتِها الثلاث، وجمالَها المتميّز (وإن لم نقل ذلك جهراً)، منعَتْنا جميعها، في الأخير، من المجازفةِ في اتخاذ قرار رفضها.

أما الشاعرة شين، فكنّا في اللجنة جميعاً ضدّ ترشيحها، بعد ردِّها على السؤال التقليدي، رغم مؤهلاتها ومواصفاتها الشبيهة برفيقاتها الثلاث، وعلاقتها الحميمة بهنّ معاً، ورغم ثقتنا بأنّ وجودَها في أي طاقم مصدرُ متعةٍ وسعادة لا غنى عنهما، وأنّها مصنعُ طاقاتٍ إيجابيّة.

ورغم أنّها، من بين كلِّ المرشّحين الذين تعرّفتُ عليهم، أكثر من أمضى طفولتَه يُحدِّقُ بالنجوم، كل ليلة.

قضتْ سنوات طفولتِها وصغرِها تنام ليْليّاً، بسعادةٍ آسرةٍ لا توصف، في شرفةِ سقفِ منزلها، تحت النجوم مباشرة! في مناجاةٍ شاعريّة على الدوام معهم. "رفاق الحارة" كما أسمتْهم في نصٍّ أنْسَنَتْهم فيه، ووهبتْهم كينوناتٍ اجتماعيّةً ونفسيّةً ورومانسيّةً متنوّعة.

وإذا لم تكنْ تنامُ فوق سقفِ منزِلها تحت النجوم، فلأنّها على الشاطئ بجانبِ وقيدِ نار، أو في الصحراء مثل أنبياء العصور التليدة، تُحدِّقُ بهم. ولا

تمنّى، إذا ماتت، إلّا أن تكون النجومُ آخرَ منظرٍ يواجه عينيها.

- ما الذي يجذبُكِ للعملِ في مجال الفضاء؟

بعد ردِّها، كنّا على وشك رفضِها جميعاً، من دون مماطلة، عندما قال أحدُنا في أحدِ الاجتماعات المغلقة لِلجنة الانتقاء، تحت سحرِ وبراءةِ وجهِ وكلماتِ هذه الأيقونة:

- لتكن Yyy4+1W رحلةً تجريبية، من طرازٍ خاصٍّ جداً!

ثمّ تدحرجتْ منه هذه الجملة التي انفجر كلّ أعضاء اللجنة ضحكاً بعدها: "وكلّما كثُرَ المجانين، زاد الضحك!".

ما زلتُ أموتُ من الضحك، حتّى الآن، عندما أتذكّرُ هذه الجملَةَ الساخرة، واللحظاتِ التي سبقتْها وتلتْها!

ماذا قالتْ شين لتجعلَ لجنتَنا الشاسعة، بكلّ جِديّتها وتنوّعِ أعضائها، تعيش لحظةَ صخَبٍ نادر، أشعلتْهُ الجملةُ الساخرةُ لِزميلِنا في لجنة الانتقاء؟

بعد أن تنفَّستْ بعمق (لفتَ ناظري لؤلؤٌ متلألئٌ في عنقِها، يسيل على صدرِها الأنيق المتماوج الآسر)، قالت، بكل بساطة:

- أريد أن أبعث من الفضاء إلى الأرض أخباراً عن كواكب يعيش فيها الناس بوئامٍ وسلام، مع الطبيعةِ ومع بعضِهم بعضاً، ومع الكواكبِ المجاورة. يتنفّسون الشعر والموسيقا. منهجُهم الحبّ، وغايتُهم الجَمال. أريد إقناع سكّان كوكب الأرض بتغيير طبيعتهم الإنسانيّة، والانضمام إلى "فيدرالية الكواكب الشعبيّة الديموقراطيّة المتّحدة"، عفواً: "الكواكب الشِعرية الديموقراطيّة المتّحدة"!

ردٌّ رومانسيٌّ في آخر التحليل! لعلّها بدّدَتْ وقتاً أكثر من اللازم في طفولتِها تُحدِّق بـ"رفاق الحارة" وتناجيهم. من يدري؟

لم يُحالِفْني الحظّ لأقابلَ أو أرى العصفورَ النادر، نون، الذي تزوّجَ الآنساتِ الأربع معاً، منذ ثاني يومٍ في رحلتهنّ، ولم أستفسر عنه إلّا مؤخّراً

جدّاً، بعد أشهر من رحلتِهم، عندما باتت مركبتهم (مركبة العائلة السعيدة) وشيكةَ اللقاءِ بمركبة بيغاسوس، والارتباطِ بها مصيريّاً.

سأكرِّسُ الوقتَ اللازم، لِتقديمِهِ، وسردِ غرائبيّة شخصيّتِهِ وجماليّاتِها، لاحقاً.

8

الطريق، بحدّ ذاته، هو الهدف

أعودُ لمربطِ الفرس: لكي تظلَّ أدمغةُ طاقمِ رحلتِنا XxxXx00F مشغولةً على نحوٍ إيجابيّ، يلزمنا، كلجنة الإشراف الأرضيّ عليها، أن نتابع تطوّرات أحوالِ عصبونات أعضائها أوّلاً بأوّل، كما يتلقّفُها كمبيوترُ القيادة الداخلية للرحلة الموجودُ في قلب المركبة ("وادي عبقَر" قُدِّسَ سرُّه)، والمرتبطُ هناك لا سلكيّاً بقبّعاتٍ إلكترونيةٍ خفيفة (تلتصقُ بعلياء رؤوسِ أعضاء الفريق)، يضعونها معظمَ اليوم.

يُحلِّلُ ما يختلج في أدمغتهم ويحوِّلُها إلى رسوماتٍ بيانية. يراقبُ هيئاتِهم وملامحَ أوجهِهم وروائحَهم ونبراتِ أصواتهم، أوّلاً بأوّل، لالتقاطِ أدنى مؤشّرٍ للتوتّر أو القلق والاكتئاب، والقضاءِ عليه في المهد بأكثر من ألف "مؤامرةٍ" ومؤامرة!

ثمّة، في الحقيقة، أكثر من طريقةٍ ذكيّةٍ حديثة نلجأ لها، تحولُ دون أن تطمَّهم دوّامات التوتر والكآبات، التي تُفقِد المقدرةَ على التركيز والرغبة في التفاعل والعمل، وتقود إلى الانحسارِ العضلي والذبولِ الدماغي، والانكماشِ الشراييني، والشللِ الكليّ...

لذلك كان تركُ رسمِ خارطةِ طريق الرحلة بيد الطاقم، وحسب رغباته، أوّلَ تخفيفٍ من وطأةِ هذا الانغلاق، طوال عامين، ومَشاقّه. أسعدَ ذلك كثيراً كلَّ الفريق، لا سيّما الكابتن مانيارا.

أتذكّرُ بهجةَ أوجُهِهم، بعد اختيارهِم النهائي كفريقٍ لهذه الرحلة التاريخيّة، وبعد مكوثِهم في عزلةٍ تجريبيّةٍ أرضيّة، داخل كبسولات مغلقةٍ خاصة، تُهيّئهم لحياة الانغلاق الطويلة في المركبة، عندما اجتمعتُ بهم، حول منضدةٍ بيضاء ناصعة، بيضَويّةِ الشكل، في غرفة اجتماعاتٍ تحتِ أرضية، نُسمِّيها "الغوّاصة"، في أحدِ دهاليز فروع مركزِنا الفضائيّ الدوليّ، في إحدى جزرِ الأرخبيل.

تقبع "الغوّاصة"، على غرار غُرفِ الفنادق تحت المائية، وسط جدرانٍ تُشبِه فعلاً جدران الغوّاصات: نوافذُها كوّاتٌ زجاجيّة دائريّة، ملتصقةٌ بأحواضٍ عملاقة لِسمكٍ وشُعَبٍ مرجانيّةٍ، يمكن السباحةُ فيها بجانب السمك، كما هي حال غرفِ الفنادقِ السياحيّة تحت الماء.

قلتُ لهم في بداية خطاب "ميثاق الرحلة" الذي ألقيتهُ عليهم شفهيّاً، نيابةً عن لجنة الإشراف، وأنا أخفي بداية قلقي من مصير مغامرتهم، ومن فقدي قريباً لمانيارا قبل ذلك، ومن مغبّات عدم جرأتي على بَوحي لها بِغرامي المتصاعد:

"عند السفر، وفي الحياة عموماً، لا يوجد أفضل من نهج الفلسفة الطاوِيّة: 'الطريقُ، بحدّ ذاته، هو الهدف'. أي: ليس الهدفُ محطةَ الوصول النهائية، بل الحياة والحركة والتنقّل على إيقاع المكان والزمن والصدفة، دون تخطيطٍ مسبق.

تذكّروا ما قال كريستوفر كولومبوس: 'لا يذهبُ المرء أبعد ما يمكن، إلا عندما يذهبُ حيث لا يدري أين يذهب'. وستيفان مالارميه: 'يتقدَّمُ المرءُ فقط عندما يسيرُ نحو المجهول'!

ذلك يعني بالنسبة إلى رحلتكم: البرمجةُ المسبَقة لِجدول الرحلة، يوماً بعد يوم، من البداية حتّى العودة بعد عامَين، اختيارٌ ضيّقٌ، قاصر، محدودُ القيمة، لا يتّفقُ مع النهج الطاوِي: فنّ السفر بمعناه الأرقى، كمغامرةٍ استكشافيّة على طريقة كريستوفر كولوموبس، أو كتجربةٍ خلّاقة بالمعنى الهيغليّ للتجربة.

فالطريق عموماً (في الفلسفة الطاوِيّة) يُرسَم، أوّلاً بأوّل: لا يتمّ اتّخاذُ قرارِ اتجاهِ الخطوة القادمة إلا بعد الخطوة الحالية، وفي ضوء دروسِها وتجاربها".

تنفّست الصّعداء. لاحظت ارتياحهم لهذا المنهج. ستصلني لاحقاً من حكيم الفريق جلال (الذي يميل دوماً لأخذِ صورٍ لزملائهِ والتركيز فيها على ملامح وقسماتِ أوجههم) صورةٌ لي وأنا ألقي هذا الخطاب. حدّقتُ فيها

طويلاً: كنتُ ممثِّلاً يبتسمُ أكثر من اللازم، وهو يرتجفُ في أعماقِه! وكلّما ارتجفَ أكثر، طارتْ به أجنحةُ الكلمات بعيداً، وتضاعفتْ انزياحاته، وتفجّرتْ تناقضاته وتخبّطَ في متاهتها.

استطردتُ:

"ليكنِ المضيّ إلى الأمام هو الوصول، بالنسبة إليكم!

هكذا يحلو أن تكون رحلتكم الخالدة، طوال العامين: مغامرةً استكشافية مثمرة، على غرار سفينة 'بيجل' التي طاف بها داروين حول العالَم طوال خمس سنوات، وعاد معها بأهمِّ اكتشافٍ عرفه الإنسان: أصل الأنواع البيولوجية.

نعم، يحلو أن تكون رحلةً حرّةً سعيدة، نتابعُها الكرة الأرضية يوماً بعد يوم، وتندمجُ بيوميّاتها المثيرةِ المدهشة في كلّ لحظة، ونتعلّمُ منها دروساً ثمينةً لعصرٍ جديد يتحوّل السفرُ فيه إلى الكواكب البعيدة، والحياةُ فيها، نشاطاً إنسانيّاً روتينيّاً دائماً، نشاطاً إنقاذيّاً لِكوكبِنا المحتضِر بيئيّاً.

من يدري، لعلّ سفينتكم ستكون، في مرأى العصور القادمة، 'سفينة نوح' العصرِ الحديث!".

رمقتُ ابتسامةَ مانيارا أوّلاً. أسعدَتْها فكرةُ خارطة الطريقِ الحرّ، ولا شكّ. لكن ابتسامتَها لم تخلُ من ظلالٍ داكنة. لعلّها تذكّرتْ بوّحي، ولاحظتْ كم أعيشُ تناقضاً صارخاً. تأكّدَتُ من ذلك وأنا أراها تتنهّدُ باستغراب، تعضُّ شفتَها السفلى للتركيز على ما أقول، وتقارنهُ بما قلتُ لها في لقائنا الثنائي!

لم أكن مزدوجَ الشخصيّةِ ومنافِقاً فقط، لكن كذّاباً أيضاً: لم أقلْ لهم إن أهمّ أهداف الرحلة (وغيرها، قريباً أو بعد أشهر، كرحلة Yyy4+1W التي ستجمعُ فيلسوفةً، شاعرةً، فيزيائيةً، عالمةَ أحياء، و"نبيّاً" متعدّدَ الكواكب، سيتزوّجهنّ معاً، بعد بدء الرحلة بيوم!) هو تطبيقُ شِعار: "تناكحوا، تناسلوا، فإنّي مباهٍ بكم سكّانَ الكواكبِ الشبيهةِ بالأرض!".

ثم سمعتُ فيشر، مبتسِماً كعادتِه، يهمسُ لِسباسكي:

- رحلةٌ متعرِّجة حرّة! ماذا تريد أجمل من ذلك، يا أخَ الفضاء!

ترفع خولة، جذلى، سبّابةَ ووُسطى يدِها على هيئة علامة النصر، أمام عينَي سباسكي وفيشر. يلاحظان معاً لمعةَ قزحيّةِ عينيها العسليّتين المتلألِئتين.

تقول لهما بابتسامةٍ رقيقةٍ بارعة:

- رحلةٌ بهيجةٌ واعدة!

أمّا الأكثر سعادة فهو الأقلّ ابتسامات. الراهب جلال، بهيئته الشاعريّة وعينيهِ المبتسمتين دوماً، وبِجمال محياه وقامتِه الرفيعة (كأنّهُ تمثالُ أبولو)، وبِشاربهِ الجميل (المنحوتِ على طريقة عمر الشريف، وإن تبدو له نهايتان جنتلمانيّتان، معطوفتان قليلاً، تذكّران رغم ضآلتهما بالفنان دالي) الذي سيختفي، للأسف، قبل بدء الرحلة؛ سيبحث (يا لِسعادته!) عن رنيم، في أصقاع السماء، سيراها في كل مكان!

بدأ سباسكي يكتب على وريقة بعضَ أسماء المحطّات التي يحلم بزيارتِها، وتناولِ القهوة فيها، واللقاءِ هناك بأصدقاء قدامى يحومون في بعض المراكب الفضائية، والنظرِ منها إلى أقصى الكون، دون الحديث عن بعض القرى الاستيطانيّة القريبة من آثار الماء، في القمر والمريخ، التي ينوي "absolument"، كما قال بالفرنسيّة على غير عادتِه، زيارتَها.

يقرأ قائمتَه الجميعُ بابتسامات أحياناً، ونصفِ رضاً أحياناً أخرى.

ثمّة، في الحقيقة، مئاتُ المحطّات الفضائية الدولية، في كل مدارٍ حول الأرض أو القمر أو المريخ، وعشراتُ آلاف المركبات والطائرات والفنادق الفضائية والأقمار الصناعية. ولكلٍّ من أعضاء الفريق أفضلياته وأوْلويّاته.

تمارس مانيارا دورَها القياديّ، وهي في الأرض، قائلةً:

- لكلِّ مقامٍ مقال! سنختار، بطريقةٍ ديموقراطية، العتبةَ التالية لأيّ محطّةٍ أو كوكب، قبيل مغادرتهما.

يعرف الخمسة، مع ذلك، أن حريّتهم نسبيّةٌ طبعاً: إذا قرّروا الرسوّ في القمر أو المريخ، فيلزم أن تكون لحظةُ الانطلاقِ عندما يكون الكوكبان أقربَ ما يمكن لمركبَتِهم. لأنّ المسافةَ بينها وبينهما تتغيّرُ في كلِّ لحظة، حسب موقِعها، وموقعِهما في مدارَيْهما البيضَويّين.

فللمريخ وللأرضِ، مثلاً، مساراهما وسرعتاهما المختلفتان وهما يدوران حول الشمس. كلٌّ في فلكهِ يسبح، كما يقول تعبيرٌ قرآنيٌّ جميل.

المسافة بينهما غيرُ ثابتة. تتغيّرُ على الدوام: عندما يكونان أقربَ ما يمكن، يفصلُهما 55 مليون كيلومتر تقريباً، وعندما يكونان أبعد ما يمكن، يفصلهما أكثر من 400 مليون كيلومتر!

من الأفضلِ، بطبيعةِ الحال، عبورُ المسافةِ بينهما عندما تكون أصغر ما يمكن، وليسَ سبعة أو ثمانية أضعاف ذلك!

لهذا، بديهيٌّ جداً، أنّ على فريقنا، لاختصارِ المسافةِ إذا أحبّ، التسكّعَ هنا وهناك في الفضاء، أو التوقّفَ في إحدى مئاتِ المحطّاتِ الفضائية، وانتظارَ لحظةِ القُربِ الأنسبِ من موقع هبوط مركبتِنا القادم.

عمليٌّ جدّاً ذلكَ أحياناً، لكنّ المسافة لا تعني الطريق، كما قلتُ لهم لمسكِ الختام، وأنا أرمق ابتسامةَ موافقةٍ واعدةً تنسابُ في ثغرِ مانيارا، دغدغتْ أرهفَ أحاسيسي:

"المسافةُ، أعزائي، كما تعرفون، لا تعني: الطريق. المسافةُ محدودةٌ دائماً، رقمٌ لا غير. أما الطريقُ فهو أخو الصدفةِ واللانهايات! الطريقُ هو المكانُ والزمانُ معاً. الما قبلُ والما بعدُ معاً. الظاهرُ والباطن"، قبل أن أضيفَ بأنّ الطريق لا يتوقّفُ أبداً، واختصار مسافاته ليس هدفاً بحدّ ذاته (من وحي فكرةٍ صوفيّةٍ ثاقبةٍ راقيةٍ اقتبستُها من بدايةِ روايةِ **الطريق الرابع**، واختتمتُ بها خطابَ "ميثاق الرحلة"، كي تكون منهجَهم الرئيس، ومنارَ خريطةِ طريقِهم): "لا يمكن للطرقِ أن تُختصَر، فتلك التي تُختصرُ لا يُعوَّلُ على نهاياتِها، مثل الأحلامِ التي تنتهي: ليست أحلاماً!".

ستظلُّ تلك الابتسامة، ابتسامةُ مانيارا التي دغدغتْ أرهفَ أحاسيسي، أهمَّ ما سيبقى في ذاكرتي من يوم خطاب ميثاق الرحلة.

9

أرخبيل سُقطرى "الجديدة"

لم أعرِّفْ بنفسي بعدُ، أنا مديرُ هذه الرحلة الفضائية XxxXx00F، الخاصّةِ جدّاً، وإن لا دورَ لي يستحقّ الذِّكرَ في روايةٍ تدورُ حول يوميّاتِ بيغاسوس وأبطالِها، في الأساس، ورفاقِهم لاحقاً في "مركبةِ العائلة السعيدة".

لِنقُلْ بكلمَتين: أنا حفيد إنسانٍ عاشَ في زمنِ كاتبِ هذه الرواية! لم أرَ جدّي، ولم نتقاطع سنوات حيواتنا، لكني أعرفه عن ظهر قلب، لأنه ترك لوالديّ "فلاش" يحتوي على ملفِّ يوميّاتٍ هائل!

لا يخلو كلُّ يومٍ مرّ في حياتهِ، منذ بداية دراسته الجامعية في منتصفِ سبعينيات القرن العشرين، من صفحةٍ أو صفحتين، تحتوي على أهمِّ ما حدث له في ذلك اليوم، وعلى أهمِّ إيميلاته وانطباعاته فيه، وعلى منشورِ يوميّاتٍ وآراءٍ شخصيّة، أو منشورَين أحياناً، كان يضعهما يوميّاً في زمن بدءِ الشبكات الاجتماعية، كالفايسبوك وغيره، وإن كان يعتبر هذه الشبكات، مع ذلك، "ملتقىً رائعاً لتشتيتِ المواهب وانقراضِها!" كما كتب يوماً.

عندما بدأتُ دراستي الجامعيّة في أواخر ثلاثينيّات هذا القرن الواحد والعشرين، قبل نحو عقدين من رحلة XxxXx00F، لم يفتني يومٌ واحدٌ دون أن أقرأ فيه صفحةً أو صفحتين، على الأقل، من يوميّات جدّي، طوال عقودِ حياتهِ التي خسفتْ (السلام والسكينة لِروحِه!)، قبل مولدي بأشهر فقط.

لعلّ ما يفْرقُ بين زمن حياةِ جدّي الغالي، وما نعيشهُ اليوم في منتصف هذا القرن الواحد والعشرين، أهمُّ وأكثر مما كان يفرق بين بدايةِ القرن العشرين ومنتصفِه، رغم مرورِ حربين عالميّتين أثناء ذلك!

نعم، تغيّر العالمُ جذريّاً الآن... ويتغيّر كلُّ شيءٍ مع مرور السنوات،

بسرعةٍ متصاعدةٍ طائشةٍ، لا تخطر ببال.

في زمنِ حياة جدّي الحبيب، كان أرخبيلُ سُقطرى في اليمن، مجهولاً تقريباً للعالم، ضائعاً فقيراً، بلا فندقٍ سياحيٍّ واحد تقريباً، رغم أنه آخرُ أجملِ وأفتنِ بقاع الأرض وأنقاها.

"أرخبيل سُقطرى طبيعةٌ فريدة. آخرُ معاقل مفاتن الطبيعة. تاجُ اليمن وواجهتُه الجماليّة. يقع في نقطةِ عناقِ المحيط الهنديّ بِبَحرِ العرب. طيبة وبساطة بَشَرِه، شواطئُه، محمِيّاتُه الطبيعيّة، كهوفُه التاريخية، بحارُه وبحيراته، أوديتُه، شلّالاتُه، جبالُه، رمالُه، جزرُ صياديه (سَمحَة، درسَة، عبد الكوري، المحيطةُ بالجزيرةِ الأمّ: سقطرى) تجعلُ، جميعُها، كلَّ من عاش فيه يتَّفِقُ على أنه أجملُ أرخبيلٍ في العالَم.

قديماً أسماهُ الإغريقُ 'جزيرةَ السعادة'. بخورُه، عطرُه، عودُه، لُبانُه... سحَرَ أهل ذلك الزمان. وهو فعلاً ما زال كذلك: أرخبيل النّعيمِ، بامتياز.

هو، بتكثيفٍ شديد، مزيجٌ من أرخبيلِ غلاباغوس بالإكوادور، ومتنزّهاتِ سرينجيتي في تنزانيا وكينيا: مثل الغلاباغوس، يمتاز بأنواعٍ نباتيّة وحيوانيّة، بأشجارٍ وطيورٍ فريدة، لا يراها الإنسان بمكانٍ آخر. وفيه، مثل سرينجيتي، آثارٌ آتيةٌ من أقدم عهدٍ في التاريخ البشري: دهر الألدوفاي(9). هذا النوع من البقاع الأثَريّة يُعدُّ بأصابع اليد، ولا يوجد خارج أفريقيا (مهد الإنسان)، إلا في سقطرى التي كانت قديماً ملتصقةً بها"، كما كتب جدّي في أحد هوامش منشورٍ فايسبوكيّ وجدْتهُ في أرشيفِ يوميّاته.

(9) نسبةً إلى كهفٍ بهذا الاسم في "وادي الإنسان"، في سرينجيتي بتنزانيا، عمره بين مليونين ونصف، ومليون ونصف سنة، قبل تاريخنا الحديث.

تدهورَ اليمن، في زمن جدّي، تدريجياً. فتّتْهُ الحروبُ الدائمة، رويداً رويداً، ومعاركُ القوى الإقليمية والدّوليّة التي وجدتْ فيه ميداناً نموذجيّاً، بالوكالة، لتصفيةِ حساباتها وتفجيرِ حروبِها...

حرصتْ بِدهاء على أن تتكافأ قوى الفرقِ اليمنيّة المتقاتلة، حتّى تظلّ دوماً

في حالة حربٍ دائمة بين فريقين رئيسيّين، يُدمّران بعضهما بعضاً، دون نصرٍ لأحدِهما، حتّى الفناء النهائيّ لِكِلَيهما!

النتيجة، كما كتب جدّي في مفكراته: "تبدو اليمن مثل شجرةٍ جميلةٍ منبوذةٍ في أطراف الرُّبع الخالي. تنتظرُ انقراضَها بِصمت، أمام عدم اكتراثِ الجميع"، مضيفاً هذه الخاتمة: "اليمن رواية. أمُّ الروايات. غيرُ سعيدةٍ غالباً" (لقب "اليمن السعيد" مجرّد "إردافٍ خلفيّ" كما يقول علماء البلاغة، oxymoron، أي: جمع لمتناقِضين، على غرار: عنفٌ ناعم، عذابٌ بهيج، أو "المركزية الديموقراطية": مبدأ عمل الأحزاب الماركسيّة اللينينيّة الذي سأكتشفه في دفاتر جدّي...)!

ثمّ ابتلَعَتْهُ شهيّةُ القوى الإقليمية والدوليّة الكبرى، للأهمية الجيوسياسية الكبرى لممرّاته البحريّة: "الطبيعةُ لا تحبُّ الفراغ"، وقوى بؤرِ المال والتكنولوجيا الدوليّة أيضاً.

رأتْ فيهِ أرضاً عذراء واعدةً لتشييدِ إمبراطوريّةٍ تكنولوجية جديدة، في بداية هذا النصف الثاني من القرن الواحد والعشرين!

ولأن اليمن (مثل من سُمِّيَت بِـ"الدول الفاشلة"، ثم "الفاشلة جداً"، وأخيراً "المنهارة"، والله وليّ التوفيق)، قد اعتُبِرَ، بِلغةِ القيادات السياسية للعالم: "بلا أمل"، فقد وجبَ تسييرُهُ بإشرافٍ دوليّ، وضخُّهُ بمشاريعَ اقتصاديةٍ تديرُها كبارُ الشركات العالمية، وبِهجراتِ إعمارٍ واستيطانٍ من أهلِ البقاع المتطوِّرة جداً، هرعوا نحو ما سيُطلقون عليه: "اليمن الجديد"، "سقطرى الجديدة"...

أمقتُ هذه الكلمة الطامِسة التي يلجأ لها الغزاةُ، منذ الأزل: "الجديد"! العالَم "الجديد" (الأمريكيّتان، بعد غزو كولومبوس لهما)، اليمن "الجديد"، سقطرى "الجديدة"، الكرة الأرضيّة "الجديدة" 0.2...

أوجاعُ جدّي وأحزانُه، في كتّاباتِ أرشيفِه، لم تتوقّف. كان يشعر ببدايات الانهيار الكليّ لبلدِه، ويولولُ ملءَ صوتِه للتّنبيه إليه في كتّاباته. "في هذا العالم المتوحِّش، لا يستوعبُ ما نُعانيه إلّا الهنود الحُمر!"، كما قال ملخِّصاً كلّ

مستقبل اليمن.

أمّا أنا، الذي وُلِدتُ في هذا الأرخبيل وأطلقَ عليّ والدايَ اسم "حديبو"، فقد تضاعفتْ آلامي، لأن كلّ هذه الديستوبيا اليمينة صارت حقيقةً في عهدي، أراها وأعيشُها ليلَ نهار!

حديبو "الجديدة" (عاصمة أرخبيل سقطرى "الجديدة")، اليوم، مدينةٌ عصريّةٌ طليعيّة. تتناثرُ فيها غاباتُ ناطحات سحاب، في كلِّ مكان. نبتَتْ، أحياناً، بدلاً من غابات دمِ الأخوين التي لا تُوجدُ في أيِّ مكانٍ آخر في العالَم، عدا الأرخبيل!

أحدُ أهمِّ معالِمِ الأرخبيل الخفّاقة الحديثة: مجمّعُ مركزِنا الفضائيِّ الدوليّ وكليّاتُه. مطاراتُه تتناثرُ في أكثر من جزيرةٍ في الأرخبيل. مركزه الرئيس، الذي يقبعُ فيه مكتبي، يقعُ في ضواحي حديبو "الجديدة". اختيرَ بناؤه هنا لأسبابٍ بديهيّة فرضتْ نفسها: قربِه من خطِّ الاستواء، مناخِه المعتدل، انفتاحِه على المحيط، استقرارِه السياسيّ...

الثمنُ كارثيّ: تدميرٌ لمحميّةٍ طبيعيّةٍ كانت في غاية الجمال. عشراتُ الأنواع النادرة من الطيور والنباتات امّحتْ وقضتْ نحبها، إثر بنائه!

كلُّ أفراد طاقم XxxXx00F يُدِينون، مثلي، لهذه الكليّات: منحتْهم سنواتِ دراسةٍ علميّةٍ راقية، حديثةٍ جداً، لا مثيل لها ربّما في مكانٍ آخر.

طوّرتْ معارفَهم وملكاتهم، في الفيزياء والرياضيّات وميكانيكا السماء وبقية علوم الفضاء. وفّرتْ لهم دوراتٍ تدريبيةً في رحلاتٍ فضائية قصيرة، وفي أنواع متعدِّدة من الطائرات العسكريّة والمدنيّة، وفي غوّاصاتٍ عميقةٍ حديثةٍ خاصة، ظلّوا فيها ردحاً من الزمن (على بُعدِ بضعة كيلومترات في أعماقِ الأرخبيل)، هيّأتْهم للتعوّدِ على البقاء طويلاً في ظروفِ تصفيدٍ وانعزالٍ طويلٍ في الفضاء البعيد.

سُقطرى، التي كانت آخرَ بقاع الأرض الخاليةِ من آثار الاختلال البيئي، تُنافِس اليوم أكبر مجمّعات المدن الأخطبوطية في تلوّثِها واستقطابِها للسيّاح،

وازدحامِ مواصلاتها وصناعاتها المتنوّعة...

لن يعرفَها جَدّي إذا عاد للحياة. سيُصدم ويعودُ إلى قبره، وهو يرى حقولَ أشجار "دم الأخوين" وقد تحوّلتْ، في هذا الزمنِ "الحضاريّ" جدّاً، إلى شركاتٍ تجاريّة وعقاريّة، مصانعَ إلكترونية، وفنادقَ بلا عدّ (بعد أن فضّلت الأنظمة "الوطنيّة" التي حكمت اليمن "القديم" أن تظلَّ تدمّرُ نفسَها بنفسِها، في حربٍ دامتْ عقوداً عدّة، على أن تبني فندقاً واحداً في كلّ الأرخبيل!).

اختفى تقريباً كلُّ تاريخ "سقطرى القديمة" عن ذاكرةِ الناس. أجِدُهُ فقط في أرشيف يوميّات جدّي الذي وصلَ إلى الأرخبيل، لأولِ مرّةٍ وبمحضِ الصدفة، إثرَ قصّةٍ حزينةٍ عاشها على هامش أولِ إجازةٍ صيفيّة في عدَن، بعد أن بدأ دراستَهُ الجامعيّة خارج اليمن!

الحياةُ، كما تعرفون، صرفُ متاهاتٍ لا غير، تُصمّمُها الصدفةُ وتصنعُها المفاجآت.

بسبب مغامرة هذه الزيارة التأسيسيّة، ارتبطتْ حياتي، وحياةُ أبي وأمّي قبل ذلك، بهذا الأرخبيل الساحر!

سأسردُ لاحقاً بعضَ الشذرات المقتضبة من يوميّات جدّي، المرتبطةَ بِـ"الحصن" الذي اشتراهُ، قرب كهف "كاع"، في شمالِ غرب الجزيرة، والذي سيلعبُ دوراً مهمّاً في حياتي، بعد نهايةِ رحلةِ مركبةِ بيغاسوس!

10

ساحلُ القبلةِ الفائقة

عقب انطلاق الصاروخ (الذي حمل بيغاسوس نحو أوّل محطّةٍ فضائيّة اختارها الخمسة على هدى: "الطريق، بحدِّ ذاته، هو الهدف")، وبعد وابلِ صور السيلفي، تهافتوا على كاميراتهم المهنيّة جدّاً، ذوات "عدسات التزويم" الخاصّة، بِطولِ خرطومِ فيل، وبِملكاتٍ إلكترونيةٍ (لالتقاطِ أشعّةٍ لا تراها العينُ البشرية)، لا توجد على أيِّ كاميرا أخرى.

صُنِعتْ كاميراتُهم جميعُها، في مختبراتٍ وشركاتٍ أرضيّةٍ متخصّصة، لأخذِ وأرشفةِ ملايين الصور التي ستعجُّ بها أطول رحلات الإنسان خارج كوكبِ مَهدِه.

يستطيعون بها، من ترانزيت محطّتهم الفضائية الأولى هذه، التقاطَ صوَرٍ لأديمِ الأرض وشوارِعها وجبالِها وغاباتها، بِدقّةٍ تفصيليّة رهيبة: رؤوسُ أهرامات مصر، لوحاتٌ خالدةٌ للفجرِ القطبيّ بألوانِه التي تثير الخشوعَ والرعشة، شوارعُ مدنِ سقطرى "الجديدة" ومَرابِعُ ذكرياتِ دراستهم في كلّياتها، ثنائيٌّ يتعانق في شُرفةِ مقهى في صيفٍ ناصعٍ جميل، مشرّدٌ جائعٌ ينام على صقيع الأرض، يرتجفُ من هولِ البرد، في شتاء شوارعِ مدينةٍ ثلجيّةٍ غنيّة...

ثمّ ها هم يتدافعون بكاميراتهم حول نوافذ وكوّات المركبة، وعلى تناوبِ احتلال محراب "العرش": القبّة الزجاجية العليا المفتوحة على كلِّ الكون.

تبدأ باحتلالِها خولة، شعلةُ الطاقم. سباسكي وفيشر يُصَوّبان كاميراتهما من نافذتين متقابلتين في صالة الاستراحة، حول نقاطٍ محدّدة من الكرة الأرضيّة. تسكنهُما رغبةٌ مجنونة بالتقاط صورٍ نادرةٍ استثنائية تدهشُ عشرات الملايين من مشاهدي موقعهما المشترك على الإنترنت.

يلاحظان، مثل بقية رفاقهما: أوّلُ فجرٍ في السفينة خُرافيٌّ فعلاً. أحمرُ

دمويٌّ يعانق الأخضر. دفْقُ الشمسِ، المصطدمُ بالغلاف الجويّ، يضاعف من جماليات المشهد. دوخةٌ تغشى الجميع، سكرات...

فيشر، الذي بدأتْ مواهبُ أدبيّة قديمةٌ تستيقظ في روحِه، يكتبُ في مفكّرته:

الشمسُ، أمّنا وأبونا! محيطُ حممٍ لا نهاية له. مُفاعِلٌ ذريٌّ تتفجّر في وسطِهِ، في كلِّ لحظة، ملياراتُ المفرقعات، كل مفرقعةٍ بمفعول قنبلةٍ ذريّة. هي من تملأ حياتنا ضوءاً وسخونةً وإشعاعاً وسناء...

هي الكلُّ في الكلِّ تقريباً في مجموعتِنا الشمسيّة. قابضتُها وحاضنتُها. جميع الكواكبِ في هذه المجموعةِ أشبهُ بِفراشاتٍ صغار، تحوم حول جبلٍ ماردٍ من نار.

طار بالي وأنا أقرؤه نحو فلورنسا. نحو جداريّةِ قبّةِ معموديّتها. في مركزها لوحةُ شمسٍ تُحيطها عبارةٌ دائريّة، بالاندروميّة (أي: متناظرة، سيّان أن تُقرأ من اليسار إلى اليمين، أو العكس)، شهيرة جداً:

"EN GIRO TORTE SOL SISLOS ET ROTOR IGNE"

عبارةٌ لاتينيّة غامضة أثارتني ذات يومٍ بشدّة وأنا أعبرها من اتجاهٍ لآخر. قبل أن أكتشف معناها: "أنا الشمس، عجلةٌ يحرِّكها النار، حشرجتُها تطرد الكُرات". منها استلهمَ دانتي عبارتهُ الأخيرة في فصل "جنّات" من ملحمته الخالدة: "الحبّ الذي يُحرِّكُ الشمسَ وبقيّة النجوم".

ثمّ بعد قليل، يواجهُ فيشر "شروقَ الأرض" وهي تعكسُ أضواءَ الشمس، كما يفعل القمر في أرضِنا. يكتبُ، وقد بدأ قلَمُهُ يُطلِقُ عنانَ كلماتِهِ الجميلة، نصّاً ملوّناً مشتعلاً، واعداً كما أظنّ:

شروقُ الأرض لحظةٌ مقدّسة، أقدَسُ اللحظات قاطبة. تبدو الأرضُ، من بعيد، مشتعلةَ الجمال. تشعر حينها، عند رؤيتِها مفترشةً مقوّسةً أمامك، أنّك في عالمٍ آخر.

كل فجرٍ لوحةٌ جديدةٌ لا تتكرّر. تليها لوحاتٌ سرياليّة تتجدّدُ بِلمحِ البصر. شموسٌ جديدةٌ تسطع، تتأرجحُ أضواؤها على إيقاعِ تأرجحِ المركبة، وهي تدور حول كوكبنا مرّةً كلّ ساعة تقريباً، تُواكِبُ خلالها ليلَهُ ونهارَهُ معاً!

أمامنا الفجر! خيطُ نارٍ مشتعلة، يتخلّل فستيفال ألوان. نيرانٌ (خضراءُ أحياناً)، يفصلُها خيطٌ أحمر أو أزرق عن قطيفة النجوم.

يقرأ لهم فيشر ما يكتب في مفكّراته عن الشمس والفجر. لا تهزّ كلماته إلا وجدان سباسكي الذي تتفجّرُ في أعماقِهِ، هو الآخر، رغباتٌ سرديّة راودتهُ في الطفولة.

خولة، في علياء الفقاعة، تهيمُ في ذكرياتها الحميمة وهي تصوِّرُ في كلِّ الاتّجاهات. تُصوِّرُ المدنَ على نحو خاص. يعبر تحتها الليل والنهار أكثر من مرّة، كل ساعة. تُصوِّب عدستَها نحو المدنِ المشتعلةِ ضوءاً، نحو ناطحات السحابِ، والأرصفةِ التي تضخّ حياةً وسعادة. تبحث عبر العدسة عن مقاهٍ تمتلئ شرفاتها بجميلاتٍ طليقاتِ الجسد، يحيطهنّ المعجبون من كل جانب، تبحث عن نفسِها على نحوٍ أو آخر.

وأنا لا أبحث إلا عن مانيارا. كتبتْ ملكَتي في تقريرٍ مهنيّ حول تفاصيل بدايات الرحلة (قرأتهُ كما لو كان موجّهاً لي فقط): "النظر من الفقاعة، ومن زجاجِ النوافذ وكوّاتِها متعددةِ الأشكال الهندسية، المنتشرة في كل جدران وجوانب المركبة، يخلب لبَّنا جميعاً. لا يُملُّ وإن دام طوال النهار والليل، لأن المشهدَ ديناميكيٌّ خالص. مقاماتُ ألوانٍ تتفجّرُ أمامك، تحتك، تتجدّد على الدوام مع حركات السحب والرياح، مع تنوّعات نشاطات فيضانات نيران الشمس وما تصبُّهُ في الغلاف الجوّي للأرض من رياحٍ جمريّةٍ وغازاتٍ متفرقعة، مع فيضاناتِ بحارٍ ومحيطاتٍ أرضيّة تطمُّ الأخضرَ واليابس، مع حمم البراكين وأضواء المدن، ومع توالي الصواعق والزوابع وهي تعصف بالمشهد".

ترمقُ خولة، من ثقبٍ بين السحاب، أرخبيلَ سقطرى، يتلألأ تحت أضواءِ معشوقِها السرمديّ: القمر! تُوجِّهُ عدستَها نحو شاطئٍ ساحرٍ، في شمال

شرق سُقطرى، اسمهُ "عزْهَر" ("الماء الجاري" باللغة السقطريّة)، قربُه عينٌ تنبعُ من مرتفعٍ جبليّ، يجري ماؤها لِيصُبَّ في بحرٍ أبيض الرملِ، حولهُ كثبانٌ متماوجةٌ ساحرة، عشبٌ أخضرُ أيضاً، تنوّعٌ آسر.

سارتْ خولةُ في هذا الساحل الخرافيّ، ذات مساءٍ مُقمرٍ بديع، طويلاً مع فيشر، بعد عشاءٍ جميلٍ دعاها لتناولِه، للاحتفالِ بمرورهما إحدى العتبات الحاسمة لامتحانات الانتقاء للرحلة، سبقهُ استحمامٌ ثنائيٌّ في لجِّ البحر قبل نهاية العصر، ثمّ اغتسالٌ ثنائيٌّ في العين، أعلى المرتفع الجبليّ.

خرجا من الينبوع كما لو وُلِدا من جديد.

أمواجٌ هادئةٌ، ذات تواترٍ موسيقيّ آسر، كانت تتكسرُ قرب أقدامهما، قبيل الغروب. ألوانٌ عجيبةٌ تتلألأُ على سطح البحر، ذهبيّةٌ متماوجةٌ في الوسط، تحيطُها مساحاتُ ألوانٍ متداخلة، رماديّة، خضراء، حمراء، لازورديّة، فيروزيّة، متغيّرةِ المقاماتِ والعمق...

أمامَهُما، قربَ الأفقِ الدامي، شمسٌ ذهبيّة يشقُّ سهمٌ متلألئٌ من أشعتها البحر. تزدادُ احمراراً وهي تختفي ببطءٍ خلف المحيط الهنديّ، لِيُخيّمَ على البريّةِ ليلٌ ساحر. ليلُ العشّاقِ والشعراءِ والآلهة.

حولهما في كلِّ مكان: أسرابُ نوارس سُقطرى، بجانب طِيورِها وعصافيرِها النادرة. أعلاهما قرب الينبوع: قوافل من طيور "الغاق" السُّقطريّ، عصافير الزرزور "الدوري السُّقطري"، "السُّوعيده"، طيور العوسَق (قشفنة)... سحرٌ خالص!

كانت رومانسيةً جداً تلك الأمسية، في منتهى الحميميّةِ والجَمال، وإن "نقصَها الجوهرْ والياقوت الأحمرْ" حسب تعبير خولة: العتبَةُ القدريّة التي تقود إلى ما بعد الصداقة الحميمة: الهيام والعشق!

لماذا لم تخطر ببالِه أو تراودهُ رغبةُ تقبيلِها بعد ساعاتٍ من الاستحمام، والعشاء الثنائي، والمشي بأقدامٍ حافية، قبيل الغروب، وتحت القمر، في ساحلٍ سقطريّ يُفجِّر العشقَ والرغبةَ في التقبيل، حتّى في الحجارة؟

أغلقتْ خولةُ حينها عينيها طويلاً في لحظةٍ رومانسيّةٍ ما، وهي تلفتُ باتّجاهِ النجوم، وتقول له إنها "تستحضرُ في خيالِها الآن، بمفعولٍ مسبَق، يوميات ما ينتظرهُما في بيغاسوس، تتخيّلُها باطنيّاً وهي تشقُّ عبابَ السماء!".

ظلّتْ صامتةً مغلقةَ العينين، تنتظرُ شيئاً ما. صمتُها نداءٌ يصمّ الآذان.

كان إغلاقُ العَينينِ أحبولةً، في الحقيقة، تُخفي ما تمنّاه خولة: أن يفاجئها فيشر بِقُبلةٍ على ثغرِها الظامئ، في تلك اللحظة، وهي تنتظر... عبثاً!

قُبلة، ولو جبر خاطر! شريطة أن تكون على الشفتينِ، حتّى إن لم تكن عميقة! قُبلةٌ لوَجهِ الله! قُبلةٌ يا عِبادَ الله! قُبلةٌ يا مُحْسنِين!

ومع ذلك، ليس هناك ما هو أسهلُ وأنبلُ من تقبيلِ شفتَي فتاةٍ، تسير وحيدةً معك تحت القمر، في هذا المسرح الخلّابِ الفاتنِ الواحدِ الأحد، بخطواتٍ خفيفةٍ على إيقاعِ موسيقا الأمواج، تُغلِق عينيها أمام عينيك، لتسهيلِ مبادرتِك، لِـ"تقويةِ قلبِك"، تفصل جسدَيكما بضعةُ سنتمترات فقط!

جرحٌ نرجسيٌّ أصاب الملكةَ التي لا يمكن لمن يراها ألّا يتمنّى تقبيلَ ساعدِها فقط، ولو بأطرافِ الأصابع!

لِتخفيفِ وطأة الهزيمة أو الجرح (لا أدري)، افترضتْ خولةُ أن السبب هو خوف فيشر من بدءِ علاقةٍ غرامية بينهما، تَحول دون مرورِه، أو مرورِهما، امتحانات الانتقاء الأخيرة للرحلة الفضائية.

تُسمّي خولة هذا الساحل، منذ تلك الأمسية، "ساحل القُبلة الفائتة" Le Baiser Manqué!

ما يدهشُنا عند تحليل صورِ المنحنيات البيانية لِدماغها: نلتقطُ هاتين الكلمتين، بالفرنسية دوماً، عندما تستحضرُ خولةُ ذكرياتها في الساحل مع فيشر!

أخذتْ خولةُ، من علياء الفقاعة، صورةً لذلك الساحل الذي بحثتْ عنه طويلاً، وسط ثقب سحابٍ يلوح منه الأرخبيلُ، لِتُرِيَها لِفيشر في لحظةِ

اختلاءٍ ثنائيّ لهما، لِتذكيرِهِ بجَمالِ تلك الأمسيّة، وإن كانت تتمنّى أن يخطر بباله، هو نفسه، تصويرَ ذلك الساحل قبلها، وأن يفاجئها بصورتِه له، لتخليد تلك الأمسيّة.

استحضرتْ خولةُ روعةَ "قفشاتِ" روح فيشر المرحة في تلك الليلة، ضحكاتهما وأحلامهما. لا كتْها لوكاً بسعادةٍ وحنينٍ وظمأٍ متفجِّر.

11

غيمةٌ داخل بيغاسوس يقرفص عليها جلال

بانتظار إخلاء خولة للفقاعة، تلتقطُ مانيارا بكاميرتها ما استطاعت إليه سبيلاً من نوافذ دور المختبرات، وصالَتَي القيادة والاستراحة، ومن المطبخ أحياناً. ألاحقها بنظراتي، كلُّ ما يجذبُها صار يُهمُّني آليّاً.

والشيخ جلال الدين؟ يحملق، ويتأمّل بصمت. بريقُ دمعتين خفيّتين في عينيه. يأخذ صورةً أو أخرى أحياناً فقط، لهذه الزاوية أو تلك من هذا الكون المترامي الأطراف. لكنه أكثر من يأخذ صوراً داخلية لِلمركبة، لِيوميّات الفريق، لإشراقات أوجهِ رفاقِه أو لِبوادر إرهاقِهم وسأمِهم. تُهمُّهُ التفاصيل الصغيرة في كلِّ لَقطة، تلك التي تعكسُ ما يدور في الأعماق.

أخذتْ خولةُ أيضاً، من الفقاعة، صورةً وجدَتْها بصعوبةٍ أكبر، لمقهىً في سقطرى تردّدتْ عليه أكثر من مرّة مع سباسكي (بدعوةٍ منهُ دوماً)، ولاحظتْ أنهما كانا فيه، كلّ مرة، في حالةٍ نفسيّة آسرة: سعادةٌ وصفاءٌ استثنائيّان، رغبةٌ عنيفة في الرؤية الإيجابية لكلّ شيء، في الثرثرة الطويلة الممتعة التي تشرح النفس، في الحياة بكلّ ما تحملُه من آمالٍ ومسرّات.

لعلّه المكان الوحيد الذي يميل فيه سباسكي إلى الانزياحات المرِحة، هو الذي يبدو دوماً جادّاً أكثر من اللازم، إن لم يكن منقبضاً أو عبوساً أحياناً. عواطف وبهجةٌ كثيفة كانت تغمرهما، كما تلاحظ خولة (من لمعةِ عينيهِ الزرقاوين)، كلّ مرة في ذلك المقهى!

ستُري الصورةَ لِسباسكي هو الآخر، وأمْرُها لله، في لحظة اختلاءٍ ثنائي، لِترى، بِإداراتِ عينيها، ما تُحرِّكُ فيه من عواطف وأحاسيس، وما تُشعِلُ فيه من رغباتٍ وبداياتٍ واعدةٍ جديدة... وإن كانت تتمنّى أن يكون هو، أيضاً، مَن يفاجِئُها بالتقاط صورةِ ذلك المقهى الملهِمِ السعيد.

كلّ ما تعرفه خولة، التي طالما أمتعتْها الحروبُ الغرامية بين المتسابِقين إلى

قلبها، ممّن لا تهتمّ بهم عادةً، أنّها هنا مشرّدَة، في دَورٍ عكسيّ: هي التي تريد أن يتجرّأ واحدٌ، من هذين الاثنين، اختراقَ وتفجيرَ الجدارِ الحاجز الذي يفصل بين الصداقةِ الحميمةِ والعشق.

أي: اختراقهُ حسب الأصول، في أقدس لحظات الحياة قاطبة، تلك التي لا تمحي أبداً من ذاكرة العشّاق: عندما يُصرّحُ العاشقُ لمعشوقتهِ بِحبِّهِ وبِرغبتهِ بأن تكون شريكةَ حياتِه الأبديّة، بكلماتٍ تَخرجُ من نياط القلب لم يقلْها أحدٌ قبله، وبِعَينينِ مُرتَبكتين لامعتين (يتذكّرهما الآخرُ مدى الحياة).

تنتظرُ خولةُ، بضراوة، من أحدِهما، مثل تلك اللحظة الإلهية، لتهَبَهُ بعدها قلبَها، كلَّ قلبِها.

بانتظار ذلك، تطلبُ الكابتن مانيارا من خولة إخلاءَ الفقاعةِ لها وللآخرين. تحتلُّ مانيارا العرشَ حاملةً كاميرتها كبندقيّة. تُوجِّهُها، فلاحةُ الأرض، التي طالما حلمَتْ بزراعةِ المريخ والقمر، نحو غابات الإنسان ومزارعهِ ومروجهِ وأوديتِه وتلالِه وأدغالِه، من الأمازون حتى أقصى شرق آسيا. تتوقّفُ طويلاً عند متنزّهات سرينجيتي الساحرة، "وادي الإنسان" في شرق أفريقيا.

بديعٌ هذا الكوكب وهو يتنفّسُ أسفل مانيارا الأكسجينَ النابع من رئتَي غاباتِه مترامية الأطراف، لا سيّما الأمازون (حيث بدأ ارتفاعُ السخونة جرّاء الاختلال البيئيّ يُعطِّلُ - يا للكارثة! - بعض أشجارها عن ممارسة "التمثّل الضوئي" الذي يصنعُ غذاءَها، ويضخُّ العالَمَ بالأكسجين. تُصوِّرُها قائدةُ الرحلة من كلِّ الاتجاهات).

تتوقّفُ عدستُها طويلاً فوق بطاحٍ هائلةٍ في الأمازون، وفي قارات أخرى، تحترق (بسبب الجفاف والسخونة معاً، جرّاء الاختلال البيئي)، تُشبِهُ "الحُطَمَة وما أدراك ما الحُطَمَة" كما يقول القرآن الكريم. وأخرى حوّلَها الإنسانُ إلى مَزارِع، منتهكاً حُرمتَها بأنانيّة لا تحترمُ منظومةً بيئيةً صنعتْها الطبيعةُ خلال ملايين السنين.

التصحّرُ يطمُّ مزارعَ وغابات الأرض أيضاً. الفيضاناتُ العملاقة تبتلعها،

والنيرانُ تحرقها... كما ترى مانيارا بأمّ عينيها. "يا له من ثالوث!" تقول.

حبيبتُنا الأرضُ مرهَقةٌ جدّاً. مدمَّرة: يمتصُّ الإنسانُ هنا وهناك طبقاتِها المائيةَ الأعمق لأجل الزراعة، بما فيها زراعة النبتة الشيطانيّة: القات، في ذلك البلدِ المُنهارِ الشهير الذي تجَّر، هاجر، أو انطمَر معظم شعبِهِ من الكرة الأرضيّة (عدا الضّائعين، أو المحتمين في رؤوس جباله)، بلدِ أجداد مانيارا وأجدادي: اليمن. أليس أَمُّنا، نحن الاثنين، واحداً؟

تُوجّهُ مانيارا عدستَها نحو الصحاري أيضاً، هي التي حلَمَتْ بإملاء صحاري المريخ مروجاً وورودا. الصحراءُ تنتصر في كوكبِنا. الربع الخالي أضحى الثلثَ الخالي، النصفَ الخالي... ثمّ تلاحظ: للصحاري جماليّاتُها الباهرةُ أيضاً. تجاعيدُها تأسر العين. الريحُ تنقشُ فيها لوحاتٍ ومنحنياتٍ بديعة. الصحراءُ قصيدةٌ ديناميكيةٌ متجدِّدةٌ يكتبُها الريح!

تشتاق مانيارا لرؤية صحاري المريخ! بانتظار ذلك، نتوقّفُ طويلاً عند صحراء الطوارق، عند صحراء غوبي والنهر الأصفر، حيث مرّت جيوش جنكيز خان. تستحضر هذا الماردَ الإستراتيجيّ العبقريَّ، القاهرَ الأكبر، الذي احتلَّت جيوشُه، وجيوش أبنائه، أوسعَ مساحةٍ في الأرض، من المحيط الهادي إلى البحر الأبيض المتوسط (أكثر مما استطاعته روما في أربعة قرون، وقبلها الإسكندر المقدوني)، وحّدَ وحكمَ العالَمَ وغيّرَ خارطتَه.

أتخيّلُه، أنا أيضاً، من مكتبي، على صهوةِ جواده، يقودُ وحدات فرسانِه الطليعيّة المدرّبة، يتقدّمُها تحت راية "السماء الزرقاء المطلَقة". قلبي يقرعُ وأنا أتابعُ، على هامش صورِ مانيارا، أحصنتَه الباهرة وطلائعه المدرّبة الجبّارة وهي تغزو العالَم.

أتوقّفُ شخصيّاً، وأنا أشاهدُ صورَ مانيارا، عند صحراء شبه جزيرة العرب (أحبُّ اسمَ: الربع الخالي). أهيمُ هناك وأنا أرى شعراءَ البادية، أمامي، الأوّلَ بعد الآخر على أسنِمَةِ النياق، يناجون القمرَ ويتنفّسون الشِّعر، أتذكّر "إرَم ذات العماد" الأسطوريّة الخالدة. أهيمُ، أهيمُ مع عدساتِ مانيارا.

ثمّ يواجهُ الفقاعةَ محيطٌ مذهلُ الجمال من طبقات السحب والغيوم. تدعو مانيارا جلالاً المغرمَ بالسّحب والقمم ليحتلّ مكانها:

- جلال، جلال! سحبٌ وغيوم بأشكال سريالية، أسرعْ إلى الفقاعة، قد لا ترى مثل مهرجانهما هذا مرةً أخرى!

تهبطُ مانيارا، وتهبط نظراتي للشاشة على خطاها. يهرعُ جلال بكاميرته نحو العرش. ما أروعَ هذا الكوكب! بفضل تنوّع السحب في كل لحظة، يتجدّد شكلُه على الدوام، لمن يراهُ من الأعالي.

يُصوِّر جلال ويصوِّر. قطيعُ غنم، طبقاتٌ فوقها فوق بعض. محيطٌ هادرٌ عملاق من السحب يَعْبُر أسفله، بين الآن والآن. ألوانٌ متعدِّدة، بيضاءُ حيناً، حمراءُ حيناً آخر، وسوداءُ داكنةٌ في بعض الأحيان.

يستشِفُّ فيها أشكالاً يُصوِّرها بمهارة: وجهَ فتاة، مزهريّةَ ورد، سيّارةً مقصوصة، شُعباً مرجانية، كارل ماركس، عصفوراً يُحلّق... ليس هناك أجمل وأكثر شاعريّةً من الغيمات والسحب، في أعين جلال.

أشعرُ أحياناً أن ثمّة غيمة، داخل بيغاسوس، يقرفصُ وينام عليها جلال، ترافقهُ في كل خطوة!

يلاحظُ: بساطُ غيومٍ داكنة يواجهُ معظمَ الأرض (عدا الصحاري). الأرضُ موَشّحةٌ بغلافِ دخان. مُثقَلٌ كوكبُنا بِغشاءٍ من غازات الاحتباس الحراريّ الرجيم. يكتنفُه، يخنقُه، يقودُهُ إلى دمارِه الأكيد.

الإنسان حيوانُ تدميرٍ شامل. نفثتْ وتنفثُ صناعاتُه ومواصلاتُه ومجملُ نشاطاته، التي لا تحترم حاجات البيئة ونواميسها، كميّاتٍ خياليةً من قاذوراتٍ قادتْ إلى اصطلاء هذا الكوكب الجميل في قمم فنائهِ السادس: أنثروبوسين(10): "غلافُ زجاجيٌّ مُسرطَن، سقفُ خراء يحيط بِكوكبنا" كما يقول جلال، لا يعرف أحدٌ كيف يُمكن سحقُه أو مسخُه أو شفطُه أو تحويلُه...

(10) عرفَتْ كُرَتُنا الأرضية 5 انقراضات جماعية، آخرها الذي قضى على الدناصير قبل 65 مليون عام، بسبب سقوط كويكب ضخم على خليج المكسيك. أمّا الانقراض الجماعيّ السادسُ القادم فَسَبَبُهُ الإنسانُ.

مغرمٌ جلال أيضاً بِقِمم الجبال، لا سيّما تلك المعلّقة بالسّحب. كما يقول: "ليس هناك أجمل من تصوير قِمِ الجبال الشاهقة، لكن من مرتفعاتٍ أعلى منها".

صدقَ جلال: نراها في صورِهِ بأشكالٍ جديدةٍ لا نتصوّرُها، نحن الذين نُصوِّرُها، كأقزام، من الأسفل. من قاعِ الأرض.

يرمق حول كيوتو، عاصمة الإكوادور، جبالاً متنوِّعةَ الأشكال، يعلو كلَّ جبلٍ منها جبلٌ من السّحبِ بشكلِهِ تماماً: على الجبلِ المسطَّح سحبٌ مسطّحةٌ تُشبِهه، وعلى الجبل ذي القمّة المشرئبة جبلٌ مشرئبُ القمّة من السحبِ، كأنّه صورتُه المرآتية. يتوسّط السماءَ قوسُ قزح هائل يُضاعف من سحر المشهد.

تُذهِلُ الصورةُ سباسكي وفيشر. يطلبان أن يسمح لهما باستخدامها، لسببٍ في نفس يعقوب. يهديهما إيّاها بكلِّ محبة.

قمم البراكين والحمم تحت رجليه. قممُ الهملايا تحت قدميه. قمم الكليمنجارو. يتذكّرُ السطور الأولى المدهشة لرواية همنغواي **ثلوج كليمنجارو**(11).

(11) كليمنجارو جبلٌ يغطيه الثلج، يرتفع 6021 متراً، ويُقال إنّه أعلى جبل في أفريقيا. تُسمّى قمته الغربية، Masai Ngàje Ngài، وتعني بيت الربّ. وبالقرب من القمّة الغربية توجد جثّة فهدٍ متجمّدةٍ ومتيبّسة. لم يستطع أحدٌ تفسير ما الذي جاء يبحث عنه الفهد في هذا الارتفاع الشاهق.

ثمّ يتخيّل هدَفَهُ الأسمى الذي يسكنُه التوجّهُ إليه: قمّة جبل أوليمبوس في المريخ! أعلى من إفريست الهملايا بمرّتين ونصف، أمّا قطرهُ فهو 620 كيلومتراً! كلُّ القمم العملاقة، في الأرض وبقية المجموعة الشمسية، أقزامٌ

تركع أمام سيّدها: أوليمبوس العظيم.

يتخيّل جلال إسرافيل (ذا الـ12000 جناح) واقفاً على قمّة أوليمبوس، ينفخ في الصوْر، قبل أن يطوي الكونَ كطيّ السجلِ للكتب!

لا بدّ من أوليمبوس ولو طال السفر، يردِّدُ جلال!

يتوقّفُ عند ملايين اللِترات المكعّبة من ثلوج قمم الجبال وهي تذوب، كما لو تُقطَعُ بالسيف، وتسيلُ نحو المحيطات. "وجعٌ مُزمِن" يقول. يُحدِّقُ بثلوج القطبين الشمالي والجنوبيّ وهي تنكمش وتتقزّم بكميّات خيالية أيضاً، بسبب ارتفاع سخونة الأرض. يجتاحهُ الخوفُ من مآلِ كوكبِنا الأزرق الحبيب.

تتّجهُ مانيارا نحو خولة المنهمكةِ بتصوير مُدنِها العملاقة: طوكيو، إسطنبول، نيويورك، القاهرة، ريو دو جانيرو، باريس، حديبو "الجديدة"، لندن، دُبَي، بومباي، شنغهاي، سيدني... وهي تَسبحُ في أضوائها الليلية تحت القمر.

تواصل مانيارا، قرب خولة، التقاطَ سلسلةِ صورِ الصحاري. تجد أسفلَها قمَ الأهرام! يبدو من وجهِها خشوعٌ يحتفلُ بِقدسيّة اللحظة وهَولِها، وهي تلتقط "أبو الهَول" أيضاً!

أراقبُهما الاثنتين، بإعجابٍ مضاعف، في شاشتي التي تعرض ما يدور في صالات المركبة، وهي تصلنا من كاميراتها الداخليّة، المرئيّة أو الخفيّة أحياناً.

تنتقِلُ مانيارا بعدستها نحو من كانت "قريةً غيرَ ذي زرع"، مكّة المكرَّمة الميثولوجيّة، قبل أن أضحت اليوم غابَةً من ناطحات سحاب، تَسبحُ في بحيرةِ ضوءٍ كثيفٍ ساطعٍ جدّاً، يَتّجِهُ نحو السماء السابعة.

أحاولُ أن أتخيّلَ ماذا سيقولُ المكّاويّ الصنديد عكْرِمة بن أبي الحكَم (المعروف بِعكرمة بن أبي جهل!) لو عاد إلى الحياةِ ورآها!

ماذا يفعل فيشر وسباسكي في صالةِ الاستراحة (قبل أن يحين دورهما لاحتلال الفقاعة)، في هذا اليوم الأوّل، وما تلاه من أيّام وأسابيع؟

ماذا يلتقطان وهما يتنقّلان، كلّ يوم، بين مختلفِ النوافذ، كأسدَين

سينقضّان على فريستهما؟

ماذا يُصوِّران وهما يتبادلان مواقعَهما، وأجملَ صورِهما، ثمّ يُحدِّقان ويُصوِّران من جديد، بلا كلل، بِشغفٍ لا يتوقّف؟

12

مشروع الزواج

خامسُ طاقمِ Yyy4+1W، نون، شخصيّةٌ مدهشةٌ نادرة!

لم يلتقِ نون برفيقاته الأربع، كما سمعتُ، إلا في أشهُر التدريب والاستعداد الأخيرة، قبيل رحلتهم، بعد إصرارِ "وادي عبقرِ" إدارتِها الرشيدة على اختيارهِ لخامِسهنّ، واعتبارِ ذلك "خطّاً أحمرَ" فرضَهُ على لجان الانتقاء، دون نقاشٍ، كما يبدو!

أصرَّ على ذلك، رغم معرفة الجميع بأن هذا العصفور النادر يختلف عن زميلاته: له مواقفُ مناهضةٌ لِـ"إهدارِ" ملياراتِ المليارات في مشاريع غزو الفضاء، في كوكبٍ أرضيٍّ "مُختلٍّ مريضٍ، أحوجَ بها لِعلاجه. كوكبٌ أضحتْ بعضُ بِحارهِ تصبُّ في الأنهار، وليس العكس!" حسب تعبيره.

ثمّ هو، بعكس رفيقاته الأربع، ليس "كاميكاز" فضائيّاً، يبحث عن مغادرة الأرض بتذكرةِ ذهابٍ بلا عودة. أو يلجأ إلى "الهروب خارج العالَم، بأيِّ ثمن" حسب تعبير بودلير.

لا يُريد السفرَ إلا لِلتأمّلِ في أوضاع الأرض من الأعالي، والعودةِ لها برؤىً جديدة. أو بِـ"دِينٍ" جديد، حسب تعبير الرائدات الأربع، ينزلُ عليه في "جزيرة الوحي" الفضائيّة!

لاحقاً عندما سيصيرُ مؤكّداً التقاءُ فريق رحلتهم بفريقنا، في محطّةٍ مشتركةٍ قادمةٍ بعيدة، بعد نحو سنةٍ من بدءِ رحلتنا، ونصف سنةٍ من بدءِ رحلتهم، سأستفسر أحدَ رفاقي في لجنة الإشراف على رحلتهم، عن بداياتها، لأتابعَ سيرورة يوميّات طاقمها الواعدِ الفريد، وأستوعبَ خصوصيّات كلِّ فردٍ منهم على حدة، لا سيّما العصفور النادر نون، وأقارنَها برحلةِ طاقمي الألمعيّ الجميل. سيردُّ:

"ما إن وصلَتْ مركبة رحلة Yyy4+1W، بعد أقلَّ من ساعة فقط من

انطلاقها، إلى أولى المحطّات الفضائيّة في نطاق الجاذبية الأرضية الضعيفة (حيث استقرّتْ مركبةُ رحلتكم XxxXx00F، عدّة أشهر، قبل الانطلاق نحو القمر)، وما إن تهافتَتْ كلّ واحدةٍ على كاميرتها لتصوير كلِّ ما يبدو من نوافذ المركبة، عند أوّلِ نظرةٍ لِكوكبِ الأرضِ من على بعد مئات الكيلومترات، حتّى ارتدى نون بدلتَهُ الفضائية، ليستحمّ في الفضاء الكوني، قرب المحطّة، رغم طلبِ قائدةِ الرحلة منه أن يُقلّلِ من خرجاته 'الدينيّة'، إلّا عند الضرورة، خوفاً من أضرار تأثيرات 'جُسيمات الرياح الشمسيّة'، و'الموجات الكونيّة' وغيرها من الإشعاعاتِ الخطِرة!

اعتذر نون قائلاً لِكابتن رحلته:

- اعذريني، مشتاقٌ بجنون للاستحمام الفضائي! لم يمرّ يومٌ، منذ أشهر، وأنا لا أفكّرُ فيه! أبحثُ عن شيءٍ ما!

- عمّ تبحث؟ (سألتهُ الشاعرة شين، وبراءةُ الأطفالِ في عينيها، كالعادة دوماً).

- عن الوحي!

- لم أفهم! تبحث عن 'جزيرة الوحي'؟ (تُعقِّب شين ساخرة).

- أبحث هناك عن إلهامٍ يأتيني بنصٍّ لا يزيد على صفحةٍ واحدة، أخاطب به أهلَ كوكب الأرض وكلّ كوكبٍ آخر فيه حياةٌ ذكيّة!

- نصّ؟ لأيّ هدف؟ (تردُّ شين مندهشةً من مشروع أخيها في الرّضاعةِ من أثداء الأحلام الكبرى).

- نصّ يجمعهم، يوحِّدهم، كونهم جميعاً أعظم وأرقى كائنات الكون قاطبة... أشبه بميثاقٍ يلتزم به الجميع، يقودُ لتحقيقِ مشروعِكِ: 'فيدرالية الكواكب الديموقراطيّة الشعبيّة'، أو اسمٍ شبيهٍ من هذا القبيل!".

تذكّرتُ عبارةَ زميلنا، في لجنةِ انتقاء طاقم هذه الرحلة الفريدة، الذي قال: "كلّما زاد المجانين، كثُرَ الضحك".

يسترسلُ رفيقي في لجنةِ الإشراف:

"ردّتْ الفيلسوفة فاء وهي تُرتّبُ خصلات شعرِها الذهبيّ الهاربة، ساخرةً منه بودّ:

- لعلّكَ مستعجلٌ جدّاً للبحث عن 'جزيرة الوحي' والإصغاء لِنداءِ الفراغ المطلَق! لن تجدها هنا، ونحن على بعد خطوتين من الأرض! انقطع تواصلُ الوحي مع الأرض منذ تقاعدِ جبريل قبل قرون، كما تعرف.

- انتظرْ أوّلاً الاقترابَ من المريخ! (جاء صوتٌ من المختبر الذي صعدتْ إليه البيولوجيّة باء، لِتتفقّدَ أحوال كائناتها الحيوانيّة والنباتيّة المختبرية)".

استحضرتُ للحظات توهجُّ باء وما تركتْهُ فيّ من انطباعات رقيقة، خلال اجتماعات الانتقاء، عندما أعادتْ لِيالي أكثر من مرّة وهجَ مانيارا. فعلاً، كان من الصعب إحباطُ عزيمةِ من قال يوماً: "لا يرى الإنسان المشهدَ واضحاً إلّا عندما يشاهده من الأعالي"! يعشقُ الرفيق نون النظرَ الكليَّ للأرض مستحِمّاً في السماوات، وكأنّهُ إلهٌ يُحلّق فوقها.

سألتُ زميلي:

- أليس في سفرِهِ ضمن هذا الطاقم مُخاطرة، لاختلافهِ الكليّ عن رفيقاته الأربع؟

ردَّ:

- يجمعهُ الكثير معهنّ. في مقدِّمة ذلك: البحثُ عن الحياة الذكيّة خارج كوكب الأرض. لهم كثيرٌ من الرؤى المشتركة على هذا الصعيد. قلقُهم جميعاً شديدٌ من وضع كوكبنا: انقراضُ شعوبٍ خُردَةٍ مستضعَفة، تَدهورُ إحصائيات الولادة ونقص عدد سكان الأرض... وعداؤهم واحدٌ للمنحى الذي أخذتهُ التكنولوجيا الحديثة: الرّحم الاصطناعية، الولادة بلا ذَكَر.. كَرَدِّ فعل متطرّفٍ على الانزلاقاتِ المتطرِّفة التي وقعت فيها البشرية فيما يتعلّق بعلاقة الجنسين، والانجاب بلا ذَكَر، وتربية الأطفال بواسطة

الروبوتات الذكيّة، يرى خمستُهم أن الاتّكاءَ على بعض التقاليد، القديمةِ قدَم الإنسان، في علاقات الرّجل والمرأة، ضرورةٌ أساسيّةٌ لا مناص منها أحياناً! ورغمَ أن نون أكثرُ الخمسةِ استخداماً للتقنيات الحديثة ومعرفةً بما وراء آليّاتِها، و"فطحولٌ" ماهرٌ في الحوارِ مع برمجيات الذكاء الاصطناعي وتوظيفها للردِّ على الأسئلة المعقدة، انطلاقاً من تحليلِها لأرشيفِ الإنترنت وبياناته العملاقة، فإنّه أكثر صرامةً منهنّ في العودة إلى التقاليد، في الأمور المرتبطة بالزواج والنكاح والانجاب! بل لا يخجل، مثلاً، من العودة الحرفيّة إلى شرائع الأديان العتيقة، في بعض القضايا الجندريّة! عدا ذلك، رغبتُهم الجمعيّة في المرج والسخريّةِ والضحكِ عنيفة، لا حدَّ لها.

ما إن عاد المحمونُ بالنظرِ من الأعالي، بعد نحو ساعة من الاستحمام الفضائيّ، حتّى أضحكَ رفيقاتِه، وهو يقول:

- أيمكننا، يا بنات الحلال، أن نعقد اجتماعاً استثنائيّا لِـ"منَظّمَتِنا القاعديّة"؟!

حال سماعهِ، انفجرتْ أولى ضحكات جميع رفيقاته دفعةً واحدة.

(استغربتُ كثيراً عند سماع كلمَتي "المنظّمة القاعديّة" (م/ق)! كنتُ أظنّ أني الوحيد الذي أعرف مدلولَ هاتين الكلمتين التي كانت تستخدِمهما الأحزابُ الماركسيّة اللينينيّة، بسبب أرشيف جدّي الذي ارتبطت حياتهُ الطلابيّة في اليمن بمنظمةٍ حزبيّة قاعديّة، لا يملّ الحديث عنها في مذكّراتِه!).

دعتْ فاءُ الجميعَ لاجتماعٍ طارئ، "جرّاء طلبِ أحدِ رفاق طاقمِها انعقادَه" كما قالت بلغةٍ خشبيّة تنتمي إلى بلاغة الاجتماعات الحزبيّة العتيقة، مُضيفةً:

- لعلّه وجدَ الميثاقَ الذي تحدّثَ عنه، ميثاق "نبيِّ فيدراليّة كواكبِ الحياةِ الذكيّة"!

- وجدتُ مشروعَ ميثاقٍ آخر، أكثر إلحاحاً! (ردّ نون).

يجلسُ الجميع على كراسيّهم في منضدةٍ دائريّةٍ في وسط صالون الاستراحة.

يربطون أحزمتَهم حتّى لا يتطايروا في كلِّ الاتجاهات، وينتظرون افتتاحَ الاجتماع، "باسمِ الثورة"، أو بأي اسمٍ من هذا القبيل، على غرار طقوس اجتماعات م/ق، في أيّام بداية شباب جدّي (السكينةُ والسلامُ لِروحِه!)، قبل ما يقتربُ من ثلاثة أرباعِ قرنٍ من الزمان!

- ما هي مقترحاتكَ لنقاط هذا الاجتماع الطارئ، رفيق نون؟ (سألتْهُ فاء مباشرة، دون أن تفتتحَ الاجتماعَ على الأصول، "باسم الثورة"، أو حتّى باسم Yyy4+1W!).

- نقطةٌ واحدةٌ لا غير: "تنظيمُ حفلةِ زواجٍ جماعيّ!" (ردّ نونُ بِهدوءٍ وثقة).

انفجرنَ قهقهةً من جديد، زوبعةُ ضحكٍ انبثقتْ من مُهج قلوبهنّ، صعُبَ كبح جماحها!

- هبط عليكَ الوحي وأنت تستحمُّ في السماوات، طالباً منك عقد زواج جماعيّ معنا في مركبة فضاء؟ (سألتْهُ الشاعرةُ شين ساخرةً، بعد أن غطرَفتْ، أو ولولت، على طريقة حفلات الزواج الشرقيّة!).

- لا، عزيزتي. ليس بعدُ... ربما سيكون موعدي مع "الوحي" في المريخ، كما قالت بيولوجيتنا الحبيبة باء، هذا إذا ما قرّرنا جميعُنا الذهاب إلى الكوكبِ الأحمر!

ردّ ضاحكاً، قبل أن يضيف:

- الموضوع أكثر عجالة. تعرِفنَ، حبيباتي الغاليات: أمامَنا عامٌ ونصف من الحياة المشتركة، ونحتاج إلى تنظيم علاقاتنا، وحياتنا العاطفية والبيولوجية معاً، إذا لا نريد أن نتحوّلَ إلى بقدونس!

قاومتْ شين ابتسامتها، موّهتْ باء قهقهتَها بِسعالٍ اصطناعيّ، وأخفتْ فاء، بصعوبة، رغبتَها في الانفجارِ مجدداً من الضحك.

- ماذا تقصد بالضبط؟ (علّقتْ الفيزيائية زاي التي لا تحبّ التعرّجات

الحلزونيّة أو المرح الرخيص في مثل هذه الأمور الشخصيّة المصيريّة الحميمة!).

- أقصد: أن أطلب أيديكنّ، على الطرق المألوفةِ التقليدية (الدينية وغير الدينية) في الزواج قبل النكاح! وأن يكونَ ذلك، مع ثلاثٍ منكنّ، على نهجِ أديانِ اللهِ ورُسُلِهِ الثلاثة، وأن يكون زواجاً مدنيّاً لا دينيّاً مع الرابعة، على الأصولِ المدنيّة، حتّى نحترم بذلك معظم التقاليد الإنسانية في الزواج.

- أووووه! الموضوع إذاً أخطرُ ممّا توقّعتهُ، رفيق نون! هل تنوي بذلك أن تكون "غلاماً" لنا الأربع؟ (ردّت الفيلسوفة فاء، ابنة عصرٍ انحلّ فيه دورُ الذّكرِ وأهميّتُه في الأمور المتعلّقة بالزواج والإنجاب، ونسيَ الناس تماماً مفهوم الزواجِ بأربع إناث، كما كان يُمارس في زمنٍ قديم).

- لا، أبداً! أتمنّاهُ زواجاً متكافئاً محترماً، لا سيادةَ فيه لأحدٍ على أحد... أمّا كونهُ زواج ذكرٍ بأربع إناث، فذلك بسبب التكوين الجنسي للطاقم: 4 + 1، لا غير. لو كان العكس: 4 + 1، لاقترحتُ العكسَ بطبيعة الحال.

حكّتْ الشاعرة شين رأسَها، وهي تحاول بصعوبةٍ كتمَ ضحكةٍ طائشةٍ جديدة تفجّرتْ رغماً عنها. لا تعرف إن كان عليها أن تضحك، أو أن تأخذ نون مأخذَ الجدّ. سألتْهُ نصف ساخرة، هي التي تحبّ الوصول عمودياً إلى بيت القصيد:

- ومن منّا الأربع سيكون زواجُها بعقدٍ لا دينيٍّ مدنيّ؟ وما الدّينُ الذي ستتزوّج به كلّ واحدةٍ من الثلاث الأخريات؟

- لا أعرف! كلّ شيء سيتمُّ، في كل أمور اختياراتنا داخل المركبة، عبر الاقتراع بواسطة الكمبيوتر، بالصدفة، at random!

"دلا دلا، أيّتها العزيزات"، تستطرد الفيزيائيّة زاي التي تميلُ إلى التأكّد دوماً من صحّة الأسسِ والشروطِ الأوليّة لأيّ تجربةٍ مختبريّة. تضيف، بعد دقيقة من الصمت، ونظرات عينيها الزرقاوين الرماديتين الجميلتين تخترق جمجمة نون:

– ما الذي يجمعنا أوّلاً كي تجرؤ على الحديثِ عن زواج؟

– مركبتُنا الفضائية التي سنقضي فيها عاماً ونصفاً!

– لا يكفي ذلك، بالطبع.

– تجمعنا أشياءُ كثيرة كما تعرفن طبعاً، وإلّا لما كنّا هنا معاً. أوّلها: ننظر معاً في الاتجاهِ نفسِه. نبحث معاً عن اكتشاف وجود الحياة والعوالم الأخرى خارج كوكب الأرض، عن ربط صلاتها، وعن توجيهها فيما يتعلق بِدِينِي المستقبليّ الجديد، إذا ما وجدتُ فعلاً "جزيرةَ الوحي"، قُدِّس سرُّها!

لتنظيمِ فعالية الاجتماع وجدواه، قبل أن نتطاير الأسئلة في كلِّ الاتجاهات، تدخّلتْ رئيسةُ الاجتماع وقائدةُ الطاقم، الرفيقة الكابتن فاء، قائلةً (بِلغةٍ خشبيّةٍ ملائمة) ما يُشبِه الجدّ الذي لا يخلو من السخريّة، أو ربّما من المرح:

– لأنكَ صاحبُ الفكرة، فسنُمهِلُكَ أسبوعاً (إذا أنتُنّ موافقاتٌ طبعاً، صديقاتي) لِتقديمِ "مشروع العمل". أقصد: مشروعَ برنامجِ زواج متكامل، برسم تفاصيلَ طريقةِ احتفالِ زواج كلِّ واحدةٍ منّا بكَ، بُنودَ العلاقات الجديدة بيننا التي ستنبثقُ منه، آليّاتِ حياتنا الزوجيّة و"نظامِها الداخليّ"، توزيعَ أيّامِ النكاح بيْنكَ وكلِّ واحدةٍ على حدة، وآفاقَ مستقبلِ كل زواجٍ بعد انتهاء الرحلة، وآليةَ الطلاق طبعاً. ننتظرُ مشروعك لِنناقشهُ في "اتحاد نساء Yyy4+1W"، أوّلاً! ثمّ سنعطيك بعدها، في ضوء ما سنقرِّرهُ في الاتحاد، ردّاً جماعياً: إمّا الرفضُ لِبنود "مشروع العمل" الذي ستقدّمه، وإمّا اقتراح تعديلات جوهرية عليه، وإمّا موافقةٌ مبدئيّة ربّما!

– أيّامٌ ثلاثة تكفي، في رأيي! (علّقتْ زاي).

– يومان بالكثير! (اقترحتْ باء).

كانت الشّاعرة شين أكثرهنّ عجلاً كما يبدو. قالت:

– يومٌ واحد فقط! إذا لم يكفِهِ ذلك، فسنضيفُ له نصفَ يومٍ آخر.

وافق الجميع بالإجماع على مقترح شين. ثمّ اختتمتْ القائدة فاء اجتماعَ م/ق، باسم الثورة والحزب الطليعيّ وYyy4+1W!

13

جرحٌ نرجسيّ

سباسكي وفيشر، بجانب كلِّ كوّات المركبة وفقاعتها، مهووسان، كلّ يوم، بتخليد المشهد فوتوغرافياً، أكثر من الجميع. يتنقّلان بعدستيهما في رحاب الفضاء، كسمكتَين تسبحان في أعماق محيطٍ لا نهائيٍّ من كواكبِ الكون وشموسِه وسدمِه ومجراتِه.

فيروساتُ شغفِ التصوير تجعلهما يأخذان معاً مئات الصّورِ يومياً. مهووسان خاصّةً، في هذه المحطّة الفضائية الأولى، بِتصويرِ المحيطات والبحار والأنهار، بالتقاطِ صورِ الجزر والأمواج المتلاطمة والعواصف والبروق. يتوقّفان طويلاً عند شواطئِ المدنِ الساحليّة وأضوائها، نباتاتِها البرمائية...

كلُّ الخمسةِ سواحليّون في الحقيقة، أبناءُ مدنٍ بَحريّة، بيد أنّ علاقةً صوفيّةً خاصّة تربط سباسكي وفيشر بالمحيطات والبحار.

يرونها جميعاً بحراً واحداً من ناحية، ويرون لكلِّ محيطٍ وبحرٍ ونهرٍ شخصيّته المستقلة، من ناحيةٍ أخرى. يعتبرونه كائناً حيّاً، له ملامحُه وطقوسُه وأهواؤهُ الخاصّة.

أما السّباحة في مياهِ صيفِ بُحيراتِ المريخ فهي، كما يعرف الجميع، حلمُهما الأسمى!

يضعان الصورَ التي يلتقطانها، كلّ يوم، في موقعهما على الإنترنت، مع تعليقاتٍ يكتبانها معاً، لِتنال دوماً عشرات آلاف المشاركات، وضِعفَ أضعافِها من تعليقات عشراتِ ملايين المعجَبين بهما في الشبكات الاجتماعية. يسعدُهما ذلك دوماً، ويؤجّجُ رغبتهما في المزيد من النشر والتفاعل، ورؤيةِ تدفّقِ تسونامي "اللايكات" الذي لا يتوقّف.

شعبيّتهما تزداد مع كلِّ صورةٍ جديدة: بمجرّد أن يضعا مثلاً، من أعالي السماء، صورةً رهيبةً للبحر الأحمر (الذي "تحمرُّ البحارُ الأخرى خجلاً أمام

بهاءِ ونصاعةِ زُرقتِه" كما كتب سباسكي، على غرار ما يكتبه فيشر في تعليقاته ومفكّراته، و"على يسارِهِ النهرُ الأسطوريُّ، النيل، وهو يفترش بترفّعٍ وثقة، جبّاراً لا يتوقّف، متقدِّماً نحو "الدلتا"، يشقُّ "أمَّ الدنيا"، القاهرة، إلى نصفين، قبل أن يصبّ في البحر")، وبمجرّد أن يُضيفا معاً، بعد ذلك، بِلُغةٍ شاعريّة مرموقة في نصٍّ مشترك يضعانه على موقعهما بجانب الصورة، أن البحر الأحمر يبدو مثل "جرحٍ يشرخُ صدرَ الكرة الأرضية"، حتّى تتوالى أعدادٌ لا تحصى من التعليقات والتفسيرات الأرضيّة لما كتباه. يتعارك في معمعانها الرأيُ والرأيُ الآخر، ويختلط الحابلُ بالنابل.

يتوقّفان بحسرات عند بعض الأنهارِ المصابةِ اليوم بمرضِ اضمحلال ينابيعها، جرّاء ابتلاع السدود لها، والاستهلاكِ الإنسانيّ الزايدِ على اللزوم، لدرجة أن البِحار أضحتْ - يا للكارثة! - تصبُّ في الأنهار، وليس العكس!

يجيدان أخذَ صورِ النتوءات البحريّة، من شواطئ نيوزلندا إلى تشيلي، مروراً بنتوءِ "كعل فرعون" (خصية فرعون) بأرخبيلِهما السُّقطريّ الحبيب الذي خلّدا ألقَ زرقتِهِ المتلألئة بصُورٍ حميميةٍ بديعة.

تشفط عدستيْهما الصواعقُ والأمواجُ العملاقة. منظرُ أولى العواصفِ التي شاهداها في بداية الرحلة ظلّ مطبوعاً في رؤوس ملايين المتابعين لموقعهما على الإنترنت، لا سيّما أنّهما رافقاه بهذا التعليق: "دوّامةُ أسفلت أزرق تحت قدَمَينا، تدور بسرعةٍ مجنونة، كما لو تنوي شفطَ الكرة الأرضية وإيداعها في قنينة عفريت!".

يُشعِر فيشر جماهيرَ قرّائهما: "يصعبُ كثيراً ضبطُ الكاميرا لأخذ صور الزوابع والتوابع. لذلك، نحاول، سباسكي وأنا، أخذَ مئات الصور العشوائية، بل الآلاف أحياناً، من زاويتين مختلفتين، للقبض على الصورة المثالية" التي تُسيل، بطبيعة الحال، لعابَ جماهير كوكب الأرض، وهي تنتظر بشغف كلّ جديدٍ يبثّانه.

تُشجّعُ سباسكي وفيشر تعليقاتُ مليونيّات المغرَمين بصورِهما على أخذ المزيد منها ونشرها، وعلى كتابةِ النصوص الفنيّة والأدبية المشتركة حولها،

وعلى استعارةِ بعض صورِ رفاقهما، كتلك التي أخذها جلال فوق جبال الإكوادور. وجدا في ذلك شغفَهما الجديدَ الأسمى.

يُفكِّران، من وحي مقترحات عديدة وصلتْهما من المتابعِين والمعجَبين، في بعثِ صورِهما ونصوصِهما الفنيّة المرافقة لها إلى دار نشرٍ في كوكب الأرض، لطباعتها في مجلّدات، على أوراقٍ فاخرةٍ وبجودةٍ عاليةٍ جدّاً، على أن تُطبَعَ بعضُ الصور الشاسعةِ منها على صفحاتٍ متتاليةٍ عدّة، في أوراق متتابعةٍ معطوفةٍ، يمكنُها أن تفترش معاً لرؤية الصورة كاملة ("ثمّة صورٌ تحتاج إلى أكثر من عينين وكاميرا واحدة!" يقول سباسكي في أحد منشوراته الرصينة الفنيّة دوماً).

يُقرِّران، بعد ثلاثة أشهر من بدء الرحلة، خوضَ هذا المشروع الذي صار يستحوذُ عليهما أكثر من مباريات شطرنجٍ لم يعودا خلالها قادرَين على التجديدِ وخلقِ الدهشة.

بل كأنّهما أصِيبا ببعضِ السأم من مواصلتها. فيما يُعيد ولادتَهما، من جديد، هذا المشروعُ الابتكاري الفنيّ الذي يحتاجُ أيضاً إلى مسحةٍ أدبيّة، وشِعريّة غالباً، عند كتابة التعليقات.

- أتذكّرُ الآن: كنتُ أحلم أن أكون أديباً عندما كنتُ طفلاً! (يقول فيشر).

- كتبتُ الشّعر في صغري، حلمتُ أيضاً بأن أكون كاتباً عندما أكبر! ثمّ توقّفَ كل شيء مع بدءِ الدراسة. عجيبٌ عودةُ هذا الشغف من جديد لي أيضاً، على نحوٍ موازٍ! (يجُيبهُ توأمُ روحهِ سباسكي).

يقاطعهما جلال من بعيد:

- ما الذي لا يجمع بينكما، وكلّ واحدٍ منكما ظلٌّ للآخر؟ لا أتوقّع أن أحدَكما كان يجمع الطوابع في صغرهِ، والآخرَ لا! لعلّكما ربّما توأمان بيولوجيّان، دون معرفتكما!

يردّ سباسكي:

- تفصلنا، فيشر وأنا، أشياءُ كثيرة!

- أووووه، بِجدّ؟! ميكروسكوبيةٌ جدّاً ربما، لا تُرى بالعين المجرّدة (يُعلّق جلال ساخراً).

- أنا مثلاً يساريّ، وسباسكي يمينيّ! (يتدخّلُ فيشر على خطّهما، داعماً ملاحظةَ سباسكي).

- يساريّ؟ يمينيّ؟ يا للهراء! كان هذان المصطلحان السّياسيّان يُستخدمان قبل أواخر القرن العشرين. لم يعد هناك فرقٌ بينهما منذ دهر! (يقاطعُه جلال).

عدّدَ فيشر اختلافاتهما، وهو يكتمُ ضحكَهُ إثر ما قاله جلال:

- بعكسِ سباسكي، أميلُ إلى المرح والتسليات. سباسكي أشقر، أزرق العينين، فيما أنا لا. سباسكي يُفضّل تنظيفَ فِمه قبل الفطور، وأنا بعد الفطور!

- موعدُ تنظيفِ الفم يعكسُ فعلاً اختلافاً وجوديّاً انشطاريّاً مركزيّاً جوهريّاً حادّاً وخطِراً جدّاً (تُعلّقُ مانيارا ساخرةً من بعيد، بجانب خولة التي تُخفي غليان قهرٍ وغيرة، وهي تصغي بِصمت لهذه المعمعة الطفوليّة التي لا تجدُ لِنفسِها فيها ناقةً ولا جمَلاً).

يؤجّجُ فيشر، بلا قصد، غيرتَها، وهو يردُّ على مانيارا، بفكاهةٍ شاحبةٍ لم تُضحِكْ أحداً، وهو يُرتّبُ فيها كلمتَيْ "قبل" و"بعد" بطريقتين متعاكستين:

- ازداد هذا الاختلاف حدّةً أخيراً، في الحقيقة: صرتُ أنظّف فمي بمعجون الأسنان (قبل الفطور وبعده)، فيما صار سباسكي يُنظّف فَمه (بعد الفطور وقبله)!

يجذبُهما بضراوة، يمغنطُهما في الحقيقة، مشروعُ مجلدات ألبومات الصور الفضائية، ويثير قلقَ خولة وحزنَها! لم يعرضْ أحدُهما عليها مشاركتَه في هذا

المشروع. ولم يعرضا عليها الاثنان معاً أن تكون ثالثتَهما في إعداد المجلدات! لم تعد تفهم شيئاً.

تتضاعفُ مراراتُها وهي تراهما ممسوسَيْن بهذا الشغفِ الجديد، الذي يواصل من تعميقِ علاقتِهما، ومن تركِ جلالتها، "معبودةِ الملايين"، منبوذةً لوحدِها في صحراء قاحلة.

عاصفةُ غِيرةٍ تسكُنها! من كان يتوقّع ذلك؟! غضبٌ أيضاً.

تذهبُ خولةُ إلى غرفتِها، مهمومةً جدّاً، تطبقُ بابَها الأرضيّ بعصبيّةٍ وسخطٍ واضح، ذات نهار، وهي تراهما غارقَين في أخذ الصوَر وكتابة التعليقات عليها لموقعهما ومجلداتهما الورقيّة القادمة، يُنطّان كقردَين، من نافذةٍ إلى نافذة.

يقارنان بين صورتين يأخذانهما من زاويتين مختلفتين، يدمجان صورتين أخذاهما أحياناً في صورةٍ واحدة، ستفترش على عدّة صفحاتٍ متتاليّةٍ متلاصقة، يحتلّان معاً أحياناً "الفقاعة"، رغم عدم اتّساعها لاثنينِ بكاميراتهما العملاقة!

ينوي جلال أن يلحقَ خولة في غرفتها المجاورة لغرفته (بينهما بابٌ مشترك)، لِتخفيفِ حُزنِها الذي لاحظهُ بِدقّة، وتابع مسارَهُ وتطوّراته في الأسابيع الأخيرة، وهو يستعيدُ ويُحدّقُ ببطء بِصُورٍ أخذَها لها، وللأخوين سباسكي وفيشر، في أيّام متعاقبة منذ بداية الرحلة، دون أن يدركوا ذلك!

صورٌ تعكس تطوّرات علاقتهم بعضهم ببعض، منذ بدء الرحلة. يجيد الصوفيُّ جلال، بفراسةٍ دقيقةٍ بارعة، قراءةَ تفاصيل لغةِ الجسد (لا سيّما الأعين ولمعة النظرات) الابتسامات، طريقة لمسِ جسدِ الآخر... ناهيك إذا كانت بهذا الوضوح الذي تَجلّى له، رويداً رويداً، وهو يدرسها ويراقب تطوّراتها منذ أشهر.

ما أدهشهُ وهو يفكُّ شفرات لغةِ النظرات والأعين ولمسِ الأصابع، في بعضِ ما أخذه من صورٍ وأفلام، لِرفاقِ المركبة الثلاثة، ليس فقط رؤية تصاعد خيبات خولة، وما يعتمل في أقبية أحاسيسها من مرارات، بل ما

يربط سباسكي بفيشر من فيضِ التحامٍ روحيٍّ عميقٍ متصاعد، وعلاقاتٍ عاطفيّةٍ ثريّةٍ نادرة، وإهمالٍ شبهِ كلّيٍّ لِشفرات خولة وحاجتها العضويّة الوجوديّة لهما.

كيف لهذين المجنونين أن يغفلا ما تنتظرهُ خولةُ من أحدهما! كيف لهما أن لا يقعا بفخوخ رغباتها في تأجيجِ فتنةِ التنافسِ للوصولِ إليها!

يعاملانها كأخت، كأحبِّ أخت، فيما تنتظر من أحدهما شيئاً آخر. تنتظر "الجوهرْ والياقوت الأحمرْ". تتعذّبُ خولة، هي التي عذّبتِ الملايين! كأنّ القدرَ ينتقم منها هنا، وهي تتوسّلُ أن يُسقِط قلبَ أحدِ معشوقَيها، فيما أحرقتْ قلوبَ أكثر من ثنائيٍّ متنافسٍ، منذ سنِّ المراهقة.

جرحٌ نرجسيٌّ يكبر يوماً بعد يوم في أعماق جلالتِها. تتساءلُ: هل فقدتْ جاذبيّتها الجمالية، بعد الخروج من نطاق الجاذبيّة الأرضيّة؟ أم هل هذا الخروج يُغيّر نفسيّةَ الرجل، وميولَه العاطفيّة والجنسيّة العضويّة؟

"كانا دِيكَين مع ذلك في الجامعة، كما يقال! هل الخروج من الجاذبية الأرضية يقلب الميولَ ويُرخيها، ويُحوِّل الديوك إلى حظيرة دجاج؟"، تقول لِنفسها بمرارة، ساخرةً متذمِّرةً من كل شيء.

تتناقض مشاعرُها على نحوٍ مكشوف: تشعر من ناحية، كما يبدو، أنها تعيش ورطةَ العمر، داخل قفصٍ فضائيٍّ، لا مفرّ منه قبل دهر. ولا يَذْبل أملُها، من ناحية أخرى، في سقوط قلب أحدِهما سريعاً مع مرور الوقت، ومع اشتعال حاجات الجسد الروحيّة ورغباته البيولوجية الحاسمة، صاحبةِ القرارِ الأخير.

14

مذكّرات شابٍّ أمرد،

كلتا يَديهِ يساران

"بعيداً عن أوجاعِ العالَمِ وأوهامِه": جملةٌ منقوشةٌ بخطِّ جدّي، على بابِ كوخ صغير، في قريةٍ سُقطريّةٍ ميكروسكوبيّة، مكوّنة من 4 أكواخ لطيفةٍ ومتواضعةٍ جدّاً، "لن تصلها الحضارةُ الحديثةُ يوماً، ولِلّهِ الحمد!" حسب تعبيرِه أيضاً.

"ولن تصلها طوفانات وتسوناميات كوارثِ الاحتباس الحراري، التي تقضمُ سنويّاً وتطمُّ أجزاءً جديدة من الأرخبيل" كما أودّ أن أضيفَ اليوم، بعد ما يقرب من ثلاثة عقودٍ على وفاة جدّي (لروحهِ السكينة والسلام!).

بجانبِ الكوخ، ثلاثةٌ أُخَر، لِصيّادِين ينتمون لعائلةٍ واحدة، يعيشون خلف جبلٍ (يقعُ أسفلهُ كهفُ "كاع") مُطِلّ على شاطئ ناءٍ ساحر، باكتفاءٍ ذاتيٍّ ومعزلٍ عن العالَم.

استأجرَ جدّي هذا الكوخَ منهم، عندما كان طالباً، في ثالثِ رحلةٍ له إلى سُقطرى، بِسعرٍ زهيد: 50 دولاراً بالشهر، قبل شرائهِ منهم، بعد سنواتٍ من زيارتِه، وتعمّقِ اندماجِهِ بعائلتهم.

ما زال الكوخُ مِلكَنا، وإن لم يسكنهُ أحدٌ من سلالتنا إلا بضع مرّات، بين الحين والحين، حسب الظروف السياسيّة والدوليّة، "لِتغيير الجو"، وما أنجعَ تغييرَ الجوّ فيه! سحرٌ خالص!

نُطلقُ عليه، منذ أيّامِ جدّي: "الحصن". يمتلك جيراننا الأحبّاء نسخةً من مفتاحِه. ولا يُقصِّرون في الاهتمامِ به، واستخدامِهِ عند الحاجة، وتجهيزِهِ قُبيل أيّ زيارةٍ لنا.

تربطنا بهم، أبناءً وأحفاداً، في الواقع، علاقةٌ قديمةٌ عميقة، ثقَةٌ قويّة، ودٌّ

خالصٌ وتعاونٌ متبادل.

لأَسْرُد باقتضابٍ سِفْرَ تكوينِ الحصن، مختزِلاً، بكلمتين صغيرتين، عشرات الصفحات من الجزء الأوّل من مذكّرات يوميات جدّي (الذي أطلقَ على الجزء: "مذكِّراتُ شابٍّ أمرد، كلتا يديهِ يساران"!).

ارتباطُ عائلتِنا بالكوخ كان محضَ صدفةٍ خالصة. بدأتْ القصّة في صيف 1978. عامٌ هامٌّ في حياة جدّي. عاد فيه، من ألمانيا الغربيّة، لقضاء أوّل إجازة صيفيّة في عدَن، عقب عامَين ناجحَين بدأهما بدراسة اللغة الألمانيّة، بعد سفرِهِ للدراسةِ الجامعية.

ارتبط فيهما بحبيبة عمرِه، جدّتي الغالية التي لم أعاصِرْها، هي الأخرى. كان يشعرُ حينها أن العالَم ملكُهُ، و"سمَة العصرِ هي انتصار الاشتراكيّة وأفول الرأسمالية" كما تلقَّنَ في اجتماعاتِ م/ق، عندما كان طالباً في عدَن!

قبل إجازة الصيف بقليل، اشتغلَ لِمدّة شهرين، في شركةٍ بناء. تجربةٌ "بروليتاريّة" صعبة، مرهِقة جدّاً، في ورشاتٍ سكنيّةٍ متباعدة، كسبَ بفضلِها مبلغاً كبيراً، عاد به إلى عدَن: 4500 دولار!

هدفهُ الأكبر: السفرُ إلى صنعاء (التي لم يزرْها بعد)، لِشراء جَنْبِيَةٍ فضّيّةٍ أصيلةٍ وثمينةٍ جداً، هديةٍ لملكة قلبه التي تَعرّفَ عليها، قبيل أشهر فقط.

الحدودُ مغلقةٌ بين شطرَي اليمن حينذاك. بينهما "جدار برلين" لا مرئيّ، يفصل شطراً جنوبيّاً "تقدّمياً" سوفيتيّاً حتّى مخّ العظم، وشماليّاً إقطاعيّاً "رجعيّاً" حتّى مخّ العظم. نظامان قمعيّان أصمّان (هذا ما يوحِّدهما)!

كانت اليمن، منذ ذلك الزمن، وقبلهُ بكثير (منذ زمن حروب الفرسِ والروم، في القرن السادس الميلادي) مرتعاً دائماً لصراعات القوى الخارجية بالوكالة!

لِلسماح له بالسفر، احتاجَ جدّي إلى أسبوعٍ لِجمع التوصيات من "اتحادِ الطلبة اليمنيّ الديموقراطيّ"، ومن "اتحادِ الشباب اليمنيّ الديموقراطيّ"، ومن

"إدارة التربية والتعليم"... تلاهُ أسبوعٌ آخر من الانتظارِ اليوميّ في "إدارة الهجرة والجوازات".

ظلّ يذهب إليها كلَّ صباحٍ باكر، وحتى بداية الظهيرة، وسطَ جموعٍ محتشدةٍ تنتظر فيزاتها، وفي الجيبِ الخلفيّ لبنطلونِهِ محفظةٌ جِلديّةٌ جميلة، أهدتْهُ إيّاها حبيبةُ عمرِه، فيها صورةٌ لهما، و45 ورقة من فئة المئة دولار الجديدة اللامعة، تَسمحُ، بفضلِ سعرِ الدولار بذلك الزمن، بِشراء بيتٍ صغير!

اجتاحهُ حينها شعورٌ بالسعادةِ والفخر، لم يعرفهُ يوماً من قبلُ.

كان جدّي يسارِيّاً كادحاً (كلتا يديهِ يساران!)، طوال حياتهِ الطلابيّةِ السابقة. ولِأوّلِ مرة امتلكَ مبلغاً كهذا، انتزعَهُ بِعَرَقِ جبينِه.

أرادَ، مثل كلِّ مراهقٍ بريءٍ، أن يتباهى قليلاً و"يتفاشر" ويتفاخر مرّةً واحدة في حياتِه، وهو يحملُ محفظةَ حبيبتِهِ، على نحوٍ مرئيّ، في جيبِهِ الخلفي، بكلِّ سُمْكِ أوراقِها الذي يجذبُ النظر.

ناهيك أنّ جِلدَ المحفظةِ الأنيقة جداً، كما يبدو وهو في علياء الجيب، مُغرٍ جدّاً بحدِّ ذاته، مُستحوِذٌ متلألئٌ واعدٌ لافت. كان يشعر باختصار بأنّه أغنى رجل في العالم.

جاءت الفيزة بعد أسبوع! مدَّ يدَهُ، وسط مئةِ يدٍ تتزاحم أمام نافذةٍ صغيرة جداً، يبدو منها رأسُ موظفٍ نادى بِاسمِه، ضمن من حصلوا على الفيزاتِ، في ذلك اليوم.

قرأ حذافير ورقةِ الفيزة (كانت تبدأ بِبَسملةِ تلك الأيام: "لِنناضلْ من أجل الدفاع عن الثورة اليمنيّة، وتنفيذ الخطّة الخمسيّة، وتحقيق الوحدة اليمنيّة"، تعلوها طوابع "الدمغة").

كلّ شيءٍ على ما يرام، وها هو سيسافر غنيّاً كملِك، غداً أو بعد غد، لِيشتري أثمنَ جَنْبِيَةٍ لملكة أحلامه.

ما إن خطا خطوتين، وبيدِهِ الفيزة التي ظلّ يُحدِّق بها مليّاً، لِيُصدِّقَ أنه حصل عليها فعلاً، حتى أدرك أنه فقدَ شيئاً ما!

احتاج إلى دهرٍ، وتجارب شبيهة أخرى في سنواتٍ قادمة، لِيُدرِكَ أنه في اللحظة التي كان دماغُه، وكلُّ نظراتِهِ وأحاسيسِه، تتبوأر حول تلك الورقةِ التاريخيّة التي هرمَ في انتظارها، ثمّةَ، عندما مدّ يدَهُ لأخذِها من نافذةِ الموظف، مَن خطفَ المحفظةَ بِكلِّ هدوءٍ وثقة!

لم يستوعبْ، في الواقع، أنّ المحفظةَ لم تعد في جيبِهِ الخلفيّ، هو الذي ظلّ ساذجاً بريئاً طوال حياتِه. عاد إلى إدارة الهجرةِ لأسبوعٍ آخر، كلّ يوم، ظانّاً أن هناك من عثر على المحفظة وسيُعيدُها.

ثمّ تذكّرَ أنّهُ، طوال أسبوع الانتظار، كان يرى يوميّاً رجلاً بنظّارات سوداء عريضة، يطوف، طوال النهار، قرب الحشودِ المحيطةِ بالنافذة، لا ينتظرُ شيئاً ما، لا يكلّمُ أحداً، يختلسُ النظرَ إلى هذا أو ذاك، بلا أيّ ابتسامة، ولم يعد يراه بعد يوم سرقةِ المحفظة إطلاقاً.

ثمّ لاحظ بالصدفة، أثناء عبورِه أحدَ مراكزِ عدَن، بعد نحو أسبوع من لطشِ المحفظة، أن الرجلَ صار مالكَ مقهى عصائر، كبيرٍ وجميل، اشتراهُ للتوّ!

لا يمكنُ اتِّهامُه، لكنّ جدّي، "تمنّى أن يدعوه 'السارقُ' لِشرب كأسِ مانجو مقابل الـ4500 دولار، على الأقل، من باب العرفان بالجميل والأخلاق الفاضلة!" كما كتَبَ في يوميّاتِه!

ثمّ ما أحزن جدّي أساساً هو "ضياع المحفظةِ الجلديّة الجميلة، هديةِ معبودته، وصورتِهِما، أكثر من سرقةِ المبلغ بحدِّ ذاته!".

لِأخرُجَ عن النصِّ قليلاً، باعترافٍ صغير: ظلّ جدّي رومانسيّاً حتّى آخر دقيقةٍ من عُمرِه!

ربما لذلك كانت "تعشقهُ الحوريّات" حسب تعبير المرحومةِ جدّتي الحبيبة

التي كانت تغارُ من الحجر والشجر، وتقول له أحياناً: "لا يمكنني أن أتركَكَ لحظةً واحدةً، دون أن تنطَّ بنتٌ نحوَكَ!".

عاد الطالبُ الغنيّ فقيراً منكوداً، طفراناً، مصدوماً وحزيناً جدّاً، بعد يقينِه من ضياع المحفظة إلى الأبد، وبدءِ شعورِه بالصدمة فعلاً، بعد أكثرَ من أسبوعٍ من لطشِها!

لتخفيفِ الصدمةِ ولِنسيانِ ما حدث، دعاهُ صديقٌ للمجيء بالباصِ إلى المكلّا، في حضرموت (شرق اليمن، قرب عُمان)، لِقضاءِ أيّامٍ في منزلِهِ.

سافر فعلاً "على حسابِ" صديقهِ الكريمِ الأنيقِ المخلص، لكنه لم ينسَ ذكريات شهرين من شغل البناء المُضني (كان يصحو خلالها في الخامسة فجراً، ويعودُ منهكاً مُكسّراً كلّ ليلة)، ومن أحلام شراء الهديّة التاريخية لمعشوقته، انتهتْ جميعُها بِطعنَةٍ في الظهر!

ثمّ "رماهُ" صديقهُ الصدوق، ذات مساء، في عبّارةِ صيّادين يعرفُهم، ستصِلُ به نهار الغد إلى أرخبيل سُقطرى، قائلاً له:

- سُقطرى أفضل مكانٍ في العالَم لِنسيانِ كلِّ همومكَ السابقة، والمستقبليّة أيضاً. لِنسيانِ كلِّ أوجاع اليمَنْ، ما ظهر منها وما بطن!

رحلةُ جدّي (من المكلّا إلى سُقطرى، نحو 300 كلم) التي قادتْهُ لاحقاً إلى شراء "الحصن"، لم تكن عاديّةً إطلاقاً. لن أسردَ تفاصيلها (زهاء 40 صفحة في يوميّاته!).

سأختصِرُها في بضع فقراتٍ لا غير، وإن تستحقُّ روايةً كاملةً لِوحدِها، كما ستلاحظون.

يهمّني هنا، فقط، سردُ تاريخ وسِفْرِ تكوينِ "الحصن" الذي ستكون له أهميّةٌ خاصّة لاحقاً، بعد انتهاء رحلة XxxXx00F، وعودةِ فريقِ بيغاسوس (الكوكبِ الذي تدور حولهُ هذه الرواية) إلى الأرض!

وجدَ جَدّي نفسَه، في العاشرة مساءً، بين عشرة صيّادين تقريباً في

طريقهم من المكلّا إلى سقطرى!

كلماتٌ مرتبكةٌ عاجلة تسلّلتْ إلى مذكّراتِه، خطَّها بلا وعي (فيما يُشبِهُ "الكتابة الأوتوماتيكية")، عن بهجةِ الجوّ وجمالِ المكان. ثمّ، بِنجومِها المتلألئة، نقلتهُ السماءُ من أولى الدقائق، إلى عالَمٍ آخر.

اضطجعَ هائماً باتجاهِ النجوم. مخدّتهُ حقيبةُ ظهرِهِ السوداء. تطمّهُ سعادةٌ لا حدّ لها، لم يعرِفها من قبل.

ثمّ تذكّر أنه لم يُحدّث عائلتَه في عدَن بأنّهُ سيُغادر بيتَ صديقِه في المكلّا وسيقضي بضعة أيّامٍ في سُقطرى، خوفاً من معارضةِ أمّهِ وقلقِها من مخاطر الرحلات البحريّة، لا سيّما في هذا الموسم الصيفيّ المضطرب. لكنه سيتّصِل بها، بالتأكيد، حال وصولِهِ الأرخبيل.

ثمّ طفق يتذكّر حبيبتَهُ، ونام...

لاحظ، وهو نصف نائم، أن العَبّارة تتوقّفُ بين الحين والحين، ليلتحقَ بها نفرٌ أتوا إلى طريقِها بقوارِبهم. لكنه لم يدرك أن عدد الركّاب قد تجاوز الأربعين، إلّا عندما استيقظ في فجرٍ ساحر، على إشعاعِ شمسٍ ذهبيّةٍ تغسل القلب من كلِّ همومه.

"سنجدُ أنفسَنا واقفين كأعواد علبة كبريت، إذا ما استمرّ هذا الزحف على العَبّارة!"، قال لنفسِه.

هرجٌ ومرج. جوٌّ طفوليٌّ بريء، كما يُحبّ. ثمّة من يصطادُ لِتحضيرِ الفطور، وثمّة من يفتحُ عُلَب التونة ومسحوق الطماطم، أو يُحَضّر الشاي ويطبخُ "الصيّادِيَة" للجميع...

أغاني فرحٍ راقصة كأنّك في حفلة زواج، موسيقا طربٍ تصدحُ ملء البحر، في صباحٍ متوهّجِ الجمال، في رحلةٍ خرافيّة حقّاً!

"رحلةٌ خرافيّةٌ حقّاً، لولا أن جهاز العبّارة البدائي، لِتحديد الموقع والاتصالِ والاستغاثة، تعطّل في الليل.

حاول أكثرُ من واحدٍ إصلاحَه. عبثاً!

لا يعرف القبطانُ الشابّ بأي اتّجاهٍ عليه قيادةُ العبّارة نحو الأرخبيل. يتخبّطُ أمامَنا، كما تخبّطَ طوال الليل دون أن ألاحظ، بلا بوصلةٍ ولا تجارب قديمة تُهديهِ كبديلٍ للجهازِ الخارب.

كلُّ راكبٍ يُنظِّرُ ويُفتي على مزاجِه بمشروعِ اتجاه، بخارطةِ طريق. تتقدّمُ العبّارة من غير مؤشرٍ يدلُّ على الاقتراب من الأرخبيل، ثمّ يفتي ثانٍ وثالث وعاشر باتّجاهات أخرى معاكسة، بلا جدوى.

تحوّلتِ البهجةُ إلى قلقٍ عام عندما شعرنا أننا نتأرجحُ في بطاح بحرٍ هائج، ثمّ إلى هلع، بعد أن تأخّر الوصول إلى الأرخبيل يوماً كاملاً، دُرنا فيه كالعميان، بلا قبطان، في مركبٍ سكران، وبحرٍ بلا شطآن.

لم يعد هناك ما يكفي من الديزل، ولا الماء، ولا غاز الطباخة! لم نصلِ الأرخبيلَ صباحاً كما كان متوقّعاً، ولا ظهراً، ولا عصراً.

اقتربَ المساءُ وبدأ التجديفُ اليدويّ، وتثبيتُ الأشرعةِ على الطريقةِ الملاحيّةِ القديمة، بعد انتهاء آخر قطرة من الديزل، ومعها اندلاعُ خوفٍ جليٍّ من الموتِ أمسى يراودُ الجميع، وفي مقدمتهم القبطان الذي لم ينم ولا دقيقة!

خوفٌ أزرق يعربد في حركةِ وألوانِ أعينِ الجميع ورعشاتِهم، ووابلِ دعواتهم الدينيّة، وما يردِّدونه من آياتٍ قرآنيّة!" يكتبُ جدّي.

15

يوميّات التجديف في الفضاء

تعيش خولة، كما يبدو من اضطراب ملامحها أحياناً وغياب نظراتها غالباً، ما يشبهُ حالةَ إنكار لِكونِ ثقتِها مفرَطة بأن كلَّ موازين القوى بيدِها دوماً، في أيّ علاقةٍ عاطفيّة ممكنة، ولِكونِ قوانين جاذبيّتها ليست مطلَقَة: تختلف قوانينُ مفعولِها وتأثيرِها عندما تكون داخل مجال جاذبيّة الكرة الأرضيّة أو خارجه، من يدري؟!

نسيَتْ خولة أن منطق اندلاع الحبّ وسيرورته لا يرتبط كثيراً بثوابت فيزيائيّة، وبِصيغٍ رياضية بحتة: ثمّة متغيّراتٌ ومؤشراتٌ نفسيّةٌ لا واعيةٌ مجهولة، تدخلُ على الخطّ، لا تأخذُها الصيغُ والمعادلات الرياضيّة التقليديّة بعين الاعتبار، وثمّة من ليس لهم ميولٌ تَوَحُّدِيّةٌ غراميّة لِلجنسِ الآخر، وثمّة، وثمّة...

تلاحظ الكابتن مانيارا، بصمت، مراراتِ رفيقتها خولة. تستوعبها كثيراً لأنّها بدأت بالشعورِ، هي أيضاً، بالحاجَة الماسّة إلى الحبّ، إلى الرّجُل. ظمأُ الجسدِ الإنسانيّ للتوحُّد الغراميّ العاشق الحقيقيّ، إذا بلغَ حدّاً ما، يغدو، مثل العطشِ والجوعِ تماماً، عبئاً خانقاً، يصيبُ المرءَ بالقحطِ والخواء والجنون.

قلبي لا يتوقّف عن الخفقان على إيقاعِ أحاسيسِها، وإن تفصلُ بيننا مداراتٌ وسماوات. أتساءلُ دوماً: هل تفكِّر فيّ، ولو مثقال ذرّة، خارج أمور العمل؟ هل تتذكّر لقاءَنا الانفراديّ؟ هل تشتاق إليّ؟

لا تعرف مانيارا ما العمل إذا ما استفحلَت أوجاعُ رفيقتها وأثّرتْ في مسار الرحلة، لا سيّما أنها تُزمِع أن تقود دفّتَها قريباً، بعد استكمال مشاريع المحطّة الأولى المجاورةِ للأرض، إلى محطّةٍ فضائيةٍ في مدار القمر، كما قرّر الطاقمُ بالإجماع سابقاً.

يكتنفُ مانيارا حزنٌ جليٌّ في منحنيات دماغِها البيانيّة (أفكفِكُها

وأفصفِصها بتمّعنٍ طوال اليوم)، وخوفٌ واضح. لا أكفّ عن مراقبة حبيبتي المسكينة في مكتبي، وهي تعضُّ منتصفَ سبّابَتِها، على نحوٍ متواتر.

نشعر بالكربِ الشديد من حالة خولة، جميعُنا في الحقيقة، في لجنة الإشراف الأرضيّة على XxxXx00F، وأنا خاصّة، أتابعُ ذلك برعبٍ متصاعد.

نراقبُ الرسومات البيانيّة المقلِقة لحالات دماغها باهتمامٍ شديد (قياس تدفّق الدم إليه، نشاطه الكهربائي، الضغط داخل الجمجمة، وغيرها من المؤشرات التي تَضْعفُ بعد الحياة لأشهر، بعيداً عن الجاذبية الأرضية). نتمّعنُ في ملامحِ صورِ وجهِها كما يختارها كمبيوتر المركبة الجبّار، "وادي عَبْقَر"، ويُحلِّلُها بتدقيقٍ طويل، نتشاور نحن وإيّاه خوفاً من أن تُصاب باكتئابٍ حادّ، وتوتّرٍ يُنهي، بكلِّ بساطة، برنامجَ الرحلة.

تخوّفٌ وحسراتٌ تتراكمُ يوميّاً بعضها فوق بعض. تبوءُ رحلتُنا هكذا، كما يبدو أكثر فأكثر، جليّاً بالفشل. أسئلةُ إمكانيةِ التكاثرِ البشري، ومدى تحمّلِ الجنين لظروف التعرّض للأشعة الفضائية والحياة خارج الجاذبية الأرضية، لم تجد ما يشفي غليلها. ستظلّ مفتوحةً، بحاجةٍ إلى تجربةِ رحلةٍ فضائيّةٍ أخرى!

لم يتبقَّ لنا غير أن نقضم أظفارنا، في لجنة الإشراف، حتى عودة الطاقم المنحوس إلى الأرض.

لم يتجرأ جلال الدخولَ إلى غرفة خولة، بعد أن أغلَقَتْ بابَها بعصبيّة، خوفاً من رؤيتها في وضعٍ حزينٍ لا تحبُّ أن يراه أحد. لكنه ظلّ يعيش عذاباتها الصامتة، منذ أسابيع. يرى بإداراتِ عينيه أنها غير سعيدة. تعيشُ إحباطاً متصاعداً لم يخطر ببالِها البتّة، هي التي امتلكتْ دوماً قدرةً مطلَقةً على إسقاط أي قلب.

يلاحظ أكثر من أيِّ كان: تعيش جلالتُها اليوم شيئاً ما يُشبِه الهزيمة، تشعر أنها سقطت في فخٍّ غامض، وأنها تحيا فعلاً في زنزانة. بل هو متأكّدٌ

أنّها في طريقها لأن ترفض مواصلة الرحلة، تحت عذرٍ ما، للعودةِ إلى الأرض!

أمّا الشاعران فيشر وسباسكي فَهُما في فلكِهما يسبحان. كوكبان نادران يدور كلٌّ واحدٍ منهما حول الآخر. مشعشعان على الدوام، مجرّدُ رؤيتِهما، على الريق، لجلال، خولة، ومانيارا، يُفجّر فيهما السعادةَ والأمل. كلّ شيءٍ سعيدٌ بالنسبة إليهما، منذ الفطور والرياضةِ الصباحيّة المشتركة مع أحبِّ رفاقٍ ثلاثةٍ يمكن للقدَر أن يهبهما.

لا تلتقط كاميراتُهما وراداراتُ قلبيهما، إطلاقاً كما يبدو، الموجات الضوئية الحمراء التي تبعثها خولةُ لجذبِهما، أو لإثارة الحرب بينهما.

سقوط طروادة لن يكون على يدِ أحدِهما إطلاقاً!

ثمّ بعد ساعةِ الرياضةِ الصباحية الأولى، ينطلق كلّ واحدٍ من الخمسة نحو مهامِّهِ العامّة ومشاريعهِ الخاصّة.

تُوسِقُ الكابتن مانيارا عملَ الجميع. تبعثُ لِلجنَتِنا الإشرافيّة، في الأرض، تقارير تفصيليّة حول أحوال عيّنات المختبرات، وأخبار العصافير والنباتات والكائنات الحيّة فيها، حول يوميات الفريق، تجاربِه العلميّة، مشاريعِه القادمة... وتستلم بعض الملاحظات والتوجيهات أحياناً. وكثيراً من الأسئلة التفصيلية التي تجيبُ عنها بدقّة. وحالما تُنهي مهامّ عملِها تسأل: هل من مزيد؟

يتبادلون، خلال الاستراحات، أحاديثَهم عن كل مشروع. وعمّا يدورُ، في كوكبنا (صار يُهمّهم أكثر مما لو كانوا فيه!)، من أحداثٍ سياسيّة وخرائب بيئيّة...

يمزحون مع بعضهم بعضاً كثيراً، بمن فيهم خولة التي تخفي معاناتها قدر ما تستطيع. يمنحُهم ذلك بهجةً لا توصف أحياناً: للمزح مع ابن آدمٍ مثلك (أقصد: مع هوماسابيان مثلك)، على بُعدِ مئات الكيلومترات من كوكب الأرض، وقبل الابتعاد مئات آلافٍ أخرى عنه، ثم ملايين الكيلومترات لاحقاً، طعمُ ملائكيٌّ آخر. ضرورةٌ حياتيّة، منبعُ طاقاتٍ إيجابيّة، ومصدرُ

سعادةٍ سماويّةٍ كثيفة.

يرقصون كثيراً أيضاً! لهم مع الرقصِ علاقةٌ قديمةٌ في الصميم. يعشقونهُ ويعتبرونه ترياقهم الدائم، لا سيّما فيشر. يتبادلون قراءات الكتب والروايات. مُتعتُها هنا تتجاوز كلّ متعة، لأنّ كلَّ ما يدور فيها، كلَّ كلمة وصورةٍ واسْمٍ، كلّ أدنى تفصيل، يهبط بأدمغتهم إلى أديم الأرض، بعيداً عن صومعتهم الفضائية.

نقاشاتٌ طويلة أحياناً ينسون فيها أنهم يعيشون خارج الكوكب الأزرق!

يختلفون جميعاً، أحياناً كثيرة، في مواقف وآراء سياسيّة واجتماعية. يتخاصمون بين الحين والحين. تبدو خولة الأكثر عدوانيّة في نقاشاتها، لا سيّما مع سباسكي وفيشر. تجدُ نفسَها، عندما يتباينان في آرائهما السياسيّة، متطرّفةً في موقفها ضدّ هذا أو ذاك، يتشنّجُ وجهها أحياناً، قبل أن تعود الأمور جميعها إلى مجاريها ببطء، وإن تركَتْ آثاراً ما أحياناً.

تتبدّدُ خصوماتهم سريعاً، في كلِّ الأحوال: عندما تعرفُ أنّكَ أصغرُ وأقلُّ أهميّةً من إلكترونٍ ضائع، في معمعان فضاء الكونِ اللامتناهي الأطراف، تُخفِّفُ من تَخنْدُقِكَ وتشدّدِ قناعاتك ومبررات كبريائك.

تلجأ خولةُ للرسمِ بين الحين والآخر، لتبديدِ خيباتها. رسوماتٌ غامضةٌ غالباً، جميلةٌ أحياناً. تخاطب بها نفسَها. لا تبحث عن تسهيلِ استيعابِ اختياراتِها الفنيّة لأحد. يعرض عليها سباسكي وفيشر نشرَ بعضِها في موقعهما، لِتعريف العالَم بمواهبها. ترفض!

تحتفظ بالقليل فقط من رسوماتها. ترمي ما تبقّى، تحت وطأة الاكتئاب، في أقرب مركبةِ مؤنٍ فضائية تأتي إليهم لأخذِ المخلّفات والنُّفايات.

يقرأ جلال لرفاقِه، بين الحين والحين، قصيدةً جديدةً كتبها. لا يستوعبُ عوالمَه الشعريّة أحدٌ. يسخرون منه أحياناً بطريقةٍ وديّةٍ تمتعه. يسخرُ من نفسهِ، قبلهم، على الدوام.

لا يُقتّرون، مع ذلك، بالإعجاب إن سمعوا قصيدةً لا ذِكر فيها لِلسّحابِ إطلاقاً، أو صورةً شعريّةً جديدة "لا تخرجُ من جيبِها غيمة"، أو كلمةً فاتنةً يلجأ لها لأوّل مرّة، بكلِّ بساطة...

كلّ شيء، كما يبدو، على ما يرام، أقلّ أو أكثر، بعد أكثر من 5 أشهر من انطلاق الرحلة، وقبيل أسابيع قليلة من توجّهها إلى محطةٍ بعيدةٍ عن كوكب الأرض، في مدارٍ منخفضٍ حول القمر.

كلُّ شيء عدا عذابات خولة الداخلية، بطبيعة الحال، وسلسلةِ كوابيس ليليّة غريبةٍ بدأتْ تدهمُ جلال، وتُقلقُ رفيقَتَهُ التي تلتقفُها من غرفتها المجاورةِ لغرفتِه!

تُقلِقها كوابيسُه كثيراً، إلى درجةِ نسيانِ معاناتها الشخصيّة وأزمتِها الوجوديّة أحياناً!

16

كوابيس جلال

رحلةُ XxxXx00F تصلُ ذروةَ لحظاتها الصوفية عندما يبتلع مركبتَها الفضائيّةَ شدقُ ليلِ هذا الفضاء الكونيّ السحيق (الفضاء ليلاً ملحمةٌ شعريّة مقدّسةٌ غامضة، تُسكرُ الروح، تعصفُ وتدوّخُ به، من فرطِ هولِ جمالِها)!

تبدو بيغاسوس حينها نقطةً ميكروسكوبيّةً تغرق في ظلماتٍ فوقها فوق بعض. تحيطُ بها، من الأعلى والأسفل، وهي تعبرُ فضاءً بلا أطراف، قطائفَ نجومٍ وسُدُمٍ وكواكب تدور في اتجاهاتٍ شتّى. تتغيّرُ مواضعُها سريعاً، تتلألأ وتتغامز بأعدادٍ تتجاوز بما لا حدَّ له ما نراه على الأرض. حممٌ تتفرقع وتضيء كألعابٍ ناريّة ضخمةٍ هنا وهناك. تتخلّلها صخورٌ عملاقة، كويكبات، مذنّبات...

تحيط بكل ذلك أيضاً، من كل الاتجاهات، مجرّاتٌ متناثرة بلا عدّ، ترسم أشكالاً غريبةً على لوحةٍ بديعةٍ ناصعةِ السواد. دون الحديثِ عمّا هو أرهب من كلِّ ذلك بكثير، وما لا يمكن رؤيتهُ من "ثقوبٍ سوداء"، و"موادَّ مظلمة"...

رؤيةُ جمالِ كوكب الأرض من الأعالي ليلاً، وهو يضيء ناصعاً سعيداً، لحظةٌ لا تحظى بالاحتفالِ بها إلّا الآلهةُ فقط. يستوعبُ المرءُ لماذا تقضي جلالتُها حياتِها وحيدةً تكتبُ الشّعر، وهي تراقبُ هذا المشهد الذي يراه طاقمُ المركبةِ بين الآن والآخر، كلّ ساعةٍ تقريباً!

ما لا يستوعبهُ إلّا من وجد نفْسَه في مركبةٍ تمخر عبابَ الفضاء: خُلِقتِ الأرض لِتُشَاهدَ من الأعالي، في ظلماتِ ليلٍ قدسيٍّ مدلهِمٍّ بهيم.

صعوبةُ التصوير في ظلمات الليلِ الكونيّ العميق، وفي مركبةٍ تسير بسرعة البرق، تجعل سباسكي وفيشر يُمضِيان ساعاتٍ، كلَّ ليلة، بحثاً عن قطائف متوهّجَةٍ متلألئةٍ من الأجرام السماوية، يقبضان عليها بعدستيهما لِسعادة مئات

الملايين من سكان كوكبهما الحبيب.

القمرُ مرعبُ الجَمال، عندما تراهُ في ليل المراكبِ الفضائية. علاقتهُ الغرامية بكوكبِ الأرض، عشقُهما الأزليّ الأبديّ، وإيقاعُ التجاذبِ بينهما الذي تعكسه ظواهر المدِّ والجزر، وحركة الأمواج، يثير دوخات شلّةِ فريق المركبة كل يوم، لا سيّما أخت القمر: خولة.

يلتقطاهما سباسكي وفيشر بهيئاتٍ متجدّدةٍ فريدة. يخلّدانهما كل يوم بِصورٍ متنوّعةِ الأشكال والأحجام والألوان، يستوعبان لغتَهما واندماجَهما الغراميّ.

يأسرُ الجميعَ منظرُهما سعيدَين، في مناجاةٍ دائمة، في زاويةٍ منعزلةٍ من الكون، بعيداً عن حشد المجموعة الشمسية ولانهاياتِ أفياءِ درب اللبّانة. لا يمرّ يومٌ أرضيٌّ واحد دون الاندماج بهذا المشهد ألف مرّة.

ما يدخلُ على خطِّ صورِهما أحياناً هو اقتراب وصول مركبةِ المؤن وأخذِ النفايات، مرةً كلّ أسبوعٍ تقريباً. مَشهدٌ مثيرٌ مدهش. أضواؤها المغروسة على هيكلها الأنيق، وعلى ألواحها الضوئية، تبدو من بعيد، وهي تتلألأُ وتشقُّ الظلمات باتّجاهِ بيغاسوس.

تحفةٌ إلكترونيّة صغيرة ينتظرُها الطاقمُ بسعادة، كما تنتظر العاشقةُ ساعيَ البريد الذي يحمل لها رسالةً من معشوقٍ كتبَها في خندقِ جبهةٍ عسكريّة.

تسمعُ بكلِّ اللغات، ما يُشبهُ: "يا هلا!"، "أهلاً وسهلاً!"، "طلعَ البدرُ علينا"، "حيّا بُهْ، حيّا بُهْ!"...

تقترب، بسرعتها الخارقة، من سفينتنا العملاقة التي تدور بسرعةٍ خارقةٍ شبيهة. يلتحمُ الكائنان الإلكترونيان، التحامَ جبابرةٍ الكترونية تحت سماءٍ مفتوحة. تندمجُ أياديهما الروبوتية وتتشابك: بَتْلَتَانِ فولاذيّتان متشابهتان مهيبتان (مكوّنتان من ثقوبٍ ونتوءات) تخرجان من جانبيهما معاً، تدخلان بتزاوجٍ والتحامٍ خنثويٍّ اندماجيّ.

أموتُ ولعاً برؤيةِ احتضانِ الصواريخ لسفنِ الفضاء، بالتحامِ هذه السفنِ

بمركبات المؤن. أتذكّرُ، بلا وعي، معشوقَتي البعيدة. يا لَشوقي! كم أحتاج إلى احتضانِها، أنا أيضاً!

ثمّ يتمّ آليّاً دخولُ المؤنِ إلى مركبتنا، وخروجُ الفَضلات منها، قبل أن ينفكَّ الارتباط، وتُطلِقَ مركبةُ المؤنِ العنانَ لِمرساتِها، لِتواصلَ مسيرتَها نحو سفينةٍ فضائية أخرى، بعد أن ترمي بالمخلّفات الإنسانية والزبالات في الفضاء السحيق، كما لو كانَ، والعياذُ بالله، سلّةَ مهملات (قبل أن يتحوّلَ إلى شُهبٍ يتمتّعُ أهلُ الأرض بمشاهدتها!).

أتذكّرُ عندما استنكر أحدُ زملائي ذلك، جاءه الردّ الغاضب من مسؤولِه الذي تجهّمَ، اكفهَرّ وجهُه واحمرّت عيناه: "أتريدنا أن نعودَ بالبول والبراز إلى الأرض، من على بُعدِ مئاتٍ أو آلاف أو ملايين الكيلومترات؟!".

في حمولةِ المركبة، هذه المرّة، أشياءُ جميلة: هدايا صغيرة لِخولة، من أصدقاء لها في سفنٍ فضائية مجاورة، ومن لجنتِنا الإشرافية في الأرخبيل، ومن أهلِها وأقربائها بالتأكيد، بمناسبة عيد ميلادها الثلاثين، ووجبةٌ خاصّة عامرة، بعثناها من المركزِ الفضائي، فيها كلّ ما تعشق خولة، لا سيّما جبن الكامامبير، كبد البطّ المُسمّن، حلوى بالشوكولاتة والليمون هندَسها طبّاخٌ ماهرٌ خاص...

تحتفظ الكابتن مانيارا بالهدايا مؤقّتاً. وصلَتْ في موعدِها، لأن بيغاسوس ستغادر محطّتَها الأولى في الغد، بعد أن يصل لاحتضانِها صاروخٌ عملاق، كذلك الذي حملها وغادرت به الأرض. في برنامجِها: عدّةُ ساعاتٍ طوال من العبور المتواصل، بسرعةٍ تتجاوز الـ40 ألف كيلومتر بالساعة، على صراطٍ مستقيم طوله نحو 400 ألف كيلومتر!

ستكون بعده قد وصلتْ مدارَها حول القمر، انفكّت من الصاروخ، وألقَتْ رحالَها في محطّةٍ فضائية سياحيّة أرستقراطية قريبةٍ منه، تليق بالاحتفال بعيد ميلاد خولة، أمامَ معبودها الأبديّ: القمر.

بعكس البقية، لا تنتظر خولة عيدَ ميلادها بأيّ لهفة. لم نتصوّر أنه سيأتي

وهي من دون من يملأ فراغَ حياتها الطويل، وجسدَها الظامئ. غير أن قلقَها انحرفَ عن موضعهِ قليلاً، وهي تلاحظ أن بعض ليالي جلال مضطربةً جداً أحياناً!

ظلّ هذان الاثنان دوماً سنداً لبعضيهما، يُصغي كل واحدٍ لهموم الآخر.

بدأتْ اضطرابات ليالي جلال ذات ليلةٍ في الأسابيع الأخيرة من الإقامة في المحطة الأولى القريبة من الأرض. لاحظت خولة أن جارها، في الغرفة اليمنى، يتلوّى ويتحشرج كمن دهمهُ كابوسٌ أثناء النوم.

قلقَتْ، لم تتحرّك، ولم تستفسرْهُ في الصباح عن سبب ذلك. ثمّ، بُعيد ليالٍ قليلة، لاحظتْ أنه يتخبّطُ في كابوسٍ آخر، مرّة ثانية.

قلقتْ هذه المرة بشدّة لأجله، هي الغارقة في دوّامة قلقِها النفسيّ الخاص وخيباتها. فتحتِ البوابةَ الصغيرة التي تفصل بين غرفتيهما، لِتراهُ نائماً يتصبّبُ عرقاً. أخذتْ منديلاً لتجفيفِ وجهِه، مسّدتْ على جبينِه الملائكي الخالي من أي تجاعيد أو خلل. احتضنتْهُ، نصفَ ثانيةٍ، كطفل. لم ينتبِه، كما يبدو، أنها قربه، وواصل نومَه، بعد ذلك، بهدوء.

تعود بصمتٍ لغرفتِها، بعد دقائق مؤثِّرة، دائخةً مرتبكةً في الصميم.

لم تتصوّر يوماً أنها ستحتضنُ جلال، وبهذه الحميمية. جلال، بالنسبة إليها، نصفُ إله. يكفيها النظرُ إليه من بعيد. تراهُ دوماً كما لو كان تمثالاً ناطقاً للإله الإغريقي أبولو.

تُكنّ خولة لهُ، في الحقيقة، ما هو أكثر من الحبّ: التقديس. تعيش مراراته أكثر من أيّ كان، تراهُ كما لو كان ضحيّةَ غيرةِ آلهةٍ إغريقيّةٍ انتزعتْ منه رنيم.

يتكرّرُ الكابوس بعد أقلّ من أسبوع، تفزعُ خولة من جديد وهي تسمع حشرجة جلال. تُعاود الدخولَ الخاشع إلى غرفتِه، تمسّد على جبينه، تحتضنهُ... تشعرُ بسعادةٍ ما وهي تعيد له الهدوءَ من جديد، تجدُ بهجةً ولذّةً

في تطويلِ زمن احتضانه، في استنشاقه والتدثّر بِدِفئه، كما لو كانت هي الأكثر حاجةً منه إلى ذلك.

يُسعِد هذه الشابّة، التي أخفقتْ أمومتَها، بل يبهجها جدّاً أن ترى جلالاً طفلاً يتلاشى اضطرابُه في حضنِها، وإن كان أكبرَ منها بسبع سنوات. ثمّ يغرق مجدّداً في عمقِ نومٍ ملائكيٍّ ناعمٍ سعيد.

تحملقُ بِهِ وقتاً أطول. طفلٌ في العمق. إلهٌ نقيٌّ تكاد تعبُده. تمرُّ بذاكرتها أيّامُه مع معشوقته الأبديّة رنيم. ما زال اختيارُ القدرِ لها أضحيةً أكبرَ لغزٍ كونيٍّ لن تستوعب خولةُ يوماً أسرارَه. أتعس جريمةٍ ترتكبها الآلهةُ بحقِّ إنسان.

تُحدِّقُ به، وهي تلاحظ أنه نام بِعُمقٍ، من جديد.

بعد أيّامٍ قليلة أخرى، يتكرّرُ الكابوس لِثالث أو رابع مرّة. تزداد حشرجةُ جلال. تعاود خولة دورَها بمزيدٍ من الثقة. تقضي وقتاً أطول تحدّقُ بهذا الجار الذي تجدُ في احتضانهِ سعادةً حقيقية. تحبُّ رائحتَهُ ودفءَ جسدِه. تستحضرُ تاريخَ متاهات مشاعرِها تجاهه: طالما أكنّتْ له، فعلاً، حبّاً تأليهيّاً خاصّاً جداً، غامضاً جداً.

يعودُ لها طيفُ رنيم، وكأنّ كلَّ مسٍّ لبشرةِ جلال خيانةٌ لها، إن لم يكن... وفاءً لها؟!

ترتبكُ، لا تدري ما تفعل! تتذكّرُ بِلَوعةٍ وحُرقَةٍ من كانت تُناديها بِـ"قمر حياتي" (كون جلال شمسَ حياتِها). تحبُّها كما لم تحبّ قريبةً لها أو صديقةً أخرى.

ثمّ تتجرأ سؤالَه ذات صباح، بعد تواتر هذه الكوابيس:

- لعلكَ عشتَ كابوساً هذه الليلة؟!

- نعم، كابوسٌ تكرّر أكثر من مرّة، كما أظن. ألم أقل إنّ الأحلامَ تظلّ، خارج الجاذبية الأرضية، عالقةً في فضاء اللّاوعي، لا تتزحزح. لا يشفطُها

الثقبُ الأسود: النسيان، كما يفعل بالأحلامِ في ديار الجاذبية الأرضية؟!

- عجيبٌ جداً: يتكرّرُ هو نفسه تماماً؟

- نعم هو نفسه، بالتفاصيل الصغيرة نفسِها! لا أجد تفسيراً لهذه الظاهرة، غير ما قلتُ الآن!

- هل هو حلمُ صعودِ جبل أوليمبوس الذي حكيتَه سابقاً؟

- نعم! غير أن التي كانت تنتظرني في الجهة المقابلة من قمّة قُبَّةِ الجبل، وأنا أرى ظهرَها حال الوصول إلى القمّة في ذلك الحلم الأوّل، لم تعد جالسةً على حَجرتِها كالعادة!

- أين اختفتْ رنيم؟

- لا أعرف، لم أجدها. أبحثُ عنها دوماً، بعد الوصول إلى رأس القبَّة، لكن...

- لكن ماذا؟

- ...

17

لَغمانِ، في الطريق نحو القمر

الانطلاقُ نحو المحطة الثانية من الرحلة، باتجاه مدارٍ قريب من القمر، أعادَ للفريق، ولنا في لجنة الإشراف والمتابعة، مشاعرَ حماسةِ أوّل أيام الرحلة ورعشاتها، عندما كنّا خلايا نحل، في الأرض وفي السماء، نرصد ونراقب مؤشرات أجهزة وأجزاء المركبة، الوضعَ النفسيّ للطاقم...

مانيارا، من مكتب القيادة، بجانب كبسولةِ الإقلاع في الدور الثاني، في تواصلٍ مستمرّ معنا. تبعث لنا تقارير متوالية دائمة.

خولة، بين الورود والزهور والعصافير، تهتمّ بمختبرات الدور الأعلى في غياب مانيارا، تلتقط بكاميرتها بعض الصور لبدايات هذه الرحلة الجديدة نحو معبودِها: القمر. الخطوطُ البيانيّة لما يدور في دماغها أفضلُ بكثيرٍ من قبل، وإن ليست مطمِّنة: ما يرتبطُ فيها باللاوعي، وما لا نستطيعُ تفسيرَه، أكبرُ حجماً وغموضاً من العادة. تحتدمُ فيها مشاعرِ مرتبِكةٌ مضطرِبة. نرمق في محياها بدايات اكتئابٍ جديدٍ أحياناً، وإن تُحاولُ قدر المستطاعِ تغليفَه وإخفاءَه.

سباسكي وفيشر، بكاميراتهما، مذهولان من المناظر الجديدة التي تواجههما والمركبة تغادر مدار الأرض، ثم تبتعد عنها بسرعةٍ مذهلة. تختفي أضواءُ المدن عنها بلا رجعة، تتكوّرُ الأرض أمامهما أكثر فأكثر، لتبدو أخيراً كرةً كاملةً هائلة، ثمّ أصغر فأصغر...

المشاعر التي سادت الجميع حينها لا تُنسى. انعدامُ الجاذبيّة الأرضية، داخل المركبة، أضحى كليّاً الآن! الجميعُ ريشٌ في مهبِّ الفراغ. في ملكوت الخواء. منظرُ "الإطلالة الشاملة" لِكوكبنا الحبيب يعصف بالروح عندما يراهُ المرء، أمامه، "فَتَرِيّةً"(12) زرقاء وبيضاء صغيرةً، تخرجُ من شدق الظلام، لِتضيءَ الكون. يستحيل فعلاً ألّا تنهمر دموعُ أيّ كان، عند رؤية "إشراقة كرةِ الأرض" لأوّلِ مرة!

(12) كرة زجاجيّة ملوّنة، مثل خَرَزَة، يلعب بها الأطفال.

في الطريقِ مناظرُ جديدة يلتقطُها فيشر وسباسكي، لإثراء موقعهما، ولبدايةِ ألبومٍ مُجَلّدٍ ورَقِيّ جديد. أمامهم جميعاً فضاءٌ لا نهائيٌّ متجدِّد، أبديّةٌ بلا حدود. كويكباتٌ، جلاميدُ، وصخورٌ صغيرةٌ تتطايرُ في كلّ مكان. غازاتٌ مضطربة، دوّامةُ غبارٍ كونيّ، حُممٌ مرعبةٌ في غاية الجمال، كونٌ هائلٌ تتناثر فيه المجرّات، تتداخل وتتصادم... كواكبُ ونجومٌ ومجموعاتٌ شمسيّة، مثلُها مثلُ الإنسان: تولدُ، تعيشُ، تشيخُ، وتموت.

يبدو لهما، بجلاءٍ خالص، الكوكبُ الأحمر: المريخ، كوكبُ المشتري بحجمِه المرموق، وزُحَلُ بحلقاته المهيبة وقمرِه تيتان ذي الغلاف الجويّ برتقاليِّ اللون...

كلُّ شيء يدور حول كلِّ شيء، حركةٌ جنونيّة في كلِّ مكان بسرعات خيالية. قانون الجاذبية (نسغ الزمكان) يحكُمُ الكون، ولا ريب.

"رحمَ الله إسحاق نيوتن، وألبرت أينشتاين!"، كما كان يقول أستاذ الفيزياء في الجامعة.

وجلال؟ ماذا يعمل جلال؟

لا تفوتهُ هذه المناظر بالتأكيد، لكنه منهمكٌ بشيءٍ آخر، أهمّ بكثير! يُعِدّ هديةَ عيد ميلاد خولة. يُعدُّ لها فيديو سيعنْونِهُ: "ذي بيست أوف The best of خولة"، يستعرِضُ فيه شذراتٍ منتقاةً بعناية من يوميّاتها في المركبة، منذ إقلاعِها.

اختارَ فيه مقاطعَ لها من أحلى فيديوهات أرشيف كاميرتِه، انتقى أجملَ ضحكاتِها السعيدة، أروعَ حواراتِها مع رفاقها في المركبة (ألاحظُ من مكتبي في الأرخبيل: لولاها ومانيارا، ملكة العصافير، لكانت بيغاسوس مأتماً دائماً، مقبرةً، إن لم تكن عرين حربٍ ضروس بين ذكورٍ معاتيه!).

دمجَ صورَها وهي تطير داخل المركبة، وهي تقرأ، تُصوِّر، تمارسُ الرياضة،

تواجهُ القمر، تشتغلُ في المختبرات وعلى الكمبيوتر، تُعِدُّ القهوةَ بطريقتِها التي يُحبّها الجميع، تتدلقُ نحو بابِ غرفتِها الأرضيّ، تُناقش (ركّزَ على صورِ نظراتها الغرامية اللاواعية لِسباسكي وفيشر، لِيتركَها ترى وتواجهُ نفسَها بنفسِها، على نحوٍ كاشفٍ مباشر، وتستوعبُ وتُحلّلُ ما لا تراه طوال اليوم).

ثمّ دسّ عمداً وبذكاء، ضمن الفيديو، لحظتَين خطِرتَين، لم ينتبه لهما أحدٌ من الخمسة عداه، اختارهما بعناية فائقة، توقّفَ عندهما طويلاً صورةً صورة، بِكْسِلاً بِكْسِلاً!

تبدو فيهما نظراتٌ تعبيريّةٌ لاواعية، تبادلاها سباسكي وفيشر، في لحظات صخبٍ ونقاشٍ جماعيّ. تفقأ العينَ فيهما رقّةُ حديثِهما لبعضهما بعضاً، لَمَسَاتُهما، لمعةُ عينيهما...

في نظرةٍ أو لمسةٍ صغيرة، تدومُ عُشرَ عشرِ الثانية، يمكن أحياناً أن تتكثّفَ كلُّ أسرارِ النفس البشريّة، أن ينطويَ الوجودُ بأسرِه!

أملُ جلال في ذلك أن يُنيرَ خولة، أن يجعلها تتجاوزُ حالةَ الإنكار التي تعيشها بلا وعي، منذ أشهر: حُبُّها لهما من طرفٍ واحد! وحبُّهما لبعضهما البعض كلّيٌّ، نادرٌ عجيب. هما معاً في عالم، وهي لوَحدِها في عالم!

كلّما تقدّمتْ بيغاسوس، صَغُرَ حجمُ الكرة الأرضية، وكبُرَ حجمُ القمر الذي بدأتْ شلّةُ الفريقِ تراهُ شاسعاً، كما كانت ترى الأرضَ من المحطة الفضائية الأولى، تنظرُ نحوهُ بما يشبه التقديسَ الدينيّ، لا سيّما خولة التي نستْ قربه معظمَ الأوجاع!

نتأمّل مانيارا القمرَ عن قرب، وأنا معها عن بُعد. أتساءلُ (ولعلّها مثلي، أو لعلّي مثلها):

من لا تربطه علاقةٌ ميتافيزيقية بهذا القمر الذي دغدغَ بياضُه الفضيُّ الناعمُ هوموسابيان، منذ بدايات وعيه؟

اعتبرَهُ إلهاً في بعض الحضارات القديمة، وضَعَهُ بمصاف الشمس في

أخرى. صنع له الهياكل والمعابد. سكرَ معه. سحرَهُ منظرُهُ وهو يتلألأ ويرقصُ على الماء...

جعلَهُ، والنجومَ، ربّانَ سُفنِهِ وقوافِله، وقائدَ اتجاه رحلاته وأسفارِه. اعتبرَهُ أداةَ استيعابِ الزمن ورصدِه. بهِ يُحَدِّدُ أشهُرَ سنواته، وإليهِ يُعيد أسباب اضطرابات لياليهِ وسهرِهِ وقلقِه ومسرّاتِه... ارتجفَ دوماً خوفاً عند خسوفِه، كما لو كان ذلك علامةً على غضبِ الآلهة ونهايةِ العالم (فيما صار اليوم، بعد انتصار العِلمِ على الجهل، يأخذُ سيلفي مع الخسوف، بهواتفِه الجوّالة السعيدة).

أرهفَهُ سناؤه، كتبَ الشّعر دوماً في مدحِه، ناجاهُ وهامسهُ بكلّ أوجاعهِ وأحزانه. اعتبرهُ رمزَ العاشقِ الجميلِ الساهرِ المشتاق. (أتذكَّرُ أغنيّةً سمعتُها من جدّي في يوميّاته: "يامّه القمر سهران / مسكين بقى له زمان / باين عليه عطشان...").

من يستطيعُ تصوّرَ حياةِ كوكبِنا دون وصيفتِهِ، الأميرة التي تُموسِقُ حركةَ الأمواج والمدّ والجزر، تُضيءُ ليل العشّاق، وتفتحُ اليوم بابَ الأسفارِ الفضائية نحو المريخ والعوالم البعيدة، بِفضلِ مطاراتها العديدة. يسْهُل، بسبب ضعف قوّة جاذبيّتِها الأرضيّة، انطلاقُ الصواريخ منها، بكمّياتٍ ضئيلةٍ من الوقود، للتقشّفِ الماليّ أساساً (أو، كما يقولون، رياءً وزوراً، لتغليفِ ذلك بالنوايا الحسنة: "للحفاظِ على البيئة!")؟

ما إن برَكتْ مركبتُنا في محطّتها الفضائية وصرنا "نحن والقمر جيران"، حتّى هرعَ الجميعُ لِتوجيهِ كاميراتهم نحو أفياءِ القمر، على إيقاع أغنية "يامّه القمر ع الباب!"، باستثناء جلال المنهمك بِوضع الرتوشِ القاتلةِ الأخيرة للفيديو.

خيبةٌ في ملامح مانيارا: بدا القمرُ لها، وإن كانت تعرف ذلك طبعاً من الكتب والمحاضرات، عكسَ صورتِهِ الملساء الناصعة البياض، التي اعتدنا رؤيتَها من الأرض: أديمٌ رماديٌّ موشّحٌ بالسواد، مضروبٌ في كلِّ أرجائِه تقريباً بالنيازك. تنتشرُ فيه البراكين. ثقوبٌ أرضيّةٌ تتشابه، تملأ كلَّ أديمِه

البازلتيّ الداكن الذي لا يختلفُ كثيراً عن قاع المحيطات في أُمِّهِ كوكبِ الأرض.

أخاديدُ، ندوبٌ، صخورٌ.. القمرُ كوكبٌ وعِرٌ أعجفُ عقيم، لا غير..
"سيكون صعباً غمرُهُ بالغابات!" تهامسُ مانيارا نفسَها وهي تمسّدُ دوائرَ شعرِها الخلفيّة، وقلبي يهتزُّ ويرتجُّ أمام الشاشة عند رؤيتها، بفانيلتها البيضاء، طليقةَ الكتفين والصدر.

يُحبّونه جميعاً، مع كلِّ ذلك. هو ابن الأرض، انسلخَتْ منها أجزاؤه. دراستهُ دراسةٌ لماضيها السحيق، واجبٌ حضاريٌّ إنسانيّ، دَيْنٌ لِوطننا الصغير: الأرض، والكبير: مجرّة درب اللبّانة.

الطريقُ إليه أوّلُ خطوةٍ، في طريق المليارِ كيلومتر، نحو أقصى بطاح مجرّتنا الحبيبة، وبقيّة مجرّات الكون. نحو عوالِمِ الخيالِ العلميّ وملكوتِ السحرِ الأعلى.

يُنهي جلال إخراجَ الفيديو، يُشاهدهُ أكثر من مرّة، لا يدرك كيف ستستقبلهُ خولة، وأي أثرٍ سيترك. يعرف أن صورَها المنتقاةَ فيه، في غاية الجمال، ستُسعِدُها كثيراً. لكنه يتساءل: هل لحظَتا الفيديو المدسوسَتان فيه كافيتان لِجعلِها تواجِهُ نفسَها بشجاعة، ولإخراجها من مأزقِ حياتها؟

هل ستَدُكّانِ، كلَغَمَين، سياج هذا الإنكار الأعمى الذي يمنعُها من استيعاب واقع علاقتِها بسباسكي وفيشر، ومعادلاتها غير القابلة للحلّ؟

يَشعرُ جلال بقلقٍ ما من مفاجآتٍ لا يتوقّعها، ويتساءل إن كان قادراً فعلاً على بعثِ الفيديو لها بالإيميل، في الثانية عشرة مساءً بتوقيت الأرخبيل، هديّةً منه بِعيد ميلادها.

يجدُ سباسكي وفيشر فجّاً عميقاً على سطح القمر يلتقطانه من أكثر من نافذة. ثم يجدان زاويةً رهيبة، وهما في "الفقاعة"، يأخذان منها صوراً تاريخية تجمع القمر بالأرض: يبدو كوكبُنا واقفاً في شمال غرب كوكب القمر الهائل، يتأمّله من بعيد!

كوكبُنا في الصورة، بحجم برتقالةٍ صغيرة، في منتهى الجمال، يختال فيها اللونُ الأزرق الذي تتخلّله ألوان بيضاء وخضراء وحمراء.

أما القمر فيبدو الوجهُ الخفيّ منه، الذي لا نراه من الأرض، مثلما يبدو الوجهُ الذي نراه: ملطّخاً بِبُقعٍ داكنة، قديماً ظنّ الناس أنها بِحارٌ، وأطلقوا عليها أسماءً بَحْرِيّةً شاعريّة، منها "بحر الطمأنينة"! (تلفيقٌ بلاغيٌّ آخر، على غرار "اليمن السعيد").

صورةٌ فريدةٌ ستدهش جماهيرَ المتابعين لموقعهما، وستتناقلها الصّحفُ أيضاً. يتعانق سباسكي وفيشر من فرط سعادتهما بالتقاطها، أمام نظرات استمراءِ بقيّة الشلّة واستغرابِهم أيضاً، لا سيّما مانيارا!

يبدو الكوكبان في الصورة، هما أيضاً، عاشِقَين وحيدَين في مناجاةٍ غراميّة، أقربَ لبعضهما من حبل الوريد!

18

هدايا عيد الميلاد

قبيلَ الثانية عشرة مساءً بِسُويعات، بدأتْ رسائلُ تهاني عيد ميلاد خولة الثلاثين تتوالى من بطاحٍ شتّى في كوكب الأرض، حسب مواعيد منتصفِ الليل هنا أو هناك. تردُّ عليها خولةُ شاكرةً أوّلاً بأوّل، حتّى لا تتراكَمَ الدّيون.

ثمّ قبيل الثانية عشرة بدقيقتين ("قبل الزحمة" على حدِّ تعبير مانيارا)، تصلها تهنئة الكابتن، مملوءةً بالمحبّة الحقيقية والرقّة. "إعجابٌ كلّيّ بأروع وأجملِ أخت!" كما قالت. سعادةٌ خالصةٌ بالعيش معها "سنتين من أروع وأخصب سنين العمر" كما أضافت، وإن لم يعد فيهما ما يجذبُ خولة كثيراً.

حدثتْ لخبطةٌ جوهريّة في حياتها لم تتوقّعها من قريبٍ أو بعيد، أوقعتْها في مضيقٍ لا مخرجَ منه، وصارت متأكّدةً أنها لن تطيقَ تَحَمُّلَ كلِّ ما تبقّى من زمن الرحلة.

في الثانية عشرة مساء، يضع سباسكي وفيشر صورةً لِخولة على موقعهما، وهي تطير كالفراشة في صالة استراحة بيغاسوس، مع "عيد ميلادٍ سعيد لِمليكتِنا خولة، نحتفلُ به اليوم، على بُعد نحو 400 ألف كيلومتر من الأرض!".

يرسلان لها رابط الصورة والتهنئة التي بدأتْ تعليقاتُ جماهير المتابعين تتوالى عليها، أكداساً مكدَّسة، من كلِّ أنحاء الأرض والسفنِ الفضائيّة، بكلماتٍ رقيقةٍ وإعجابٍ حقيقيّ.

لم تصلْ أيُّ تهنئةٍ من جارِها جلال! الثانية عشرة ودقيقة، دقيقتان، ثلاث، خمس، سبع دقائق. تقلقُ خولةُ جداً، لا تعرف لماذا. تراودُها رعشاتٌ صغيرة أحياناً، ومشاعرُ مرتبكة غامضة. قلقٌ لا يخلو من لذّةٍ آسرة!

ثمّ بعد أكثر من تسع دقائق من ذلك، وصلَها، من جارِها، إيميل بعنوان: "ذي بيست أوف خولة" يحمل فيديو مُدّتُهُ ثلاث دقائق، وكلمتَي تهنئةٍ

مرتبِكةٍ حميمة.

لم تتأخّر خولةُ عن فتح الفيديو لمشاهدتِه. مرّة، مرّتين، ثلاثاً... جُهدٌ في الإخراجِ والانتقاء مثابرٌ طويل.

أسعدَها جدّاً هذا التصميمُ المهنيُّ العاشق، هذه الاختيارات التي لا يمكن أن يدمجَها، بأصابع روحه، إلّا فنانٌ ماهر. تبدو في كلِّ ذلك إلهيّةً بكلِّ ما في الكلمة من معنى.

ثم ركّزتْ على اللَّغَمَين المدسوسَين قرب نهاية الفيديو، بين لحظات حواراتٍ وجدَلٍ بينها وبجموع رفاقها. أعادتْ رؤيتَهما عدّة مرات، بأعين ثاقبةٍ بدأتْ تغشاها، رويداً رويداً، بعضُ دموع.

ألاحظُ: الدموع تُحرقُ العينين، بعيداً عن الجاذبيّة الأرضية، لأنّها لا تسيلُ منهما. يُمنعُ مبدئياً البكاءُ في المركبات الفضائيّة، إلا إذا غادرتِ الدموعُ العينين بكميات كبيرة، ويمكن دفعُها بأطراف الأصابع، لتتعلّقَ مثل كراتٍ في الهواء، أمام الوجه!

شعرَتْ أنها ستنفجرُ بكاءً قد يزعجُ جارَيْها، جلال ومانيارا، وهما في غرفتَيهما، نائمَين أو على وشك النوم.

تريد أن تصرخَ!

انسحبتْ بهدوءٍ تحملُ كمبيوترها، فتحتْ بوّابةَ غرفتها، اندلقتْ منها وطارت باتجاه مختبراتِ الدور الثالث.

لعلّ جلال شعرَ بمغادرَتِها الغرفة. ها هو يعضّ شفتَهُ السفلى في غرفتِه، يرتجف، يخشى حدثاً تراجيديّاً يُدمِّر يوم الفرح بِعِيد الميلاد!

أعادت خولة، في المختبر، النظرَ في اللحظتين المدسوستين فقط، لتُدركَ فعلاً أنها كانت تعيش أشهراً من الإنكار والوَهم!

انفجرتْ بكاءً. أراقبُ، من مكتبي، وجهَها على الشاشة الخاصّة، المرتبطةِ بما يدور في مختبرات المركبة. وجهُها يملأ معظم الشاشة. تعيدُ رؤيةَ مقطَعي

اللحظتين لِوحدَيهما فقط، عدّة مرات.

تُوقِّفُ الفيديو عند صورةٍ لرفيقَيها، في طرف اللحظةِ الأولى. وتوقِفُهُ مرةً أخرى في صورةٍ أخرى لهما وسط مقطع اللحظة الثانية.

تنسخُ الصورتين في ملّفَين منفصِلَينِ عن الفيديو. تتمّعَنُ بالصورتين جلياً، وقتاً طويلاً. تستعيدهما مرّات ومرّات!

تحاولُ بصعوبة ألّا يسمع نشيجَ بكائها أحدٌ. عيناها جاحظتان حزينتان، غارقتان بدموعٍ تحاول تجفيفَها على الدوام، ولعقَها سريعاً، خوفاً من أن تظلّ مُعلَّقةً في هواءِ المركبةِ المعقّم، أو أن تفسدَهُ بأي مكروباتٍ أو جسيماتٍ بيولوجيةٍ ميكروسكوبية.

جلال، في غرفتِهِ، يقرأ آية الكرسي.

ألاحظُ وأنا أراقب هذه اللحظات التراجيديّة الانقلابيّة الكاشفة: الحقائقُ والأسرار الكبرى تختفي غالباً في التفاصيل!

لو رأى المرء، في المرايا، الأقنعةَ التي تحجبُ عنه بعض تفاصيل أيّامهِ الخفيّة، ولو شاهد نفسَه ومن حوله فيها، وأدركَ ما وراء المشهد، لسقطَ عنه الوهمُ مبكّراً، ولما أضاع حياتَه عبثاً.

أمّا إذا شاهد كلَّ ذلك في فيلمٍ صغيرٍ مكثّف (لا يبحث مخرجهُ عن تقديم الحقيقةِ فظّةً جليّةً فقط، لكن عن شدِّ مشاعرِ المُشاهِد وربطِ بصرهِ ببصيرتِه، وتحريكِ تفكيرِه وتأمّلاتهِ لإدراكِ الظاهرِ والباطن وما وراءهما، كما فعل جلال!)، فالتصويرُ يرقى لمستوى الفنِّ الميتافيزيقيِّ الأعلى.

ثمّة، في الحقيقة، فنٌّ ميتافيزيقيٌّ في فيديو جلال، في تصويبِ عدستِهِ التي تجيد اختيار أدقِّ التفاصيل (يمتلك لالتقاطها بوصلةً بين عينيه)، وفي التقاطهِ وجهَي سباسكي وفيشر، مع التركيز على عينَيهما، بريقِهما، شفراتِ علاقتهما... ومع وضعِهما معاً، في بؤرةِ العدسة، ملءَ الشاشة، ذات لحظةٍ ما وهما مندمِجَان روحياً، في أوجِ السعادة.

يبدو منهما وكأنّ هناك حبلَ سرّةٍ لا مرئيّاً، يربطُ، بيولوجيّاً، طرفَ أنفِ سباسكي بطرفِ أنفِ فيشر، ويوحّدُ اتجاهَ نظراتِهما، وحركاتِهما وسكناتِهما...

صدق بروست عندما قال: "الحياة الحقيقيّة هي الفنّ". وحدهُ الفنُّ (والروايةُ على وجهِ الخصوص) من يكشفُ اللامرئيّ، من يُسْقِطُ الوهم، ومن تَسبرُ عدساتُه وكلماتُه كلَّ الزوايا والأغوار.

هي تبكي، وأنا أبكي في مكتبي في الأرخبيل. ثمّة شيءٌ غيرُ طبيعيّ في حياتَينا، نحن الاثنين، نقصٌ جوهريّ، خطأٌ جذريّ... لا تفهمُ ما يدور في حياتها، ولا أفهم ما يدور في حياتي.

وثالثُنا، في متاهاتِ هذا المشهد، جارُ خولة الذي تتسارعُ خفقاتُ قلبهِ وهو يُحاول النوم، مُستعيداً ترتيلَ آية الكرسي، مرّةً وراء مرة.

تعودُ خولة على أطراف الأصابع إلى غرفتِها. تلاحظ انهمارَ التعليقات على منشورِ تهنئةِ سباسكي وفيشر لها. عددٌ جديدٌ من التهاني وصلتْها مباشرة.

تحاولُ النوم. تجدهُ سريعاً هذه المرّة. تنامُ بعمقٍ كطفلة، كما لم تنمْ يوماً ربّما. لا تحتاج هذه الليلة، كعادتها، إلى أن تستحضرَ في ذاكرتها شريطَ اليوم وتلوكَه، وأن تُحلّلَ وتدرسَ تطوّرات علاقتها برفيقَيها خلاله، وأن تأملَ وتحلم، وأن تُنكرَ وتتوهَّم، وأن تنتظر من أحدهما ما يملأ حياتَها وروحَها وجسدَها، ما يُعوّض الزمنَ الضائع...

انقشعَ شيءٌ ما يُشبِهُ الوهمَ، تجلّى لها كلُّ شيءٍ الآن!

ثمّ، قبيل الفجر بقليل، تصحو على حين غرّة، وهي تسمع معمعةً تقليديّةً في غرفة جلال. اللعنة! عاودهُ الكابوسُ من جديد!

في صباح عيد ميلادها، كانت خولة أكثر صفاءً وطُمَأنينةً من عادتِها. شكرتْ جميعَ رفاقها على الهدايا بِقُبلَتين على كلِّ خدّ، وهم يتناولون الفطورَ معاً، قبيل أوّل ساعات تمريناتهم الرياضيّة. تنتظرُهم بعدها وجبةُ عيد الميلاد الاحتفالية الخاصّة (ثمّة قنّينات شمبانيا، من نوعٍ أرستقراطيٍّ نادر،

ستنفتحُ أمام عين القمَر!).

ثمّ كتبتْ كلمةَ شكرٍ عامّة، في موقع فيشر وسباسكي، عبّرتْ فيها عن عرفانها لِمئات آلاف المعجبين والمتابعين لرحلة بيغاسوس، على تهانيهم لها بِعيد ميلادها، وعلى ما كتبوه من كلماتٍ وديّةٍ جداً. ذهبتْ لِكمبيوترِها لتشكرَ من لم تشكره بعدُ من الأهل والأصدقاء والمعاريف.

رمقَتْ جلالاً وحيداً في الفقاعة يملأ ناظريه بمنظر شروق الأرض الساحر، على بعد خطوتين من القمر. صعدَتْ نحوه. بادرَها مستفسراً عن رأيها بالفيديو، إن كانت قد وجدتْ وقتاً لمشاهدته.

عبّرتْ له عن شكرِها الكبير:

- كان بديعاً جداً، جميلاً ومنيراً. لا أستطيعُ شكرَك بما يكفي عليه!

ثمّ سألتْه:

- ألم تلاحظْ أني دخلتُ غرفتكَ هذا الفجر، لتجفيفِ العَرقِ من وجهِكَ، وأنتَ في حالة اضطرابٍ أخافني، إثر كابوسٍ كما أظنّ؟ كابوسكَ المتواتر، هو نفسه؟

كان ردّهُ مفاجئاً كليّةً لها:

- نعم لاحظتُ!

قبل أن يُتمتم، على غرار ابن شُهيد الأندلسي:

- "لا شفاني اللهُ منهُ أبداً" (13)!

(13) من وحي بيتَي ابن شُهيد الأندلسيّ:

أَتُحَتْ مِن عَضَّتِي في نَهْدِها
ثُمَّ عَضَّتْ حُرَّ وَجْهي عَمَدا
فَأنَا المجْـرُوحُ مِن عَضَّتِهـا

- منه؟ من هو!

تسألهُ خولةُ باستغرابٍ ملحوظ.

- الكابوس!

لم تستوعبْ، لم تعرف خولةُ كيف تردّ. غابت الكلمات تماماً.

ثمّ، ببراءتهِ التقليدية، وبخجلِ طفلٍ ارتكبَ جُرماً لا يُغفَر، أضافَ وهو ينظرُ من الفقاعة باتجاهِ كوكب الأرضِ وهو يُنير وينعشُ الفضاء، ويُفجّر في الروح أروعَ الأحاسيس والآمال، بعد أن اكتمل شروقُه الإلهيّ الذي لا يضاهيه جمالٌ في المجموعة الشمسيّة:

- ألاحظُ ذلك كلّ مرّة في الحقيقة، لكن في آخر لحظةٍ فقط، لسوء الحظ. وأتمنى لذلك أن يعود الكابوسُ مراراً ومراراً، مدى الحياة! ثمّ...

- ثمّ ماذا؟

- ثمّ...

خفّفَ من نبرات صوتِه. قطراتُ عرَقٍ تسرّبتْ من مساماتِه. هرعتْ خولةُ تبحث سريعاً عن منشفة، كي يُجّفِفَ بشرتَه، ويحافظَ على نقاءِ فضاءِ المركبة من أي تسرّبٍ لقطراتٍ أو ميكروباتٍ تظلّ معلّقةً في الجو.

تمتمَ:

- ثمّ أنتِ أصلاً، خولةُ، من صرتُ أجدُها خلفَ قمّة أوليمبوس، في الصّخرةِ التي كانت تجلسُ عليها رنيم!

19

المرقص

انفجرتْ في عصريّة عيد ميلاد خولة الثلاثين رغبةٌ جماعيّةٌ مفاجئةٌ لتخليدِ ذكراه بتنظيمِ حفلةٍ راقصة داخل المركبة!

رقصٌ جماعيٌّ طائر، خارج نطاق الجاذبيّة الأرضية، داخل مركبةٍ فضائيّة على بعد نحو 400 ألف كيلومتر من الأرض! الأوّل من نوعهِ في تاريخ رحلات الفضاء، بالتأكيد.

لا يدري جلال لماذا تذكَّرَ قصّةً قصيرةً قرأها في صِغرِه، لقاصٍ مغمورٍ، اسمها: "ويرقصونَ في هودَجٍ!". انتقل دماغُه بين مرقصِ هودجِ تلك القصّة، وسط قافلةِ جِمالٍ في الرُّبعِ الخالي، وبين الرقصِ في بيغاسوس، في كبِدِ السماء.

كلُّ ما يتذكّرُهُ، عدا ذلك، أن اسمَ القاصِّ المستعارِ كان مثيراً، ينسجمُ مع إيقاعِ القصّةِ وروحِها: "هَبَّ الريح"!

سال لعابُ سباسكي وفيشر مسبقاً، وهما يتخيّلان ملايين التعليقات الإطرائيّة المندهشة، على فيديو المرقص، عندما يضعانه في موقعهما، بل عشرات الملايين، ليس فقط لأن خولة أضحتْ، بفضلِ موقعِهِما، أيقونةً يفكِّرُ فيها الجميع، ويتلاقفون أخبارَها الفضائيّة بإعجابٍ حقيقيٍّ خالص، بل لأن فيشر سيكون، كالعادة، مايسترو المرقص. لكن أمام أعين الأبديّة، هذه المرّة!

ثمّ تطوّر المقترح: رقصٌ جماعيٌّ إضافيّ، لأقلَّ من نصف ساعة، خارج المركبة أيضاً، في الفضاءِ الكونيِّ السحيق المواجهِ للقمر، معَ موعدِ إشراقةِ الأرض!

فيديو خالدٌ، لن يملّ رؤيتَهُ ألفَ مرّةٍ أحدٌ.

رفضتْ مانيارا مقترحَ الرقص خارج المركبة، لأنه يُمَنَعُ خروجُ أكثر

من اثنين من أي طاقم، لأي مهمّةٍ تقنيّةٍ تقليدية في الفراغ المطلَق المجاور للمركبة.

بعد شدٍّ وجذبٍ ونقاشٍ طويل، أجّجَتهُ رغبةُ الجميع فعلاً في إقامة حفلةِ رقصٍ، بشكلٍ أو بآخر، لتمجيدِ خولتِهم الحبيبة التي تستحقّ أروعَ احتفال، اتّفقوا على أن يكون رقصُهم، معظم وقتِ الحفلة، داخل المركبة، وأن يختموه بالرقص بجوارِها، عشر دقائق لا أكثر، مع موعدِ بزوغِ إشراقةِ الأرض، ليكونَ وهجُ ضياء كوكبِنا الأزرقِ الجميل الفناءَ الخلفيَّ لِمسكِ ختامِ مرقصِهم الفضائيّ، أو "الفناءَ الخلفيّ للقصيدة" حسب تعبير شاعرٍ حديث.

ثمّة سعادةٌ دافقة، لا تضاهيها سعادة كما يعرف روّاد وعلماء الفضاء والنفس البشرية، تغمرُ الإنسان وهو يواجه كوكباً تفجّرتْ فيه الحياة، ونشأ فيه "حيوانٌ مُستحدَثٌ من جمادٍ"، "حارتِ البريّة فيهِ": نوعُنا الإنسانيّ!

اتّفقوا أيضاً على أن تكون كلُّ أغاني الحفلة راقصةً جدّا، تحتفل بالحياةِ والحبّ. انتقوها من لغاتِ أرجاءِ الأرض، شرقِها وغربِها، خلال قرنٍ من الزمان.

بدؤوا بالأقدَم: أغنية من ثمانينيات القرن الماضي لِفرقة أوبوس: Live is life، الأكثر تعبيراً عن مزاجهم الجماعيّ، هم الذين يمتلكون سلطة إدارة خارطة طريق رحلتهم: "عندما نمتلك كلَّ السلطة، نُقدِّم الأفضل!"، رغم طفوليّة كلماتها التي احتاجَ مؤلِّفُها إلى أقلّ من عشرين ثانيةً لِنظمِها.

لهم، في الحقيقة، ذكرياتٌ شبابيّة ممتعة، منذ حفلات دراساتهم الجامعيّة، مع هذه الأغنية الشعبيّة، التي سبقتْ ولادتهم بدهر!

انشغلَ الخمسة معاً ساعاتٍ بترتيب وضمّ أغاني الحفلة في "بِلِيسْت" واحدة، وبِتنظيمِ صالةِ استقبال المركبة وإعدادِ ديكورها.

خرجت مانيارا، ببدلتِها الفضائية الثقيلة، برفقة فيشر، "ملكِ الرقص" كما يُسمّونه، لتجهيزِ المركبة من الخارج، سريعاً جدّاً، ولإلصاقِ تهنئةِ عيد ميلاد على أحد الجدران الخارجيّة، وتوجيهِ بعض الأضواء الاحتفالية نحو

مربّع المرقصِ الخارجيّ الذي اختارتهُ مانيارا وفيشر، بمعيّةِ وإشرافِ "وادي عبقر"، ليتطايرَ الجميعُ رقصاً وسعادةً فوقه (تربطهم حبالُ سرّةٍ مرِنة بأذرعِ المركبة)، وسطَ ضوءٍ ثلْجيٍّ لم يعرفْهُ مرقصٌ في تاريخ هوموسابيان قطّ.

بدأتِ الأغنية الأولى للحفل (الذي يُنقَل على الإنترنت مباشرة) احتفاليّةً صاخبة. نحو رُبع مليار متابعٍ لهذه اللحظات الفريدة!

خمس فراشات ترقص، على طريقة فرقة أوبوس، وهي تطير في صالة الاستراحة، في علوٍّ وهبوطٍ ممتع، وفي جوٍّ شبابيٍّ نوستالجيّ بريء، وسعادةٍ صاخِبة. يتوسّطهم فيشر الذي يُقلِّدُ حركات غناء الفنان روديسر، نجم الفرقة الشهيرة.

نَسَتْ خولة صدمةَ فيديو جلال، أقلّ أو أكثر (فيما لا يشغلها، في سريرتها، إلا حوارها المقتضب معه في الفقاعة). كانت ملكةَ خليّةِ النحل بامتياز، وهي تتفجّرُ في عيد ميلادها، ترقص في قلب القاعة. أراقبُ شخصيّاً حبيبة قلبي مانيارا بهيامٍ وشدوه: مشغولة بتصميمِ وإخراجِ الحفلة، بالرقص بجانب "أختها الكبيرة"، بمتابعةِ بعض التعليقات الهامّة التي تصل من سكّان الأرض، وبالتواصلِ الدائم معنا في لجنةِ الإشراف على الرحلة... كلّ ذلك، إي والله، في الوقتِ نفسِه!

تراود جلال رغبةُ ترجمةِ مقولة مولانا جلال الدّين الرومي لِبعضِ رفاقِه: "لا يُفنى في الله من لا يعرفُ قوّة الرقص!"، ثمّ يكفّ عن ذلك لحسن الحظ، حتّى لا يكون ثقيلاً أكثر من اللازم: ليس الآن وقت التصوّفِ والاستشهادات، طبعاً. البهجةُ الطاغية حاليّاً لا تسمح بالتأمّل والتنظير والفلسفة.

نتابعُ المرقصَ، في لجنتنا، بِقلقٍ صامت، خائفين من لحظاتِ وجود الخمسة معاً خارج المركبة، واحتمالِ إصابتِهم جميعاً بأذى: خلل فنيّ أو اصطدام بصخرةٍ طائشة، أو دُفعة أشعّةٍ كونيّة ورياحٍ شمسيّة كثيفة، أو...

ثمّ نسينا مخاوفَنا، في لجنة الإشراف، ونحن نراقب روعةَ المشهد الذي

لا يتكّرر. نجاحٌ مُسكِر. ستتضاعفُ رغباتُ السياحة الفضائيّة الآن، وعَقدُ الحفلات في الفضاء، بحثاً عن السعادة الدافقة، التي لا تماثِلُها سعادة، عند مواجهة كوكب الأرض.

ستفرِكُ شركاتُ الفنادقِ الفضائية و"الاقتصادِ القمَريّ" أيديها، والباحثون عن الذّهب الفضائي من أهل "البيزنيس" عموماً، وهم يرمقون ارتفاعات أسهمهم في البورصات، وسينعمُ مركزنا الفضائي منهم بعقودٍ مدرارة، وبدعمٍ ماليٍّ إضافيٍّ وفير.

ناسبَتْنا جميعاً جودةُ فكرةِ المرقص التي تُشغِلُ أدمغةَ الخمسة، وتُبعِدُهم تماماً عن الشعور بالعزلة والانطواء، بل تجعلُهم قِبلةَ أعين رُبع مليارٍ من البشر، في هذه اللحظات الاحتفالية الهائجةِ الخالدة.

شعرتُ كم أنا محظوظٌ بهذا الطاقم الفريد الخالد، الذكيّ والجميل جدّاً، والذي يربط أفرادَهُ انسجامٌ عميقٌ نادر!

نجاحٌ يتجاوز فعلاً كلَّ توقّعاتي.

20

عواطف كَونيّة

بعد نحو نصف ساعة من الرقص المهنيّ المتناغِمِ الذي لا يُملّ (لعلّهم قد رقصوا كثيراً في حفلات الجامعة)، تُعلِن مانيار استراحةً، عشرين دقيقة تقريباً، لارتداء البدلات الفضائية الثقيلة، والخروجِ سريعاً لمواصلة الرقص، خارج المركبة، "لتحية بزوغ إشراقة الأرض، في عيد ميلاد خولة" كما قالت للمشاهدين على الإنترنت.

"أعزّائي المتابعين على الإنترنت: ستعيشون، بعدَ قليل، بهجةً كثيفةً استثنائية. خليّةٌ طائرةٌ من البشر سترقصُ أمامكم في الفضاء السحيقِ المطلق! وسيكون الفناءُ الخلفيّ لهذا الديسكو الفريد، الواحدِ الأحد: معشوقتَنا الأبديّة 'الفتريّة الزرقاء'، في لحظة شروقها الساحر، وسط سماواتٍ راقصةٍ صاخبة!" تضيف مانيارا بصوتٍ آسرٍ مبتسمٍ واعد.

أستحضرُ "تقريرَ لجنة الإشراف" عن هؤلاء الخمسة العجيبين. لا يخلو من جملةٍ صغيرةٍ عن علاقتِهم، في حياتهم الطلّابية، بالرقص:

ما يجمعُ هؤلاء الطيور النادرة عموماً هو مؤهلاتهم المهنيّة المذهلة: درسوا معاً في أرقى كليات الفضاء، التابعة لمركزنا الفضائي الدولي. يتكلّمون لغات شتّى بطلاقةِ من يتحدَّثونها منذ الولادة. تجمعُهم ذكرياتُ وسنواتُ عملٍ وعلاقات وديّة راسخة. لذلك اختيروا معاً: أيُّ رحلةٍ طويلةِ الأمد، في مركبة فضائية، لا تجمع روّادَها ذكرياتٌ مشتبِكةٌ وثقافةٌ متقاربة، تتحوّلُ سريعاً إلى مصنع كآبات، إلى مقبرة.

تجمعهم تجاربُ مهنيّة، مشتركةٌ أحياناً، في رحلات فضائية قصيرة، أو في غوّاصات في أعماق البحار. يجيد كلّ واحدٍ منهم قيادةَ الطائرات، المروحيّات، المناطيدَ والمظلّات الهوائية، السباحةَ في الفضاء خارج المركبة...

مواهبُهم الرياضية ومقدراتهم الفيزيولوجية وصلابتهم النفسيّة نموذجيّة. ملَكاتهم ومواهبُهم عديدة، خارقةٌ أحياناً. يعشقون الرقص ويحتاجون إليه: "ينبوعُ الأندروفين، ومصنعُ سرورِ البال ورفاهيّتِه" حسب تعبير فيشر، ملك الرقص.

جميعهم نرجسيّون أيضاً، مُغامِرون مهووسون باختراقِ أسرارِ المجهول، بِتوسيع آفاقِ الإنسان وهيمنتهِ على الكون، أو بِربطِ أسمائهم بأحداثٍ تاريخية واكتشافاتٍ فريدة. يعتبرون أنفسَهم، بكلمتين، أنصافَ آلهة!

ما يجمعُ الخمسةَ، ثانياً، هو ما يجمع عشرات آلاف المتقدّمين لِدراسات وامتحاناتِ الريادةِ الفضائيّة: العشقُ القاتل للسماءِ والرغبة في استيطانِها.

قضوا أعمارهم، منذ الطفولة، في السرّ والعلن، يحلقون بالقمر، بالنجوم والفضاء المطلَق. يحفظون عن ظهر قلب خارطة السُّدم والمجرّات والكواكب، من عمْرٍ مبكّرٍ جداً. يسافر كلُّ واحدٍ منهم ذهنيّاً نحوها في الليل وآناء النهار، يحلم بالسباحة في الفضاء، وبالمشي فوق القمر والمريخ والكواكب البعيدة، والحياة خارج الأرض.

شغفٌ ميتافيزيقيٌّ يسكنهم لا حلّ له إلا بالرحيل إلى أعماق السماء، بِثقب أسرارِها، بترويضِها والتجوّلِ في أحشائها.

حدود هؤلاء الخمسة ليست القرية أو المدينة، البلد أو القارّة، أو الكرة الأرضية، لكن الكون بجملِه. من منظورِهم، خروجُ هوموسابيان من أفريقيا، قبل مئتي ألف سنة، لغزو العالم (out of Africa)، مجرّدُ خطوةٍ صغيرة لا غير نحو الهدف الأسمى: خروجه من كوكب الأرض (out of Earth) للسيطرة على الكون!

الكون مملكةُ الإنسان، والفضاءُ هيكلُه، والإنسانُ لا شيء، كما يعتقدون، دون سيطرتِه على ملكوت الكون بأكمله.

مع هؤلاء البدوِ الرّحل، يتحوّل الشعار الجوهريّ العظيم "اعرفْ الآخر تعرفْ نفسَك" إلى "اعرفْ الكون تعرفْ كوكبَك". لذلك يسكنهم جنونُ

كريستوفر كولومبوس وشغفُه الاستكشافيّ والاستيطانيّ، وهوَسُ دخول التاريخ بالهبوط عليه بجلمود صخرٍ حطَّ من علياء أوسع سماواته.

هؤلاء ليسوا ممّن يكتفون بمغازلة القمر: "يامّه القمر ع الباب، نوّر قناديله"، "نحن والقمر جيران"، "يا خُو القمر، مافيش قمر مُلثّم"، "عاشق ليالي الصبر مدّاح القمر"... لكن ممّن يريدون مضاجعته!

هؤلاء هم سفراؤنا نحو المجرّات والكواكب والنجوم، نحو الكويكبات والمذنَّبات، نحو اللّانهاية!

يتوَسّطهم فيشر عندما يبدؤون الحفلَ خارج المركبة بإعادةِ رقصتهم (حسب طلبات الملايين على الإنترنت) لأغنية Live is life التي لم يعد يعرفها إنسانٌ تقريباً من أبناء منتصفِ القرن الواحد والعشرين.

بزوغُ الأرضِ، وإشراقُها البهيّ، يُفجّر عواطفَ جيّاشة لدى جميع المتابعين للمرقص، خارجَ كوكب الأرض وداخله. "عواطف كونيّة جديدة، ما أروعَها! تتفجّرُ في روح الإنسان" كتبَتْ صحيفةٌ كانت تنقلُ المرقصَ مباشرة، واشتهرَ مصطلحُ "عواطف كونيّة" بعدها إلى الآن.

مانيارا غارقةٌ في تنظيم نجاح هذه التجربة الساحرة التي لم تخطر، قبل عيد ميلاد خولة، ببالِ أحد، وفي الرقصِ مع رفاقِها أيضاً، لدرجة أنها لم تنظر، منذ نحو ثلاث دقائق، إلى شاشةِ جهازِها الصغير الذي لا يُفارق كفَّها عادةً، والذي تستلمُ منه أيَّ جديدٍ يدور في أدوار المركبة، من قِبَل الكمبيوتر العظيمِ الذي يحملُ اسمَهُ بجدارة "وادي عبقر"، ذو الألف كاميرا، أو أي توجيهٍ من قِبَلنا (وإن يصلُها هنا متأخراً بضع دقائق، بسبب المسافة التي تفصِلُنا عنها).

لعلّها الدقائق الثلاث الوحيدة، منذ بدء الرحلة، التي كان من المفضَّلِ أن تنظر فيهم مانيارا إلى الشاشة!

كان مكتوباً عليها:

اندلع حريقٌ في غرفتكِ، آنسة مانيارا! لعلّكِ نسيتِ، على سخّانتِها، كتاباً مفتوحاً مجاوراً لِقطعةِ البخور السُّقطريّ! تفَتَّتْ قليلاً، وخرجتْ منها، كما يبدو، شذرةٌ صغيرة ساخنة، سقطتْ فوقَ الكتاب، فاحترق!

انطلقتْ أجهزةُ وروبوتات الإطفاء الآلي للحريق فوراً نحو غرفتكِ.

يلزم الآن سريعاً:

1. إيقافُ المرقص والعودةُ إلى المركبة.

2. إيقافُ نقلِهِ المباشرِ على الإنترنت، بعذرِ "خللٍ فنيٍّ بسيط"، وبابتسامةٍ تقليديّة دون أيّ ارتباك.

3. توجُّهكم جميعاً مباشرةً للمساعدةِ في إطفاء الحريق حالاً.

لا قلق، لا توتّر! لكلِّ جوادٍ كبوة، ولكلِّ فارسٍ هفوة!

21

مدخلٌ عجيبٌ لمشروعِ ميثاقِ زواجٍ!

في اليوم الثاني من رحلة Yyy4+1W، بدأ اجتماعُ م/ق، دون مناقشةِ وإقرارِ محضر الاجتماع السابق، حسب الطقوس، لأنه كان اجتماعاً بلا محضر.

قبل قراءة نون لمشروعِ ميثاقِ الزواج الذي انتهى للتوِّ من إعدادِه (بانتظار إلهامِ "جزيرة الوحي" له بمشروعِ "ميثاقِ نبيّ الأرض وكواكب الحياة الذكيّة")، طلبَ من رئيسةِ الاجتماع السماحَ له باستهلال المشروع بكلمةٍ شفهيّةٍ صغيرة، "لها علاقةٌ بالبند الأوّل من مشروع الزواج الجماعيّ" كما نوّهَ وأكّد! وافقَتْ. قال:

- حبيباتي الغاليات: تعرفنَ أن نهايةَ رحلتي ستختلف عن نهاية رحلتكنّ. مآلي: العودة إلى الأرض، وأنتنّ: استيطان المريخ، أو الهروب إلى عالمٍ آخر! أعرفُ أن إثناءَكُنّ عن مشروعِ حياتِكنّ الرئيسِ ضربٌ من المستحيل. لكن اسمحنَ لي بتوجيهِ هذه الأسئلة: أيحقّ صرفُ ملايين المليارات لاستيطان الفضاء، وكوكبُنا يحتضر؟ ألا يلزم أوّلاً ترميمُه من الخرائب التي سبّبها الإنسان فيه، جرّاء عدم احترام منظومتهِ البيئيّة، طوال ما يقتربُ من قرنٍ من الزمان؟ أيحقّ الهروبُ منه، وأرضُنا تحترقُ أمامكنّ، والمنبوذون على قارعة الطريق، من الجياع والمرضى واللاجئين وضحايا الحروب والاختلال البيئيّ، لا مُنقذَ لهم ولا مُعين؟ مشاريع حيواتكنّ: كاميكازاتُ فضاء! أضحياتٌ، لأجل أعين العِلم والشِّعر والفلسفة! العلم لا يحتاج إلى كاميكاز، مثل الأيديولوجيات الدينيّة أو الثوريّة. أثمّة جنونٌ أكثر من ذلك! أليس من قبيل المستحيلِ والتخريفِ اللانهائي التفكيرُ بنقلِ سكّانِ كوكبِنا إلى كوكبٍ ثانٍ (كوكب الأرض "الجديد"، أو الأرض 0.2، حسب تسميةٍ طازجةٍ بغيضة، تَضاعفَ انتشارُها مؤخراً)؟ الأرض مهدُنا ومآلُنا الأبديّ. مياهُها وأكسجينُها جوهرا حياتِنا. لا نحتاج إلى تصنيعِهما

في الأرض، فيما سوف يلزم ذلك للحياةِ في كوكبٍ آخر! أليس من العبثِ والخبَلِ الخالصِ بمكانٍ التفكيرُ بالحياة في كواكب يلزم فيها صناعتُهما كيماوياً؟

نهضت الفيلسوفة فاء في طرفِ طاولة الاجتماع، وضعتْ كلَّ أصابع يدِها اليسرى عموديّةً على أصابعها اليمنى المستقيمة، فيما يُعرفُ بـ"نقطةِ نظام"، لِتُوقفَ اللغط، وتمنع نون من الاستطراد والمماطلة، مؤخِراً بذلك سردَ "برنامج عمل" الزواج الجماعيّ، قائلةً:

- هذه ليست كلمةً تمهيديّة في اجتماع م/ق لتقديم مشروع الزواج الجماعي! هذه خطبة جمعة أو مرافعة ضدّ غزو الفضاء، عزيزَنا نون! لعلّكَ تعرف أن وضعَ الأرض يُبكينا طبعاً. لكنّا، نحن الأربع على الأقل، ننتمي للكونِ بأسرِه، واخترنا "رحلةَ العمر" هذه بمحضِ إرادتِنا وشغفِنا، بعد دراسةٍ عميقة.

استرسل نون وهو يُبوئِر نظرته في مركز الطاولة، كما لو لم يسمع اعتراض الكابتن، أو ينتبه لِخصلات شعرها الذهبيّ التي تناثرتْ وتوزّعتْ في كلِّ الاتجاهات، ثمّ استقامتْ عموديّة على نحوٍ لافت، منذ نهوضها الحازم لِردعهِ بنقطة النظام:

- لِننظرْ حولَنا: كوكبُ الزهرة (لا تغرُكُنّ الأسماءُ الجميلة!) الذي تغزّل فيه الشعراء والعشاق، هو القبحُ بعينه، رغمَ بريق لمعانِهِ الآسرِ الفاتن! كارثةُ الكوارث، ردهةُ جهنّم! غلافُه الجوّيّ مشحونٌ بثاني أكسيد الكربون، والاحتباسُ الحراريُّ فيه يفوق كلّ احتباس. أمطارُه قطراتٌ من حمضِ الكبريتيك المركّز! يا إلهي! كوكبٌ بلا فصول. بطيءُ الدوران حول نفسه، يومُه يدومُ سنتين، بالضبط! يجد نصفُه الأوّلُ نفسَه، خلال نصف اليوم (أي لمدّة سنةٍ كاملة!) يحترق تحت نيران شمسٍ نوويّة، ويجد نصفُه الثاني نفسَه، خلالها، في طقسٍ ثلجيٍّ مُناظرٍ في شدّة تجمّدِه! ثمّ يتبادل النصفان طقسيهما لعامٍ جديد. أيُّ كارثة أبشع من ذلك؟ لا أنصحُ واحدةً منكنّ أن تبحث لها عن قطعةِ أرضٍ هناك!

ثمّ تنفّسَ نون الصعداء، واستطرد:

- لا أنصحُ ذلك في عصرِنا الراهن، على الأقل! لكني لا أعرف طبعاً كيف سيكون كوكبُ الزهرة بعد مليارَي عام من الآن، إثر ما ستحملهُ اضطراباته الجيولوجيّة الدائمة من تغيّرات، لأن الحياة تولدُ دوماً على تخوم الاضطرابات! الحياةُ، كما تعرفنَ أكثر منّي، ابنةُ البراكين والزلازل واصطدام الكويكبات والتغيّرات الجيولوجية الكبرى! أمّا كوكبُ عطارد، الملاصقُ للشمس، فلن يسكنَهُ حتّى الجنُّ والعفاريت. جهنمٌ، بالنسبة إليه، جنّةُ النعيم! والقمر؟ كوكبٌ عدوانيٌّ بامتياز: زلازِلهُ تستمرّ عشرات الدقائق، وليس لثوانٍ فقط كحالِنا في الأرض! طقسهُ كارثيٌّ (بين درجة حرارةٍ تُشوي التماسيح، تتجاوز الـ100 درجة، وأخرى أقلّ من ناقص 100 درجة، تُثلجُ الحمَ و تُجلِدُها!). جاذبيّتُه الأرضية ضعيفةٌ جدّاً، وما أتعبَ المشيَ فيه! لا غلاف جوّي يحميِه، ولا ضغط جوّي فيه. الكويكبات والنيازك تتراجَمُ عليه ليلَ نهار. أمّا أرضُه فهي مثل قاع محيطاتنا: بازلتٌ داكنٌ مرعِب، خطِرٌ صحيّاً على الإنسان على المدى البعيد. كلّه أخاديد من فرط القصفِ عليه، ليلَ نهار. ماذا صار القمر اليوم؟ زبالةً بحجم كوكب (ألفا طن من خردات المركبات القديمة ونفاياتها تتناثر عليه، بعد أن كانت مئتي طن، قبل ثلاثة عقود). قاعدةً لا تنضب لِوزارات "الاقتصاد القمَري" وبؤرِ المال والتكنولوجيا، تبحثُ فيه عن المعادن والغازات النادرة، تَنقُلُ إليه مصانع الأرض الأكثر قذارة، تُطلِقُ منه سُفُنَها الفضائية ومسابرَها ومجسّاتِها، نحو بقية المجموعة الشمسية وخارجها، لأن ضُعفَ جاذبيّةِ أرضِه تجعلُ الإقلاع منه أفضل من كوكبِنا. احتلّتهُ وأمّمتهُ قوى المال و"البيزنيس" تماماً. تعجُّ فيه الروبوتاتُ اليوم، ومحطّاتُ الطاقةِ الشمسيّةِ الموجَّهةِ إلى الأرض، وآلافُ البعثات الاقتصادية الإنسانية والروبوتية التي بدأتْ باستنزافهِ وتدميرِه، كما حصل لِأُمِّهِ الأرض. حتّى زيارتُه اليومَ أضحتْ صعبةً جدّاً، بعد سياساتِ ممتلكيهِ العنصرِيين الذين أطلقوا شعاراتٍ رجعيّةً بغيضة: "القمر للقمريّين!"، "لا لِلّاجئين القادمين من الأرض!". اللعنة! بدلاً من أن يظلّ القمر محميّةً طبيعيّةً للإنسان، حوّلوهُ إلى مزارع ألواحٍ شمسيّة عملاقة، ومصانع طاقةٍ

قمريّةٍ (بالهيليوم 3) موجّهةٍ إلى الأرض! زبالاته، ومستوطناتهُ العسكريّةُ والاقتصاديّة، وكبسولاتُهُ التي بنتْها الروبوتاتُ الذكيّة ومطابع الـD3، جعلتهُ أشبهَ بمنطقةٍ صناعيّةٍ تلويثيّة قبيحةٍ كئيبة، في ضواحي إحدى مدنِ الكرة الأرضيّة!

بعينين ساخطتين تُشعشعان في وجهِها الآسر، دخلتْ البيولوجية باء على الخطّ، وهي تمسُّ نهايات شعرَها الكستنائي القصير، بحركةٍ آليّةٍ لا تخلو من التشنّج أو الضيق من استطرادات نون البهلوانيّة:

- كفاية ثرثرة، نون الحبيب! لا تتعبْ نفسَك، اختصرْ بالله عليك! تعرفُ أنّ شغَفَنا يختلفُ عن شغفِكَ النبويِّ تعدّديِّ الكواكب. حُلمي مثلاً: أن أصحوَ كلّ صباح، في كوكب مجاورٍ للأرض، أفتح نافذتي، وطفلي في يدي! نُشاهد معاً بخشوعٍ إشراقةَ الأرض، ونقول: كان لنا ثمّة كوكبٌ ساحرٌ جميل، لا سحرَ ولا جَمالَ يضاهيه، ثمّ... آه، ثمّ... (طيفُ أدمعٍ خفيفة بدأ يلوح من مآقي باء. نبراتُها تضطربُ وتتهشّم).

استرسل نون كما لو لم يسمع حرفاً من باء:

- والمريخ؟ الحياةُ فيه، حبيبتي الجميلة باء، أفضلُ من القمر ربّما، بسبب طقسهِ أحياناً، ومائهِ، وجاذبيّتهِ الأرضيّةِ الأفضلِ نسبيّاً من القمر، لكنها غيرُ مضمونةٍ إطلاقاً، كارثيّةٌ على المدى البعيد. كوكبٌ تبتلعهُ طبقاتٌ من الغبارِ غالباً، جبالُ براكينِه عملاقةٌ (25 كلم ارتفاعُ أحدِها: أوليمبوس! يا للرعب! أرتجفُ من مجرّدِ تخيُّلِه، أو تصوّرِ أجرافِهِ وهاوياتِه). كوكبٌ بلا "حقلٍ مغناطيسيّ" يستحقُّ الذِّكر، تضربهُ الرياحُ الشمسيّة والأشِعَّة الكونيّة التي تحوّل المرءَ إلى فجلٍ رخو! عواصفُهُ الغباريّة مُرعبة. وسهولُ حُممِهِ المسكونةِ بغازات أكسيد الحديد، تجعلهُ يبدو أمرَخَ، مقرِفاً جدّاً. لا يمكن للأرواحِ الجميلة مثلكنَّ، حبيباتي الأبديّات، الانجذابُ للحياةِ فيه. ومع ذلك، ملأتْهُ شركاتُ غزوِ الفضاء بكبسولاتِ القرى الاستيطانية الفارغة، المزوّدةِ بأذكى الروبوتات المستقِلّة والمستشفيات الحديثة، بانتظارِ التأكّدِ أوّلاً من إمكانية البشر من الإنجاب فيهِ والتناسل والتكاثر، قبل ترحيلِهم من الأرض إليه!

لا يُخفى علينا أننا لم نُبعث إليه الخمسة، كَـ"كوباي"(14)، مثل غيرنا، إلا لهذا السبب في الأساس! ولعلّهم ينتظرون من مركبتِنا، على نحوٍ خاص أصرّ عليه كمبيوتر الانتقاء، أفضلَ النتائج الواعدة التي تُبشِّرهم بإمكانية التناكح والتكاثر البشريّ في المريخ! سؤالي، أيّتها الحبيبات الغاليات: كيف سيمكنُكنّ الحياةُ الدائمة هناك داخل كبسولات، والتنزّهُ طوال العمر ببدلاتِ حمايةٍ فضائية، بهذا الثقل، تجعلكنّ تمشين كروبوتاتٍ، طوال العمر؟ أهذه حياةٌ باللهِ عليكنّ؟ أما بقية الكواكب القابلة للحياة، إن وُجِدَتْ فعلاً، بين المئة مليار كوكب في مجرّتنا الحبيبة: درب اللبانة، أو ضمن مليارات المجرّات المجاورة لها، فستفصِلُنا عنها سنينٌ ضوئيّة (بل "سِنينْ ومِنينْ" كما كنّا نقولُ في صِبانا، عندما يكثرُ عددُ السنين): مسافاتٌ تقتضي قروناً وقروناً من الزمن للوصول إليها أحياناً، في أسرعِ مركبةٍ فضائيّةٍ ممكنة!

(14) خنازير هنديّة، أي: حقل تجارب.

انضافتْ الفيزيائيةُ زاي لقافلة المتذمِّرات من خطاب نون. كادتْ توبِّخهُ بودّ، وهي توجِّهُ له ابتسامةَ تَحَدٍّ لا تخلو من السخريّة:

- رفيق نون الثرثار الثقيل: لا نهائيّةُ المسافات لا تُخيفنا، نحن الأربع، ولا ما هو أبعدُ من اللانهاية أيضاً! بل تُثيرنا وتؤجِّجُ شغفَنا. سرعةُ الصواريخ وتقنياتُها الجديدة تتضاعفُ من عامٍ لعام، كما تعرف. ارقُدْ، حبيبنا الغالي، إن أحببتَ في كوكبٍ يحترق، أما نحن الأربع فقد طلّقناه إلى الأبد، واخترنا الكونَ الفسيح، بعيداً عن مُربَّع القبيلة. مجموعتُنا الشمسيّة هي ضيعتُنا الصغيرة، ودرب اللبّانة وطننا الحبيب... ولا بدّ من "العوالم الموازية وإن طال السفر"!

يصغي لها بِـ"أذْنٍ من طينْ، وأذْنٍ من عجين"، يسترسل:

- بالطبع، لا أشكُّ لحظةً بوجود كواكبَ فيها حياةٌ على غرار كوكبِنا، أكثر أو أقلّ تطوّراً، بل أرتجفُ مثلكُنّ عندما أحدِّقُ بالسماء وأتخيّلُ ذلك! ولا أبحث في حياتي عن شيءٍ أقدس من التأكّد من وجود حيواتٍ ذكيّة،

في كوكبٍ موعودٍ خارج كوكب الأرض، والارتباط معها، من بعيد، في شبكةٍ متعاضدةٍ متناغمة. لكن تخيّلنَ ما سيحدث: نسافرُ نحوها، أنتنّ وأنا، في أحدثِ وأسرعِ مركبةٍ فضائيّة، نظلّ مصفّدين فيها حتى نهاية العمر، تُنجبنَ فيها، وينجبُ أبناؤنا وأحفادُنا وأحفادُ أحفادِ أحفادِهم... نموتُ جميعاً داخل المركبة، حتّى يصلَ إليها تاسعُ أو عاشرُ جيلٍ من فلذّاتِ أكبادِنا! يا للتخريف! كل هذه المشاريع، حبيباتي الرائعات، عبثٌ، غطرسةٌ، أضغاثُ أحلام، انتحار. مشروعي الذي أتمنّى تحقيقه: أن يكون الفضاءُ "محميّةً طبيعيةً، جزءاً من التراث الماديّ واللاماديّ للإنسانية وغيرها من الكائنات الحيّة الذكيّة، في كوكب الأرض وبقيّة كواكب المجرّات"، وأن ترتبط هذه الكائنات معاً، ولو من بعيد، بعلاقةٍ أُمميّة وإخاءٍ كونيّ وفضاءٍ ثقافيٍّ مشترك، و...

- و... ماذا؟ (تحثّهُ الشاعرة شين على الاستطراد، بابتسامةٍ مُشجِّعة لأنهُ مسَّ وترَها الحسّاس).

- وأن يكون كوكبُ الأرض واحةَ الكون، عاصمة الفيدرالية التي تتمنّين تحقيقَها، عزيزتي شين، رفيقتي في الأحلامِ الشاهقةِ الشمّاء!

- الأرضُ واحةُ الكون، عاصمتُه! يا للنزعة الإقليمية! يا للشوفينيّة! (تمتم زاي بسخريّةٍ جليّة ونظراتٍ مستنكرة - يا لها من رماحٍ زرقاء رماديّة!).

- وأن تكونَ النبيَّ المنتَظر لهذه الفيدراليّة؟! لعلّك هكذا، تواجهُ الغطرسةَ بالغطرسة! رؤيتُكَ للأرض لا تختلفُ عن رؤية النظريّات الدينيّة القديمة، وكذلك نصُّ رسالَتِكَ النبويّة التي تريد نشرَها، اللهم إلا أنك تريد بثّها في كلِّ أطرافِ الكون، عبر مسبارٍ شبيهٍ بـ2 ,Voyager 1... (عقّبتْ الفيلسوفة فاء متفاعلةً مع رفيقتِها زاي!)

- ماذا تعملُ هنا بالله عليكَ، إن كنتَ ضد غزو الفضاء؟ (تسترسلُ زاي فيما يُشبهُ التأنيب والقرفَ الكليّ).

- كلّا، عزيزاتي! لست ضدّ دراسةِ الفضاء واكتشافِ طبيعة الكواكب

البعيدة، بالعكس. لكني ضد الغطرسة المجنونة التي تجاوز حدود مقدرات الإنسان وطاقات جسده. ضد الهروب إلى الأمام وكوكبنا في وضعٍ لا يُحسدُ عليه. لنكتفِ حالياً ببعثِ المجسّات والروبوتات الذكيّة إلى الكواكب المجاورة والبعيدة، بدلاً من الإنسان، ولنبحثْ عن حلولٍ جذريّة لِدِكِّ الطبقة "الزجاجيّة" العفنة من غازات الاحتباس الحراري التي تحيط بالأرض! أمّا بحثي عن "رسالةٍ إلهيّة" تُوحِّد كلّ الكواكب الذكيّة، وتضمن حقوق "النباتات والروبوتات الذكيّة والحيوانات الإنسانية وغير الإنسانية، في الأرض وفي كل الكواكب"، فلأنَّ كلَّ الأديان والفلسفات السابقة أرضيّةٌ خالصةٌ فقط، كما يعرفُ الجميع. كيف يمكن الصوم في شهر رمضان، مثلاً، لمن يسكن القمر الذي تُشرِقُ فيه الشمس خلال أسبوعين أرضِيّين على الأقل، ويمتدُّ يومه وليله طوال 29 يوماً ونصف من أيامنا الأرضيّة؟! أو لِمن يسكنُ كواكبَ أخرى تظلُّ الشمسُ مشرقةً فيها أسابيع وأشهراً؟ هل سيعود يسوعُ للمسيحيين في المريخ؟ وما اتجاهُ الهيكلِ لليهودِ في القمر؟ وكيف يمكن التطهّرُ من خطايا الروح في نهر الغانج عندما تعيش في القمر؟ ماذا أعملُ هنا إذاً، تسألينَ عزيزتي زاي؟ الوجود والغوصُ في معمعان الاكتشافات الفضائيّة والمغامرات الإنسانيّة المجنونة، ودراستُها الميدانية من الداخل، ضرورةٌ حتميّةٌ للرسالة التي أنوي أن أكون المبشّر بها! لماذا الحاجة إلى "الرسالة"؟ "لا حركة ثوريّة من دون نظرية ثوريّة" كما تعرفِنَ، ولا نبوءة جديدة، دون وحيٍ ربّاني جديد! أعطِني وحياً إلهيّاً جديداً يُوسِّع دوائر القِيَمِ الأخلاقيّة الأرضيّة القديمة، أعطِكَ أمّةً كونيّةً واحدة، ذات رسالةٍ كونيّةٍ خالدة.

- كفاية رفيقَنا نون، كم أنتَ متعِبٌ وثقيل! ما علاقة كلِّ هذا الانزياح الميتافيزيقيّ بالبند الأوّل من مشروع ميثاق الزواجِ الجماعي، كما تدّعي، وأنت تعرف أننا الأربع لن نعودَ إلى الأرض، في أيّ حالٍ من الأحوال؟ هل تبحث بمشروعِكَ، الذي لم نسمعْهُ بعدُ، عن "زواجِ متعة"، لا غير! (توَبِّخهُ شين، وهي تتحوّل على حين غرّة إلى جذوة غضب، وتُهدِّدُ بمغادرة الاجتماع!).

22

لهفةُ الشرايين

دخانٌ كثيفٌ داخل مركبةٍ فضائية، غبارٌ أسود على سخّانة غرفة مانيارا، وعلى رفوفها المعدنيّة البرّاقة، خوفٌ أزرق يبتلعُ الجميع!

"عيد ميلادِ الشؤم!" تصرخُ خولةُ وهي توجِّه نافورةَ الإطفاء نحو مركز الحريق.

"أنا المسؤولة الوحيدة عمّا حدث، وعن توقيف أروعِ احتفالِ عيد ميلادٍ، لا مثيل له، في كلِّ التاريخ"، تُعقِّب مانيارا بأصابع ترتجف وكلمات طائشة، وأسىً ينبعُ من الصميم، لئلّا تؤنِّب خولةُ نفسَها.

أعينُ الذّكور الثلاثة وسواعدُهم ومضخّاتهم مصوَّبةٌ، بهلعٍ صامت، نحو النار التي تلتهمُ كتبَ مانيارا وأوراقَها.

تمَّ كبحُ جِماح الحريق سريعاً، لحسن الحظ، بفضل إسراع روبوتات الإطفاء، وتوغّلِها مع النوافير نحو بؤرة الحريق: قطعة البخور.

غير أنّ آثاراً داكنةً كثيرة ظلّت في الركن المجاور للسخّانة، وآثاراً نفسيّةً أشدَّ التصقتْ في أعماق الجميع، لا سيّما المسكينة مانيارا.

بعضُ عناوينِ صحفِ الأرض، مثل "مُجْمَرة تشعلُ حريقاً في مركبةٍ فضائية!"، أو " XxxXx00F تنقلُ عدوى 'دخانِ تخريبِ التوازنِ البيئيّ' إلى أقصى الفضاء"، زادت من تأجيجِ تأنيبِ مانيارا لِضميرِها، وتعميقِ أساها، وبدءِ معاناتها لحالةٍ نفسيّة سيئة، آلمتني على نحوٍ خاص.

بذلتُ المستحيل لِتهدئة حالتها، ومحوِ آثارها، وتوصيلِ رأي لجنة الإشراف للطاقمِ بمجمله: "انْسوا ما حدث، لا قلق، لا توتّر... اعتبروه خللاً عابراً! واصلوا حياتكم الرائعة كما كانت قبله!".

(كدتُ أُسرِّب تصريحي بعشقها، بين أسطر مراسلات تطميني الشخصيّ

لها، لكني لم أتمكّن، لم أتجرّأ. ويحي، لم أتجرأ. أيجوز لمن لم يصرِّح به في كوكب الأرض، على بعد 40 سنتمتراً من حبيبتهِ، أن يُصرِّح به على بعد 400 ألف كيلومترٍ منها، في لحظةِ ضعفٍ كهذه؟).

لم يصدم مانيارا منظرُ الحريق فقط، ولا التداعياتُ النفسيّة السلبيّة عليها إثره، ولا كونُ سيرتِها المهنيّة المذهلة (قائدة أطول رحلة فضائية، وهي في السابعة والعشرين من العمر!) ستظلّ ملطّخةً (مثل وردةٍ وسط مخاط، أو عسلٍ في مركزِهِ ذبابة) بما صار يُطلَق عليه، دوليّاً، حادثة "مجْمرة مركبةِ الفضاء"، لكن ما صدَمها، على نحوٍ خاص، كما اعترفتْ لي برسالةٍ رسميّة شبه شخصيّة، هو أنّ عليها الآن أن تتخلّص كليّةً من قطع البخور التي في حوزتِها، في أوّلِ مركبةِ مؤنٍ قادمةٍ لنقلِ النفايات، وأن تتوقّفَ كليّةً عن تنفّسِ أزكى أكسجين، يربطها دوماً بأرخبيل سقطرى وطفولتِها هناك. أي عن ممارسة أحدِ أجملِ طقوسِ حياتها الخاصّة وألذِّها (من يفهمهما أكثر منّي؟).

في ليلة الحريق (وفي الليالي التالية)، لم تستطع مانيارا النومَ في غرفتها. نامتْ في سرير خولة التي بذلتْ، على نحوٍ خاص، كلَّ ما في وسعها لتهدئة "أختها الصغيرة"، كما فعل أيضاً رفاقُ الرحلة الثلاثة.

ولعلّها نجحتْ، قبيل الفجر، في جعلِ من تناصفتْ معها السرير تنامُ سويعاتٍ قليلة لا تخلو من اضطرابٍ واضحٍ وأحلامٍ عشوائيّةٍ متعاقبة.

ما إن نامت مانيارا نوماً لا يخلو من الانقباض والتوتر، حتّى سمعتْ خولةُ أصداء كابوسِ جلال الذي عاودهُ مجدداً!

"آيييييي!"، همْهَمتْ.

تنهضُ بصمت باتّجاه غرفته. تجلس في طرف سريره. تمسِّد رأسَه كعادتِها، تحتضنُه، تحتضنهُ طويلاً هذه المرّة، لم تلاحظ أنه يحتضنها هو الآخر، برقّةٍ وحنان، إلّا عندما مسّدتْ أصابِعُه عنقَها، خدَّها، واندمجتْ أنفاسُهما.

لحظاتٌ طويلة مرّتْ كغيبوبة، كحلم... ثمّ تشتبكُ أصابعُهما. يضُمّان

بعضهما، يندمجان. تتنقّل أطراف أصابع كلِّ واحدٍ في جسدِ الآخر، في أعطافِه، في منحنياته، وكأنّهما يحتاجان بضراوة إلى تصديق أنّهما ليسا في حلمِ مسرَحُهُ فجرٌ ربّانيّ، على بعد 400 ألف كيلومتر من الأرض!

يمرّ ثغرُهُ في عنقِها، يُقبِّله، يصعد نحو صدغِها، ينغمر فيه. يستنشقها بكلِّ خياشيمه. تُبعِدُ عنقَها قليلاً عنه، لِيقترب ثغرُه أكثر من ثغرِها، ليتقابلا وجهاً لوجه. ثمّ تغمضُ عينيها (على نحوٍ آليّ لا واعٍ، في لحظةٍ ملائكيّةٍ كهذه، كما فعلتْ في "ساحلِ القُبلة الفائتة" في الأرخبيل)... ليبدآ قبلةً طويلةً رقيقةً عميقة، سكبا في أغوارها كلّ ما يخفيه لاوعيُهما من عشقٍ للآخر، معتّقٍ منذ سنين.

سكبا دمعاً أيضاً تعلّقَتْ كُراتُهُ الصغيرةُ في هواءِ الغرفة!

ثمّ طفقا يَلعَقان الدمعَ معاً، لئلا يتلوّثَ جوّ الغرفة المعقّم. يلعقانُه كطفلين، يبتسمان، يضحكان وهما يشربان دموعَهما. تطير منهما بلا وعيٍ دموعٌ جديدة، يلعقانها من جديد، ويضحكان. (اغرورقت عيناي من حلاوة وجمال المنظر. لن أنساهُ أبداً. سأعطي عمري، كلَّ عمري، لأعيشه مع "الأخت الصغيرة" لخولة!).

- قبِّلني دونَ توقّف (تقولُ نظراتُ خولة كما استنطقها جلال).

- لا أبحثُ إلا عن ذلك (يردّ بنظراتِه).

أوقفتْ خولةُ صولات وجولات قبلتهما الظامئة المشتعلة الطويلة، لتكتمَ ضحكةً خانتها، وهي تعترف:

- لعلّي عشتُ طوال هذه الأشهر الستّة، "وربما قبل ذلك"، بانتظار هذه اللحظة! وما دار بيني وبين رفيقينا، سباسكي وفيشر، لم يكن، في لاوعيي الدفين ربّما، إلا لأجلِ أن أقودكَ إلى هذه اللحظة التي كانت تبدو "مستحيلة"!

تنفّسَ جلال طويلاً. شعر أن عبارة: "وربما قبل ذلك" تعني: منذ وفاة

رنيم!

وكذا كلمة "مستحيلة": ربطَها بقرارهِ الوجوديّ السابق، بأن يعيش ما تبقّى من حياتهِ يستحضرُ ذكرى رنيم، ويبحث، كناسكٍ صوفيٍّ، عنها في كلِّ أرجاء الكون.

استعادَ ذكريات عبارةٍ غامضة جدّاً، قالتها رنيم، لم يتوقّف يوماً عن التأمّلِ بها. ولعلّه لم يستوعِبْها، أكثر أو أقل، إلا الآن فقط. ثلاثة أيّام أو يومان قبل وفاتِها، عندما لم يعد هناك شكٌّ من قرب أجلِها، قالتْ له في دوّامةِ لحظةٍ تراجيديّة غامضة:

- لحسنِ حظِّنا أننا لم نُنجِبْ!

- ...

- قد تستغربُ من سؤالي هذا: هل تعلمُ ماذا كنتُ سأطلبُ منك لو كان لنا أطفالٌ اليوم؟

- لا! (ردّ جلال، وهو يقبض على كفّيهِ، منذهلاً فعلاً مما يدور في البال في لحظاتٍ جنائزية كهذه، وينظرُ إلى الأرضِ بصمتٍ مرتجِف، وفي عينيهِ كلُّ أحزان الدنيا وأوجاعها).

- أن تفعلَ المستحيل لترتبطَ بخولة، أن تعشقَها وتتزوّجَها، لتكونَ بديلاً لي في رعايتِهم كأمٍّ غير بيولوجيّة. ما كنتُ لأثقَ بِحبِّهم والاهتمام بهم كأمّ، بَدَلاً عني، إلا بخولة فقط!

أفضى جلال لِخولةَ بالسرِّ المكتوم... تذكّرا رنيم!

"كأنّها كانت تُرتِّبُ حياةَ معشوقِها وتسهرُ على برمجةِ سعادَتِهِ بعد موتِها، مثل كلِّ عاشقةٍ حقيقيّةٍ تعلمُ أنَّ خسوفَها مؤكَّدٌ عاجِل!"، تمتمتْ خولة.

بكيا معاً من جديد، كثيراً هذه المرّة، وظلّا يلعقّان دموعاً طائشةً تطايرت في كلِّ أرجاء الغرفة. ارتباكهما كليّ. لم يستوعبا ماذا يحدثُ لهما منذ بدء هذا اليوم العجيب.

ثمّ عادا لِقُبلةٍ طويلةٍ اندماجيّةٍ حَرَّى، تنذرُ بعاصفة.

حاولا التوحّدَ وهما يطفوان في الغرفة. لم يُفلِحا، كما يبدو من إرهاصات تموّجاتهما المبعثرة. ثمّ ارتميا على السرير، وأغلقا على جسديهما بِحزامِه، لِيظلّا ملتصقَين به، وببعضهما، كي لا يتشرذما في طرَفي سقفِ الغرفة، جرّاءَ مَدِّهما وجزرِهما، على إيقاعِ لهفةِ شرايينهما وأشواقِهما المعتّقةِ العنيفة، وجاذبيّةِ جسدَيهما التي عوّضتْ غيابَ جاذبيّةِ الأرض، على بعدِ خطوتين من القمر!

لم يفلحا كثيراً أيضاً وهما مكبّلان هكذا، بقيودٍ كابحة. عادا مجدّداً لِقُبلةٍ عميقة كادت أن لا تنتهي. ثمّ محاولةُ توحّديّةٌ جديدةٌ (اعتبراها إرشاديّةً مفيدة)، مستميتةٌ وإن لم تُكلَّل بكثيرٍ من النجاح.

يلزم التعلّم أوّلاً، التكيّف، التشبّث، التشقلب، البحث عن حركاتٍ راقصةٍ ملائمة، عن تدريباتٍ جسديّةٍ جديدة...

أتذكَّرُ، كما لو قِيلتْ الآن، هذه الكلماتُ لإحدَى أحبِّ أساتذتي، عندما كنتُ طالباً في "كليّة الفضاء وميكانيكا السماء" في مركزنا الدولي:

"جسدُ الإنسان، بكلِّ مفاصلِه وأنسجتِه، معجونٌ بالحياة في حضنِ هذه الجاذبية. مُبرَجٌ، منذ ملايين السنين، للمشي والحركة والانبطاح والخفقان والانتصاب والانفتاح والتلاقح والتناكح والاندماج والإنجاب في ملكوتِها، وليس للطيران كسوبرمان، أو كفراشة، داخل قفصِ سفينةٍ فضائيّة".

ولن أنسى أبداً كلمات أستاذِ فيزياء رائعٍ أسبق، (في بداية دراستي الجامعية)، وإن كان، في نظري، شاعراً أكثرَ من كونِه فيزيائياً:

"قانون الجاذبيّةِ الفيزيائي الذي توحّدتْ بفضلِه ذرّاتُ الغازاتِ والغبارِ الكونيِّ الأوليِّ السحيق، غداة الانفجار الكونيّ الكبير، لِتتشكّلَ المجرّات، والذي سقطتْ 'تفاحةُ نيوتن' بفضلِه، هذا القانونُ الذي يُجذِّرُ أرجلَنا في أديمِ الأرض، ويؤلِّف بين قلوب الكواكبِ والنجومِ، وهي تموقعُ وتموضعُ

وتدور وترقص وتتناغم في مساراتِها، بل يموسِقُ الكونَ بمجملِه، هو المقابلُ الفيزيائي والتجسيدُ المغناطيسي للعشقِ والهيامِ المطْلَقِ بين البشر، للرغبةِ والعناقِ والتوحُّدِ والتناغم... خلاصُ الإنسان، في هذا الكون، يكمُنُ دوماً في فنِّ الحركة على إيقاعِ موسيقا هذه الجاذبيّة".

23

الحصن

العَبّارة تلفُّ وتدور في كلِّ الاتجاهات المتعاكسة، تتخبّطُ مثل صرصارٍ مقلوبٍ على ظهرِه!

رغم أن جدّي "أسرعُ الناسِ وجلاً، في لحظاتٍ مرتعشةٍ خطِرة كهذه" كما قال، "خوّافٌ هلوعٌ رعديد" عند اقترابِ طيفِ الموت، لم يراوده الفزَعُ كثيراً هذه المرّة! ولم يعرف لماذا لم يرتجف، ويتخلع فؤاده كعادتِه.

لعلّ رؤية النجوم مجدّداً منحَتهُ قليلاً من الأمل. ثمّة من يجيدون الاهتداء بها. أو ربما لأن هذا الجمعَ الغفير، الذي اعتاد على الملاحة والصيد والتهريب في هذه الطرق المقرصنَة، سيجدُ، في نهاية المطاف، حلّاً ما. لا يعرف...

أصرّ أحد الرّكابِ على أن تسير العَبّارة في اتجاهٍ واحدٍ فقط، يعرفهُ أكثر أو أقلّ، قادها قبيل الثامنة مساءً، قُرب جُزَيرةٍ مهجورةٍ صغيرةٍ جدّاً "لا تسكُنها إلا الفئرانُ فقط، وعائلةٌ كبيرةٌ واحدة، معظمُ أفرادِها مهترِئو الأجساد، لا يغادرون الجُزيرة. يعيشون على أكلِ السمك لا غير، كما يبدو. لِأَعْيُنِ جميع أفرادِها تقريباً بياضٌ غريبٌ في القزحيّة، جرّاء زواجِ الأقارب، أباً عن جد، كما أظن!"، كتبَ جدّي.

فرحٌ جماعيٌّ، عناق، قُبَل، ومليون "الحمد لله". شلّال سعادة.

قضى جميعُ الركّابِ الليلَ في شاطئٍ صغيرٍ، لا ترتادهُ الفئران والعقارب كثيراً جداً كغيرهِ من الشواطئ المجاورة، بانتظار الصباح (و"الصباحْ فلاحْ" حسب لسان حالهم)، بعد أن ابتعد شبحُ الموتِ قليلاً.

الجُزَيرةُ تبعد أكثر من سبعين كيلومتراً عن الأرخبيل. تمرُّ قربها سفنُ تموينٍ أحياناً، في طريقها إليه. لا حلَّ، كما يبدو، غير رفع علَمِ استغاثةٍ في علياء جبلٍ صغيرٍ، على أملِ أن يراهُ مركبٌ يعبر هذه الأصقاع.

مرّت فعلاً سفينةٌ في نهايةِ الصباح! رأتِ العلَم، استدارت نحو الجُزيرة،

وأخذتْ معها عدداً من الركّاب بينهم جدّي، واعِدةً بإرسالِ قوارب من الأرخبيل، أو قليلٍ من الديزل، لِرحيلٍ من تبقّى.

يجدُ جدّي نفسَهُ في مكتبِ مدير معسكر الجيش الذي أربكَهُ وجودُ هذا الشاب المختلف الغريب، رغم ملاحظتهِ أنّ لهجتَهُ العدنيّة نقيّةٌ خالصة.

"حتّى لا يعتبرني جاسوساً، أو 'متآمراً إمبرياليّاً رجعيّاً خطِراً يتربّصُ بإنجازات الثورة ومصالح الكادحين'، حسب بلاغة ذلك الزمن، وحتّى لا يُطيلَ التحقيقَ معي، سكبتُ كلّ ما في حقيبة ظهري السوداء على مكتبه، أفرغتُ جيوبي، وشرحتُ له باقتضابٍ لماذا أنا هنا.

تطمّنَ سريعاً. طلب منّي أن أتلْفِنَ حالاً، من مكتبهِ، لِأمّي وعائلتي التي لم تتوقّفْ، 'بكلِّ قلقِ الدنيا' (كما قال)، عن الاتصال بالمعسكر، بل لعلّهم بدؤوا الحديث عن أداء طقوسِ الصلاة عليَّ كَـ'ميّتٍ غائب'!

ثمّ أعارني غرفةً في المعسكر، لمدة أسبوع، لأنامَ فيها، قبل العودة في طائرةٍ حربيّة إلى عدَن، بعد أن لاحظ أنّي لا أمتلكُ ثمن شراءِ تذكرة العودة!"، يكتب جدّي.

"ما إن خرجتُ من المعسكر بعد دقائق، متلهّفاً لرؤية الجزيرة، وبدأتُ أسبوعاً من التسكّع في شواطئ قلنسيّة (في شمال غرب الجزيرة)، براري دقْسم ومحمياتها الطبيعية، كهف حوق التاريخيّ الشهير، وسط العاصمة حديبو، وأطراف الجزيرة حيث لا يتّجِهُ أحدٌ، حتّى سكنني عشقٌ سيزداد مع الزمن، لِهذه الأرض.

أيقنْتُ أنّ النعيمَ الذي أحلمُ بهِ يكمن في العيش هنا، مع هؤلاء البشر البريئين الطيبين البسيطين، في أجمل فردوسٍ في الكوكبِ الأزرق"، يضيف جدّي.

لم ينم في المعسكر إلّا ليلتين. ما تبقّى من ليالي الأسبوع قضاهُ هائماً متمرّغاً في سواحلِ الجزيرة، في الهواء الطّلْق، تحت النجومِ هنا أو هناك، عدا مرّة واحدة نام خلالها في كوخٍ صغير، سنُسمّيهِ في عائلتنا: "الحصن".

كان ذلك عقب تسكُّعِهِ في أحد أطراف الجزيرة، عندما رأى شيخاً يحتاجُ إلى من يدفع سيّارتَه بضعة أمتار، كي يستطيع تشغيلَ محرّكِها، "إن شاء الله".

كان جدّي الوحيدَ الذي يطوف في شِعابِ هذا الطّريقِ النائي، غير بعيدٍ من سيّارةٍ "مُدَقْدَقَة".

بادر، بكلّ محبّة وحماسة، لمساعدة الشيخ الذي قال له مقدّماً، بلهجةٍ سقطريّة نقيّة:

- قضَتِ السيّارة نحبَها قبل دهر. لا يمكنها أن تسير الآن إلّا على بركةِ الله فقط ورضوانه. لِنتوكل عليه!

دفع جدّي السيّارةَ بكلّ قوى يديه. عبثاً! "سيزيف في سُقطرى!" يقول لِنفسِهِ باحثاً، وهو يلهث، عن مبرّرٍ للمرح. عشرات الأمتار دون أدنى أمل، حتى انطلق المحرّك فجأة. إعجازٌ حقيقيّ!

دعاه الشيخ ليركب معه. صارا صديقين في ثوانٍ. طاف به، في طريق عودتِهِ إلى القرية، أماكنَ لا يصلها أحد، أكثرَ سحراً من كلّ ما رآه.

ثمّ دعاه إلى العشاء مع عائلته الموزّعةِ على أكواخٍ ثلاثة. تناولهُ جدّي معهم، تحت النجوم، في لحظاتٍ مُسكرةٍ ساحرة، وصفَ في مذكّراتِهِ طويلاً براءتَها وطيبتَها ولذّتَها...

عرض عليه الشيخُ النومَ في كوخِهم الرابع الذي لا يستخدمونه إلا في الأعياد وبعض المناسبات، عند مجيء أقاربِهم من جزيرَتي سمحة وعبد الكوري. وافقَ بكلّ سعادة.

قِصّتُنا مع "الحصن" بدأتْ من ذلك اليوم. عشقَ جدّي القريةَ وأهلَها من أوّل نظرة. لم يجد سعادته القصوى إلا فيه. المنظر المواجه له "كلّيّ"، كما كتب: يُطلُّ على البحر والجبل، على المروج وغابات دم الأخوين، على الينابيع والرمل الأبيض... يمغنط الروح ويأسر الجسد.

عادَ إلى القرية في بعض إجازاتهِ للأرخبيل (بِطرقٍ تقليديّةٍ شرعيةٍ هذه المرّة). ربطتْهُ بأهلها علاقةٌ حميمة، كما لو صار جزءاً من الأسرة.

في ثالث زيارة، استأجرَ الكوخَ بمبلغٍ شهريّ من صديقهِ الشيخ، سامحاً لهم باستخدامِه كالعادة عند الحاجة، خلال غيابه.

وفي سابع زيارة اشتراهُ منهم، على الاتفاق نفسه، جدّدَ سريرَه، طوّرَ مطبخَه، أصلحهُ وطلاه، وأعادَ هندَستهُ ليكون من غرفتين، إحداهما مكتبٌ صغيرٌ يواجِه البحر وغروب الشمس.

على منهج جدّي، جاءت أمي وأبي، في كثير من الإجازات، لزيارة الأرخبيل. ارتبطا بالعائلةِ والكوخ، على المنوالِ والحميميةِ نفسِهما. تعلّقا بالحصن.

أطولُ وأهمُّ زيارةٍ لهما، من ألمانيا إلى الحصن، كانت في شتاء 2020.

توفّي جدّي قبل هذه الزيارة بأشهر، ولحقتْهُ، بعد أسابيع، جدّتي الحبيبة (لروحِهِما الرحمة والخلود!).

حدثتْ مفاجأةٌ "سعيدةٌ" أثناء تلك الرحلة: اجتاح وباءُ الكوفيد العالَمَ، ومُنِـع دوليّا السفرُ بالطائرات!

بقيَ والداي مضطرَّينِ، رغما عنهما (لكن بكلِّ سعادةِ الكون)، في الأرخبيل عاماً كاملاً!

"أسعدُ عامٍ في حياتنا قاطبة" كما تقول أمّي!

العالَمُ مصفّدٌ مخنوقٌ داخل علبة ساردين، وهما، بنِعالِ الريح، يطوفانِ الأرخبيل ومحميّاتِه وبحاره، ينعمانِ بالشّروخ والمحاراتِ البحريّة، بعيداً عن كرةٍ أرضيّةٍ مضطربة، موبوءةٍ على غرار قرون الطاعون الأسود أو الإنفلونزا الإسبانيّة. اجتاحها فيروسٌ جديدٌ أرعبَ العالَم، ووحّدَ هلعَهُ ورعشاتِه.

وبعيداً أيضاً عن مآسي بقية اليمن التي كانت تعيش، خارج الأرخبيل، حروباً متداخلة، وتدهوراً بدأ قبل ستّ سنواتٍ من عام الكوفيد، ثم قاد،

رويداً رويداً، إلى انهيارِها.

لم يعِش أحدٌ "تصفيداً كوفيدياً أرستقراطياً بهذا الجمالِ والسحر" مثلَ والديَّ، لا سيّما أنّ أمّي أنجبتْ هناك طفلاً، أسمياهُ "حديبو" (وإن يلفظ الكثيرون حرف الدال بالباء): سارِد هذه الرواية!

صورُهما، وهما يطوفان الأرخبيل معاً بدراجّةٍ ناريّة، وأمّي حُبلى بي، تشعشعُ في جدار صالون منزلنا الألمانيّ إلى الآن. لا أملُّ التحديقَ المفتونَ بها وبِصورةٍ أخرى لأمّي وهي تحمل قطعة شروخٍ هائلة!

تحفةٌ فنيّة هذه القطعة، من نوعٍ بيولوجيّ أرستقراطيّ نادرٍ جدّاً، لا يوجَدُ إلّا حول سقطرى، وفي شواطئ قربَ عدَن، كما أظنّ.

تتلألأُ في كلِّ صدفٍ لحائها وجوانبها ومجسّاتها الألوانُ الطاؤوسيّة البنفسجيّة والذهبيّة والزرقاء الناصعة وتتداخل مع كلّ تنويعات ألوان قوس قزح، في أشكالٍ انسيابيّة ومنحنياتٍ بديعة، بِتصميمٍ مدهش. يا لها من لوحةٍ ساحرة!

لم يزر هذا الطفلُ الأرخبيلَ مجدداً، بعد مغادرةِ والديهِ الحبيبين، لأنّ اليمن كانت قد دخلتْ نفقاً لا ضوء في نهايته.

في طفولتِهِ، منذ أن هيمنَتْ دناصيرُ المال والتكنولوجيا على كوكبِ الأرض بأكمِلِه، وقادتْ مجموعَ بقاعهِ وبلدانِه، على نحوٍ مباشر أو غير مباشر، كان اليمنُ قد بدأ الاحتضار تقريباً: تخثّر في دوّامةِ ثالوث ثوابتِه: السلفيّة، القات، النقاب، وتشظّى إثر هيمنةِ عصاباته السلاليّة وصراعاتِ مليشيّاتِه وحروبِه الداخليّة الدائمة، مثلُه مثل دولٍ يحكمُها طغاةٌ فاسدون متأبِّدون، لم تغادر بلدانُهم حياةَ الماضي السحيق، حتّى اندثارِها.

أصيبَ اليمنُ، مثلها جميعاً، بالموتِ الدماغيّ كليّةً: عصفَتْ بمعظمِ ساكنيهِ الأمراضُ والأوبئةُ والمجاعات والفقر والقهر القاتل، في عالمٍ تناساهم أوّلاً، ثمّ نساهم كليّةً وهو يلهثُ وراء همومِهِ الخاصّة.

"عندما تحكمُ بلداً سلطةٌ إماميّةٌ قرونُ وسطيّة، تُلغي رواتبَ الناس الشهريّة (باعتبارها بدعةً لم توجد أيّام الرسول)، تعتبرُ اللقاحَ ضد أي مرضٍ قديم أو حديث، من شَلَلِ الأطفال إلى الكوفيد، 'مؤامرةً يهوديّة'، وأيّ أدويةٍ ضدّ ضغط الدم والسكّري 'منتجاتٍ بترولية'، ممنوعةً محرّمة، فالطريق نحو الانهيارِ قصيرٌ، سريعٌ ومثاليّ!"، كما قال كاتبٌ يمنيٌّ فذّ.

ما حصل لليمنِ وأشباهِها يُعتبرُ "من أكبر كوارث منتصف القرن الواحد والعشرين" كما يقول المؤرخون، بحزنٍ صادقٍ أحياناً، قبل أن يضيفوا: "تاريخ البشرية تراجيديّاتٌ دائمة. تموتُ حضارات، وتنقرضُ من ذاكرة الأجيال أحياناً. تفرغُ مدنٌ كاملةٌ من سكّانِها، بسبب الإبادات أو الطردِ أو النزوح، ويحلُّ محلَّهم سكّانٌ آخرون، لاستبدالِهم عن قصدٍ أو غير قصد". ثمّ يضيفون مسكَ الختام الذي يَسقط كالمطرقة وسطَ الجمجمة: "الماضي ثقبٌ أسود (بالمعنى الفيزيائيّ للكلمة). يشفطُ من يأبى إلا أن يعيشَ فيه، من يدورُ حولَه، ومن لا يستطيعُ تجاوزَ مجالِ جاذبيّتِه بالسفرِ نحو فضاءات المستقبل، الأكثر فأكثر بعداً".

ثمّ عاد حدييو، بعد نحو عقدَين من ولادته، في أواخر ثلاثينيات هذا القرن الواحد والعشرين، إلى مدينةٍ تحملُ اسمَه، للدراسة الجامعية، في كلّيّة "علوم الفضاء وميكانيكا السماء"، متخصِّصاً في قسم "قيادة الرحلات الفضائيّة".

اعتبروه هناك ممّن يسمّونهم اليوم "السكّان الأصليين"، أو "يمنيّي 48": أقليّةً صَمَدتْ رغم دمار بَلَدِها، قاومتْ احتضارَهُ ما استطاعت إليه سبيلاً.

أروعُ مثلٍ على ذلك: مانيارا، ابنةُ عائلةٍ فلّاحيّةٍ عريقة، اعتجنَ عرَقُها، أباً عن جد، بنسغ شجرة دمِ الأخوين ("دم العنقاء" كما يُطلقُ عليه)، منذ أن كانت سقطرى ملتصقةً بالقارّة الأفريقية!

حالُنا الاثنين في ذلك حالُ آخر "الهنود الحُمر"، وبقايا بشرِ حضاراتٍ اندثرتْ: "المايا"، "الإنكا"... لجأنا، في صراعِنا من أجل البقاء، لِلسهرِ لِتحصيلِ العِلمِ والمعرفة، واكتسابِ ثقافةِ الحضارة الحديثة، عبر الإنترنت والتعلُّمِ عن بُعد، أو عبر الهجرةِ المؤقّتة، قبل العودة. ثمّ، لاحقاً، عبر

التحصيل في الجامعات الحديثة التي بُنيت في الأرخبيل، وبقيّةِ اليمن "الجديد". لكنّ نواحنا يوميٌّ، وعويلنا لرثاء ما حصل لبلدِنا دائم.

كلانا مكافحان، كلٌّ بطريقته، من أجلِ بقاء آخر جينات شعبٍ يمنيٍّ مسحوقٍ طيّب، تعثّرَ عن مواكبةِ الحضارة، فابتلعَهُ صراعُ الشعوب الدامي من أجل البقاء.

شعبٌ يستحِقُّ الجنّةَ بمجملهِ تقريباً، إن كانت هنالك جنّة، لأنّهُ آخرُ مَن آمن بها!

24

برنامج عمل الزواج

تحاولُ الشاعرةُ شين أن توقفَ بصعوبة زوبعةَ غضبِها، وتمالكَ نفسَها. بصوتٍ رخيم، وأداءٍ بروفيسوريٍّ اصطناعيٍّ هادئ، تُوجّهُ سؤالاً عمودياً لِنون لِترغمَهُ على كشف بيت القصيد سريعاً:

– هل يمكن أن تقرأ "مشروعَ العمل" الذي وعدتَ به، وتكفَّ الآن عن هذه الثرثرة والوعظ والكلام الفارغ الذي أصابني بوجعٍ في الرأس!

– كلُّ ما قلتُ في كلمتي الاستهلالية هذه، له علاقة، في الحقيقة، حبيبتي الشاعرة شين، بالبندِ الأوّل من مشروعِ العمل! (يردّ نون بهدوء).

– حسناً، أسرِع الآن، وقلْ لنا، دون هامش أو تعليق أو استدراك، ماذا يحوي هذا البندُ الحلزونيّ. "جبتَ لنا الدوخة" فعلاً! (قاطعتْه الشاعرة شين بِلكنةٍ لا تخلو من التعب والقرَف واليأس).

يجيبُ نون بهدوءٍ أكثر، وبثقةٍ وراحةِ بالٍ وضمير يُحسدُ عليها:

– مداخلتي التمهيديّة الطويلة (اعذرنَني حبيباتي الأبديّات) مرتبطةٌ بإعادة النظر بمستقبل مصائرِنا في حالة قبول وإقرار مشروعِ زواجنا!... لن يكون "زواج متعة" طبعاً. غير أن محطّاتنا الأخيرة سوف تختلف، وربما سنفترق، إذا أصررتنّ على عدم الرجوع لِكوكبِ المهد: من جهتي، إذا لم ننجب أطفالاً، فسيتوقّفُ للأسف ويُلغى تعاقدُ زواجِنا، حال عودتي إلى الأرض. أمّا إذا أنجبَتْ إحداكنّ فقط، فلستُ ممن يتركُ أطفالَه في كوكبٍ، ويعيشُ في آخر، معاذَ الله. سأغادر كوكبَ الأرض معكنَّ إلى أحدِ كواكب الفيدرالية، إلى الأبد، خاضعاً مهزوماً وأمري لله!

صمتٌ دام لحظاتٍ طويلة. كان الجميع كمن سقطَ على رأسهِ الطير بعد مفاجأةِ ما قال، قبل أن تُعلّقَ الفيلسوفةُ فاه مندهشةً، وهي تلفتُ الأنظارَ كالعادة ببهائها، وبتناغم ألوان فانيلتها السوداء، شورتها الرماديّ، وشعرِها

الأشقر أيضاً:

- آه، كلامٌ مفاجئٌ عجيب! الموضوع أهمُّ وأكبرُ جدّاً من توقّعي! حسناً، سيُناقشُ "اتحادُ نساء Yyy4+1W" مشروعَك، بعد قليل! آه، عفواً، كم عدد البنود الباقية، وهل يمكن اختصارها شفويّاً، قبل نقاشِنا، الأربع، للمشروع المكتوب؟

- بكلّ تأكيد، وبكلّ سعادة، آنِساتي الجليلات!

ثم أضاف:

- سعادتي لا حدّ لها بالحديث مع أي واحدةٍ منكنّ فقط، فكيف إذا كان مع الأربع معاً. وكيف لو كان ذلك أكثرَ من مجرّدِ حديث: زواجٌ رباعيّ عاشق، على أسسٍ سليمةٍ ومتينة؟ أخشى فقط أن أموت من السعادة، لو قبِلتُنّ مشروعي.

- قلتُ لكَ: اذهبْ عموديّاً إلى بيت القصيد، نون العزيز، بدلاً من هذه المغازلة الفوسفاتيّة. كم عدد البنود؟ (تُسائلُه الشاعرة وهي تتأوّه زفراتِها بحرارة، كمن تريد أن تخنقه).

- هناك ثلاثة بنود إضافية (يردّ).

- ما هو البند الثاني؟ اختصرْهُ بكلمتين، دون تسويفٍ ومقدّماتٍ مطّاطيّة (تواصل الشاعرة توجيهَ ردودِه للوصولِ إلى الهدف، عبر أقصر طريق).

- البند الثاني مرتبطٌ بتنظيمِ نكاح حياتنا الزوجيّة اليومية!

- هو الأهم، بالطبع! هاتِ ما عندك باقتضاب، دون استهلالاتٍ طويلة وخطبٍ عريضة هذه المرّة (تدخُلُ صاحبة العينين الزرقاوين الرماديتين على الخط).

- لِضمانِ مساواةِ وسعادةِ الجميع، حبيبتي زاي، واحترامِ كلِّ الخصوصيات والرغبات، يتقدّمُ كلُّ واحدٍ منّا الخمسةُ في بداية كلِّ أسبوع، بإرسال رغباتِه إلى تجسيدٍ كمبيوتريّ (أفاتار avatar)، يلعبُ دور المُجَدوِل

(scheduler)، دون اطلاعِ أحدٍ عليها. يُحدِّد فيها مزاجَه، ورغبتَه في طريقة قضاء هذه الليلة أو تلك، من ليالي الأسبوع: وحيدةً أو معَ زوجِها (بالنسبة إليكُنّ)، وحيداً أو غير وحيد (بالنسبة إليّ)، دون تحديد اسمِ أي شريكةٍ إطلاقاً)! يُنظِّم المُجَدوِلُ ويحسمُ لوحدِه الاختيارات النهائية، ويرسل لنا الجدول الأسبوعي كخارطة طريق، آخذاً بعين الاعتبار طلبَات الجميع، وملتزِماً، على نحوٍ دقيقٍ صارم، بمبادئ المساواة واحترام الخصوصيات، واللجوءِ إلى القُرعة عند تداخل رغبات هذهِ أو تلك، في هذه الليلةِ أو تلك، أو عند رغبةِ الزوجِ في الاستراحةِ والعزلة.

- والبند الثالث؟ (تفضُّ البيولوجية باء السكوتَ المفاجئ الذي خيّمَ على الصالة، وحالة الاستنفار والانتظار بعد إجابةٍ بدَتْ صادمةً أوّلا، ثمّ معقولةً إلى هذا الحدِّ أو ذاك، ذات آفاقٍ مفتوحة، تستحقّ، في كلِّ الأحوال، الدراسة والنقاش الجماعيّ في الاتّحاد).

- الثالث، حبيبة قلبي باء، خاصٌّ بالطلاق. أسهلُ البنود. يكفي أن يرغب أحد الزوجين، في أيِّ ثُنائيٍّ منا، بالطلاق، ليتمَّ قبولُ طلَبِه فوراً.

تتململُ الفيلسوفة رئيسة الاجتماع، تتأفّفُ قليلاً، تماطل في إخراج جملتها، ثمّ تقول بصوتٍ مرتابٍ خجول:

- ومن القاضي الشرعيّ الذي سيكتب عقدَ الزواج، ويقرُّ الطلاقَ، على نحوٍ رسميّ؟

- سهلٌ جداً، قائدتي وحبيبتي الفيلسوفة فاء! هذه مهمة البندِ الرابع الأخير من مشروع العمل: يختار الكمبيوتر، بالقرعَة، لكلِّ واحدةٍ منكنّ واحدةً أخرى، تكون القاضيةَ لِزواجِها بي. وطلاقي منها أو طلاقها مني، لا قدّرَ الله! ويختارُ، بالقرعةِ أيضاً، اسمَ الدِّين الذي سيتمّ الزواجُ بهِ، على أصولِ طقوسِ الزواج التقليدية فيه، الإسلامية كانت أو المسيحية أو اليهوديّة. وكذلك حال الزواج الرابع أيضاً، ينبغي أن يكون على الأصول المدنيّة تماماً.

تتذمّر الكتكوتة السمراء الجميلة باء معترضةً ساخرة:

- ياااااااه! مهزلة، يا عمّ الحاج! أكبر مهزلة!

قبل أن تضيف:

- عندما تكون الزوجة هي القاضية الشرعيّة لعقدِ زواجِكَ بأخرى، فهذا لا يتناسب كثيراً مع التقاليد الدينيّة وغير الدينيّة، كما أظنّ! استخفافٌ بها، وتفجيرٌ كليٌّ لها! غباءٌ مطلَق! لذلك، حتّى لا تكون مُضحكاً جداً، حبيبَنا نون، ولا تكون كلٌّ واحدة منا أشبه بثعبانٍ يلتهم ذيله، لِيكُنْ أفاتارٌ كمبيوتريٌّ آخرُ القاضيَ الشرعيّ الوحيد، على الأقلّ!

- وكيف ستكون الاحتفالاتُ داخل المركبة، إذا قبلنا الأربع مشروعَك؟ (تسأل زاي وقد خفّ التشنّجُ من الجميع، ولاحتْ بشائرُ وأنصافُ ابتساماتٍ حائرة، واعدةٍ هنا وهناك).

(أقول لنفسي، وزميلي المشرفَ على رحلة Yyy4+1W يسرد لي يوميّاتها التي تجاوزت كلّ ما خطر ببالي: "هؤلاء المجانين في عالَم، ومجانين بيغاسوس في عالَم آخر!").

- اسمعْ: لا عقدَ لِزواجٍ تقليديٍّ، حبيبنا نون، بلا ملابس فولكولورية لكلِّ حفلة، بلا وليمةٍ وحفل عُرس، بلا رقصٍ وزمبليطات! هل فكّرتَ في ذلك أيضا؟ (تسأل الشاعرةُ شين، وهي تحرّك ذراعيها وصدرَها المتماوجَ بهزّاتٍ بشوشةٍ شرقيّةٍ راقصة، على طريقة تحيّة كاريوكا، راقصة جدّي المفضّلة).

تحكُّ الفيلسوفة رأسَها بتركيز. تنظر باتّجاه رفيقاتها بعينين ثاقبتين، قائلةً بنبراتٍ قياديّة جليّة حاسمة:

- أقترحُ أن ندعَ مجنوننا الجميل، الرفيقَ نون، يخرجُ للاستحمام، خارجَ المركبة، بحثاً عن نداء العدَم في "جزيرة الوحي"، لنُناقشَ مشروعَه الكتّابيّ، نحن الأربع لوحدِنا في "اتحادِ نساء Yyy4+1W"، بِترَوٍّ وهدوء!

خرجَ نون لتوّهِ سريعاً وسعيداً بهذا السماح، غير المتوقّع (أو الطّرد المقنّع، في الحقيقة)، من قبل الكابتن فاء التي نسِيَتْ (أو تناستْ، دون وَجل) أنه

من الخطورةِ على الصحّةِ بمكان هذا الاستحمامُ المتكرِّر، في فضاءٍ مشحونٍ بالأشعة الكونية والرياح الشمسيّة!

ثمّ عاد نون بعد أكثرَ من ساعتين، كمن وُلِدَ من جديد، أو كمن جاءهُ الوحيُ فعلاً، وإن تشبّعَ جسدُه بإشعاعاتٍ "عواقبها، تاللهِ، وخيمة" كما قالتْ لهُ البيولوجيّة باء ذات يوم.

ما إن يخلعَ بدلتَهُ الفضائيّة، حتّى تخترقه رماح نظرات الفيزيائية زاي، وهي تواجِهه بقراراتِ وتوصياتِ الاجتماعِ المكثَّفِ للاتحادِ، كما لو عُيِّنتْ ناطقةً رسميّةً باسمِه، قائلةً:

- أقرَّ الاجتماع، قبل اتخاذِ قرار الرفض أو الموافقة النهائية على المشروع، أو تعديلِه، تجريبَ البند الثاني منه، ابتداءً من هذه الليلة، وخلال أربعةِ أسابيع. يتمّ بعد ذلك، في ضوء نجاح أو فشلِ التجربة، عقدُ مؤتمرٍ استثنائي للاتحاد، لاتّخاذِ القرار النهائي بميثاق الزواج الجماعي!

25

تأثير التقلّص المريع

تُدرِكُ خولة وجلال أنّهما عاشا، منذ يوم عيد ميلادها الثلاثين، أجملَ شهرِ عسلٍ يمكن لِعاشقَينِ، في كوكبِ الأرض والمجموعة الشمسيّة، أن يحلما به: وَلهانَين متعانِقَين معظم الوقت، يتعلّمان الرقص كلٌّ في جسدِ الآخر بِحُريّة، هائمَين محلِّقَين في أرجاء الغرفة، أو مُلتصِقَينِ بالسرير، أو مكبَّلَينِ بأحزمةٍ تربُطهما به، يُعوِّضان الزمنَ الضائع، على بعد خطوتين من القمر.

موعدٌ انتظراهُ معاً، بلا وعي، منذ أبديّةٍ، أو ربما أبديّتين...

يعرف الجميع، بفضل نسبية أينشتاين، أن رواد الفضاء الذين يعيشون في مركباتٍ تسير بسرعاتٍ خارقة، يمرّ عليهم الزمنُ أبطأ من مروره على القابعِين في الأرض. (وعند عودتِهم إليها، يكون الرائد أصغر عمراً ممن كان بعمرِه قبل سفره!).

بيدَ أن ما لا يعرفهُ إلا جلال وخولة، اللّذان تحوّلتْ معهما النظريةُ إلى ممارسةٍ عمليّة وتطبيقٍ فعليّ دائمٍ ومثابر: تمرّ ساعات الجِماع والنشوة الجنسيّة هناك أبطأ بكثير من مرورها على الأرض، بعد أن أجاد الثنائيُّ المبدعُ التناغمَ مع بيئتهِ الجديدة. تمدّدُ، تستطيلُ، تتعمّقُ، تكاد ألّا تنتهيَ أحياناً!

دهشةُ الصوفيّ جلال من مفاجآت وسحر هذه الظاهرة البيولوجية الفيزيائية الفظيعة، ودهشةُ حوريّتِه صاحبةِ الاسمِ الإيروتيكيّ اللذيذ، لا تتوقّفان.

الفضاء أفضلُ مكانٍ لقضاءِ شهرِ العسل، للعمرِ كلِّه!

خولة وجلال، في الواقع، جسدان صلصاليّان ذكيّان، "واحدان" بكل ما تكتظُّ به هذه الكلمة الساحرة الفذّة من دلالات رومانسيّة كثيفة: يعرفان كيف يتشبّثان ببعضهما بعضاً، كيف ينجرفان معاً على نحوٍ متناغم، كيف يتحوّلان إلى عصفورين متعانقين في رحلةٍ موسميّةٍ طويلة، كيف يتشقلبان ويتفاوضان مع ميكانيكا قيودِ وحريةِ الحركة في الفضاء ويحوّلانهما إلى

ينبوعِ لذّةٍ ونشواتٍ متتالية، إلى منبع ضخّ للدم ليكون في خدمة توحّدٍ عميقٍ لا ينتهي، كيف يبتكران 36 وضعاً جنسياً عبقريّاً جديداً تتلاءم مع ظروف الطفو في فضاء المركبة، منها: تحية القمر، كاماسوترا الصوفي، صلاة الإطلالة الشاملة، ما وراء الأكمة، أوركسترا العصافير، القبلة الأبدية، عشق الفراشات، خلطة بيغاسوس، رقصة بيغاسوس، أغاريد وأهازيج قمرية، أشواق أوليمبوس...

نقصُ الجاذبية يحوّل معهما إلى فيضٍ من قصائدِ نثرٍ تطبيقيّة حرّة، إلى انزياحاتٍ طائشة!

من يرى هذين الملاكين متوحِّدَين في الفضاء، يستوعب كيف استطاع هوموسابيان التكيّفَ دوماً مع ظروف حياته الجديدة، وكيف يطوِّعها بذكاءٍ وألمعيّة لمزيدٍ من النعيم على كوكب الأرض، وفي الفضاء أيضاً.

أمّا مانيارا فقد دخلتْ، منذ ما يُطلقُ عليه الجميعُ "حادثةَ المجْمرة"، في وضعٍ نفسيٍّ بائسٍ متدهورٍ مثلي، تحاولُ إخفاءَهُ ما استطاعتْ إليه سبيلاً، بعد زلازِلِ عناوين الصحف الأرضية الساخرة، على غرار: "مجمرةٌ تشعلُ حريقاً في مركبة فضائية!"، وإن لم تكن هناك مجمرةٌ أساساً.

لم تعدْ تطيق غرفتَها، رغم تنظيفِها من قِبَلِ رفاقِها الأربعة، وإزالةِ معظمِ آثار الحريق. أضحتْ غرفةُ خولة مأواها الرسميّ: تمَّ تسفيرُ بعضِ أمتعةِ خولة وجلال إلى غرفة مانيارا السابقة، فيما أمستْ غرفةُ جلال واحةَ شهرِ عسلٍ لا يتوقّف، تصِلُ بعضُ أصداءِ شهقاتِهِ المكتومةِ الطائشةِ الليليّة الطويلة أحياناً، على نحوٍ عفويٍّ لا إراديّ، إلى مسمعِ مانيارا، سباسكي وفيشر!

حال انتهاء شهر العسل الرسميّ، بدأ الطاقمُ يتفاوضُ، لعدّة أسابيع، مع الإداراتِ الأرضية للمجمّعات الصناعية المتناثرة في القمر، للهبوطِ فيه لمدّةٍ قصيرة.

لم يعد ذلك ممكناً: تحوّلَ، رويداً رويداً، إلى إقطاعيّةٍ خاصّة (لا سيّما قطبه الجنوبيّ الغنيّ بالماء) تمتلكها أكبرُ حيتانِ رؤوسِ الأموال والشركات

التكنولوجية في كوكبِ الأرض، منذ أن صار محطّةً لانطلاقِ الرحلات الفضائية الاستكشافية نحو الكواكب القريبة والبعيدة، وفناءً لمصانع توليدِ الطاقةِ الشمسيّة الموجّهة إلى الأرض، وكنزاً للبحثِ عن المعادن والعناصر الكيماوية النادرة، ومملكةً لِـ"سكّانه الأصليين" (كما يُطلَق عليهم): الروبوتات المؤنسنة الذكيّة وملّاكهم الأرضيّين!

أضحى إقطاعيّو القمرِ يفرِضون شراءَ الفيزات المؤقّتة من "شركات الاقتصاد القَمَريّ"، لأيِّ زيارةٍ سياحيّةٍ إليه، بل يمنعون بعض الرحلات، خوفاً من وصول غُزاةٍ جددٍ لبطاحٍ ما زالت عذراء كثيرة، في أنحاء بعيدة منه.

يُهدِّدون بتفجير أيِّ مركبةٍ "تخترقُ أجواءَهم القوميّة"، تصلُ القمرَ بلا فيزةٍ سياحيّة، ويُطلقون أحياناً شعاراتٍ عنصريّةً لمنع الهجرة الإنسانية إليه، على غرار "القَمَر للقَمَريّين!"، أي: لِسكّانهِ "الأصليين"! يا ويلي!

كلّ ذلك باسم النوايا الحسنة، طبعاً: "منعُ الإنسان من مسّ التوازن البيئيّ للقمر، والإضرار به، كما فعل في الأرض"! يا لَهوي!

في كلِّ الأحوال، راداراتُ روبوتاتِهم القاتلة الذكيّة بالمرصاد لكلِّ من يحاول التسلّلَ إلى "مقبرةِ الغزاة"، أو عدمَ الخضوع للقوانين الرادعة السارية في "المحروسة بإذن الله" كما يُطلِقونَ على إقطاعيّتِهم القمريّة!

مع توالي الأيام والأسابيع، وعبورِها ثقيلةً على مانيارا، لم تعد جلالتُها تطيق البقاءَ في هذه المحطّة الفضائية القمريّة التي شهدتْ "حادثةَ المجمرة".

اقترحتْ، على الجميع، بعد انتهاء شهرِ العسل وبعد فشلِ محاولات الهبوطِ إلى القمر، الانطلاقَ نحو مدارٍ مُجاورٍ للمريخ! هروبٌ خطِرٌ إلى الأمام، رحلةٌ طويلةٌ ترتعدُ عند سماعِها الفرائص! أكثر من 400 مليون كيلومتر، في سفرٍ سيدوم أكثر من 30 يوماً!

ها نحن، كما نراقب بقلقٍ في مركزنا الفضائي، أمام مشروعِ رحيلٍ مختلف: لا علاقة لمقاييسهِ بالرحيلِ نحو المحطّة الأولى لبيغاسوس في المدار المنخفض

لكوكب الأرض، على بُعد مئات الكيلومترات فقط، أو الرحيل الثاني (مئات آلاف الكيلومترات)، نحو ما صارت تُسمّى في الصحف العالمية: "محطّة المجمرة"، في مدار القمر المنخفض.

رحيلٌ طوله مئات ملايين الكيلومترات، باتّجاه الكوكب الأحمر. تَحَدٍّ يتجاوز محدوديةَ الجسد الإنساني وطاقاته.

ثمّة شيءٌ لا إنسانيٌّ مخيفٌ فعلاً في هذه المغامرة الجديدة.

يعرف الخمسة أن ثلاثين قريةً سياحيّةً في المريخ (لم تطأها بعدُ رِجلُ إنسان)، مؤثّثةً بأحدث الكبسولات الفضائية، والروبوتات الذكيّة المتخصِّصة بكلِّ المجالات الخدماتية والصناعيّة والطبيّة، تفتح أحضانها لبيغاسوس، إن قرّرَ فريقُها محاولةَ الهبوط فعلاً في المريخ!

والجميع في الأرض، كما يعلمون، ينتظر بفارغ الصبر، منذ أكثر من نصفِ قرن، اللحظةَ التاريخية التي يهبط الإنسان فيها لاستيطانِ الكوكبِ الأحمر، وقد تمّ اليوم تجهيزُه بشبكاتِ الإنترنت والروبوتات والقرى السكنيّة الاستيطانيّة الذكيّة...

لم تقترح مانيارا على رفاقِها محاولةَ تحقيق هذا الحلم البشريّ القديم، بل الاكتفاءَ حالياً فقط بالبقاء في محطّةٍ فضائيةٍ قرب المريخ، وإن تُراودُها بضراوة، على نحوٍ غير معلن، رغبةُ الهبوطِ في الكوكب الأحمر، لمحوِ "حادثة المجمرة" من ذاكرة الصحف، وتكفيرِ ذنبِها والتخفيفِ على نفسِها من أوجاع التذكُّرِ اليوميّ لمنظر النيران والدخان، وهي تضطرم في غرفتها. وربما لِتبديدِ أوجاعِ عقدتِها النفسيّةِ الضاغطةِ المؤرقة. إذ هي، وحدها، كما لا نتوقّف عن استحضارِه لِتعذيب ذاتِها، مصدرُ رُعبِ الجميع من نهايتِهم اصطلاءً في محرقةٍ سماويّة، وسببُ توقُّفِ احتفالات المرقصِ التاريخيّ، المواجهِ لإشراقة الأرض، يوم عيد ميلاد حبيبتِها خولة، على بُعدِ خطوتين من القمر!

أعيش كلَّ أوجاعها، أتألّمُ مثلها وأكثر. ألاحظُ، من مكتبي في المركز الفضائي، أن معاناةَ مانيارا قد تصاعدتْ وتعمّقتْ بعد رؤية سعادةِ "أختها

الكبيرة" وحياتِها الجديدة، منذ عيدِ ميلادها الثلاثين.

شعرتْ مانيارا بأنها اختارت لِحياتِها، على نحوٍ أو آخر، الطريقَ الخطأ، طريقَ الشقاء!

لم تعِش حياتَها، حتّى اللحظة، سعيدةً "ولو بالغلط"، حسب تعبيرها أحياناً. تعيشُها روبوتاً يثير إعجاب الجميع بمقدراته الفاعلة، بطموحاتِه اللانهائيّة، وبملكاته القياديّة، لكنه حزينٌ في عمقِ أعماقه، لم يذق العشقَ مثقالَ ذرّة "ولو بالغلط"!

لم تُدرك، قبل اليوم، أن "السعادة الحقيقية الوحيدة، على كوكب الأرض (والمجموعة الشمسيّة أيضاً)، هي أن تَعشقَ وتُعشقَ! كلُّ ما عدا ذلك ثرثراتٌ تافهةٌ صغيرة!" كما قالت خولة في أحدِ أيّام بيغاسوس، في مدار القمر. أو كما قال مولانا جلال الدين الرومي نفسُه: "من لا يركضُ إلى فتنة العشق، يعبر طريقاً لا حياة به!".

اركضي حبيبتي، لنركضْ معاً الآن!

لا يوجد، في الواقع، أكثر شقاوةً منّي، وأنا أراها، من مكتبي المشحون بالشاشات، تعيش هذا التشتّتَ والاستلاب، والهروبَ الأعمى إلى الأمام.

الأشقى، في كلّ ذلك، هو أنّها لا تعرفُ أن ثمّة من يعشقها عن بُعد، من يحلم بها ويراها ليلَ نهار، ويرتعشُ قلقاً عندما يشاهدُ أوجاع منحنيات دماغها البيانيّة في الشاشة المواجهة له، وينتظرُ عودتَها على أحرَّ من الجمر، للإفضاء بكل ما يُكنُّهُ لها، وما يعانيه.

والأكثر شقاءً: لا أعرفُ إن كانت تُكنُّ لهذا العاشقِ الجبان، المنفصمِ الذات أحياناً (كما لاحظتْ عند بوحِهِ لها، في لقائهما الثنائيّ اليتيم، قبيل بدءِ الرحلة) عواطفَ جنينيّة، ستجعلها تميلُ إليه عند عودتِها إلى الأرض، وتفتح أحضانها يوماً لعناقِهِ!

ازدادت كوابيسي مع بدء الرحيل نحو الكوكب الأحمر. لم أعد أطيق

طولَ بُعدِنا الجغرافي، وإن كنتُ أقربَ الناس لمانيارا من حبل الوريد: أحومُ بين عصبونات دماغها على الشاشة ليلَ نهار.

أردتُ أن أتواصل معها، على نحوٍ شخصيٍّ، خارج مراسلاتنا المهنيّة الرسميّة المكشوفة للجميع. أن أبوح لها بما أعيشه، بإعجابي الكليّ بها وعشقي العارم لها، برغبتي في أن نعيش معاً، وأكثر من ذلك: أن نساهم معاً بالحفاظ على آخر جينات أجدادنا وشعبنا اليمنيّ المندثر، واستدامةِ بقائها على هذه المعمورة.

ما الذي يجذبها إلى مجازفة الرحيل إلى الكوكب الأحمر؟

تعرف مانيارا أن الطريقَ إلى ضواحي المريخ معضلةٌ بحدِّ ذاته، وإن تجاوزَت علومُ الفضاءِ ومركباتُها الحديثة نواقصَ حسابات العقودِ السابقة وأخطاءَها، عندما كانت المركبات الفضائية تضيع أحياناً، وهي في طريقها إلى المريخ! بل وإن تحسّنتِ اليوم كثيراً تجهيزاتُ الجسدِ الإنساني ومعدّاتُه الطبيّة والإلكترونيّة، لِضمان سلامةِ دماغِه وخلاياه، ووقايَتِهِ من ضُعف المناعة والأمراض الفضائية، وللتخفيفِ من عبء غيابِ الجاذبيةِ الأرضيةِ الكليّ في الأصقاع الكونيّة البعيدة.

- هنا يبدأ الجدّ، كلّ ما عشناهُ في رحلتِنا، إلى الآن، كان لعبَ أطفال!

يقول سباسكي الذي ينتظر رؤية أطلال ماضي المريخ وكنوز مياهِه القطبيّة، بِفارغ الصبر، مثل فيشر الذي يضيف آليّاً:

- ستبدأ الآن، فعلاً، رحلتُنا الحقيقية واكتشافاتُها الكبرى.

- اكتشافاتُها الكبرى؟ ماذا تمنّى رؤيتَهُ في المريخ، قبل كلِّ شيء؟

تسألُه مبتسمةً معبودتي مانيارا، متحمّسةً جدّاً لمشروعِها الجديد. جذلى أكادُ أقول. (أشاهدُ ثغرَها الباسم، أجمل ثغرٍ في العالَم، أمامي وسط الشاشة. ثغرها الذي لم أتوقّف عن الحلمِ بتقبيلِهِ طويلاً).

- آثار لحياةٍ قديمة ربّما، محفوظة في ثلوجِهِ القطبيّة، في بصماتِ بحيراتِهِ وسيولِه الغابرة! (يجيبُ فيشر).

- وفي صخورِهِ البركانيّة أيضاً، من يدري! لكنّا لم نُقرّر بعدُ الهبوطَ فيه. نحتاج إلى استراحةٍ طويلة في مدارٍ مجاورٍ له، قبل اتّخاذِ القرار النهائي (تردُّ الكابتن مانيارا).

خولة وجلال يعيشان على بساطٍ سحريّ. لم يعودا يُميّزان بين السكون والمسافات. بين الأرض والمريخ وزُحَل. كلُّ الكواكب الشمسية، بالنسبة إليهما، مرتصّةٌ دوماً على الخطِّ المستقيمِ نفسِه (يتوسّطها القمر) تحملُ لهما الحظَّ والصفاءَ والسعادة!

مستعِدّان للتصويت على أيّ قرار يتخذّهُ رفاقُهم الثلاثة، ما داما يجدان نفسَيهما معظمَ الوقتِ متعانقَينِ متوحّدَينِ، طفواً في فضاء الغرفة أو على السرير نفسِه، في الملكوتِ الأعلى أو الأسفل، فوق قمّة أوليمبوس أو في طور الباحة.

الرحلةُ الطويلة جدّاً، نحو محطّتِهم الفضائيّة القادمة في مدارٍ منخفضٍ قريبٍ من المريخ، لم تبدأ، كسابقاتها، جذّابةً، أو ممتعةً جداً:

سرعةُ بيغاسوس الخارقة نحو المريخ، وسطَ فضاءٍ مشحونٍ بالصخور والمذنبات التي تعبر بسرعةٍ أكثر جنونا، وقربَ حممٍ وكويكباتٍ طائشة، لم تُتحِفْ عشّاقَ موقع سباسكي وفيشر على الإنترنت، بكثيرٍ من الصور المدهشة، كما كانوا يحلمون.

"بووووف!"، كتب أحد المعلّقين من فرنسا على بعض الصوَر في موقعهما. لا جديد مدهش، بالنسبة إليه.

بدآ فعلاً مجلّداً ورقياً ثالثاً لصوَرِهما، لكنّهما كانا أقلّ حماسةً وإنتاجاً من قبلُ، رغم أنّهما يُشاهدان لأوّل مرة، عبرَ تيلسكوب بيغاسوس أو بأعينهما مباشرة، أمطارَ ألماس تتطاير من أورانوس (الكوكب السابع)، حلقاتٍ جميلةً حوله وحول زُحَل، اصطداماتٍ تيتانوميّةً هائلةً لِكويكبات هنا وهناك، براكينَ جبّارةً تخلع القلب، نجماً يبتلعُ كوكباً، أقماراً بنفسجيّةً مدهشةَ الجَمال، وكوكباً يولدُ وسط ثلاث شموسٍ تحيطه (سيكون للمرءِ فيه، إذا

اندلعت ثمّة الحياة، ظلالٌ ثلاثة، إلا إذا كان هناك كسوفٌ أو كسوفان أحياناً)!

الحقّ أن الابتعادَ عن الكرة الأرضية، ورؤيتَها تتحوّل إلى نقطةٍ صغيرة في الفضاء، مرعبٌ جدّاً. يُصيبُ المرءَ بـ"الدُّوَارِ الكونيّ"، يُرعِدُ الفرائصَ فعلاً، ويُفجِّر تأمّلاتٍ ومشاعرَ حزينة، لا تخلو من القلق والكآبات.

أحاسيسُ جديدة أربكتْهم طوال السفر، باستثناء خولة وجلال الغارقَين في سعادتِهما المتصاعدة، لا غير.

رعبٌ يسكنهم جميعاً أحياناً (وأنا معظم الوقت) من احتمالات تداعياتٍ صحيّةٍ تُمُسُّ حركتَهم الدموية، أو ميكانيكا عمل الدماغ وضعف المناعة.

يُبدِّدون خوفَهم بالتفاعلِ الجماعيّ: قراءةِ الكتب، مشاهدةِ أفلام عديدة، نقاشاتٍ دائمة، تفاعلٍ وتعاونٍ مخلِصين، وسردِ قائمةٍ لا تنتهي من نُكَتٍ جمّعها فيشر بوجهٍ خاصّ لهذا العبور المملِّ الطويل، بعضُها "ركيكٌ" جدّاً، كما يعترفُ هو نفسُه!

"ثمّة جماليّةٌ ساحرةٌ في الركاكة أحياناً"، يقول سباسكي.

"الحبّ أعمى!"، أقولُ أثناء سماعِهِ من شاشةِ مكتبي.

يُخفِّفون من وطأةِ هلَعِهم كثيراً بزيادة ساعات الرياضة الجماعية، لمقاومةِ الشعورِ بخواءٍ ما، وبخللٍ في أجسادِهمُ التي لا تُواكبُ ميكانيكا هذه الأصقاع البعيدة من الكون.

اجتماعاتٌ لا نتوقّف في مركزنا الفضائي. نبذلُ، من جهتِنا، كلَّ قصارى جهودنا لمراقبة كلِّ صغيرةٍ أو كبيرة تمسّ أوضاعَهم الصحيّة أو المعنويّة. مانيارا نتواصل معنا ليلَ نهار. هي لوحدِها فريقٌ كامل، رغم ما يعتمل في داخلِها من أوجاعٍ وتساؤلاتٍ وجوديّة.

منذ أن بدأتْ رحلتُهم الطويلة الثقيلة نحو المريخ، صرتُ أكتب لها رسائل خاصّة، عندما أعود في الليل إلى منزلي (في حيٍّ قريبٍ من مكتبي)، وحيداً

حزيناً مكتئباً غالباً، غارقاً بالدوران حولها نخذروف.

لا أعرف إن تحقّ لي مراسلتُها خارج تواصلنا الرسمي، ولا أدري عبر أيّ قناةٍ غير مكشوفة يُمكنُ ذلك، وكيف سيكون أثره على مستقبل الرحلة. أمزِّق معظمَ رسائلي. أبكي في بعض الليالي، مشتاقاً حزيناً، قبل أن أهرع منذ الفجر نحو مكتبي لرؤيتها أمامي في الشاشة، وتفقّدِ أحوالِ عصبوناتِ دماغِها.

كلّ يومٍ يمرّ أعيشهُ أحياناً كشهرٍ أو سنة. نبعثُ لهم طواله عدداً لا يتوقّف من الرسائل المعجبَة والمشجِّعَة من سكّان الأرض. نربطُهم بِكلِّ ما يجعل أدمغتَهم نشيطةً متفاعلةً سعيدةً. تَواصُلنا لا يتوقّف خاصّةً مع "وادي عَبْقَر" الذي يضيء لنا كل غموض، ويقترح، لهم ولنا، حلولاً ومبادراتٍ حميدةً للوقاية الاستباقيّة من أي وجعٍ أو مصيبة.

أعرفُ أنّهُ كلّما بعُدَ الإنسان عن هذه الكرة الساحِرة التي تخلبُ اللبّ، ورآها تتحوَّل إلى نقطةٍ ضائعةٍ هائمةٍ في الفضاء المطلَق السحيق تختفي خلف رأسِ أصبُعِه، يدخلُ، كما قال المجرِّبون الذين تحدّثتُ معهم طويلاً، حالةً نفسيّةً ميتافيزيقيةً خاصّة، كما لو دخل بابَ ملكوتِ الموت!

يُسمّونَ هذه الحالة "تأثير التقلّصِ المريع". العكسُ الكليّ لِأقدسِ "الأمراض" وأكثرِها تنقيةً للروح والجسد: "تأثير الإطلالة الشاملة" عند رؤية الكرة الأرضيّة هائلةً كاملةً، تشرقُ مِلء السماء، يتوسّطُها جرحُها الدامي: "البحر الأحمر"، أو رأسُها الشاهق: إفرِسْت جبال الهملايا.

التحديقُ بهذا الكوكب الجميل المسكين الهشّ، عن قربٍ وعن بُعد، والتأمّلُ بكلِّ أسرارهِ وفرادتهِ وجَمالهِ العاصف، يتركُ فعلاً، كما يقول كلُّ من عاشوا هذه التجارب، أثَراً يُعيد بناءَ نفسيّة الإنسان: كلّما ابتعد الواحد جغرافياً عنه، وشاهدَهُ أصغرَ فأصغر، أصبحَ موقِعُهُ في القلب أكبر فأكبر، وأضحتْ رؤيتُه أكملَ وأفضل، وغدا المرء يحنو عليه بحق.

يرثيهِ المرء أيضاً، ويحتقِرُ، على نحوٍ خاص، مفهومَ الحدود الجغرافية،

ويعتبرها أسوأ ما اخترعهُ البشر. (كم كان جدّي يمقت مفهوم الحدود الجغرافيّة والفيزات، كما يبدو في كتابات أرشيفه، منذ أن لطشَ أحدُهم 4500 دولار من جيبِهِ وهو يبحث عن فيزة!).

ألاحظ وأنا أتأمّل أعضاءَ فريق مركبتي وهم يهرعون نحو الكوكب الأحمر، وأقرأ نقلَ الصحف ليوميّات رحلتهم: صار الفضاء عموماً هوَس الناس الأوّل، يتبادلون أخبار أزقّتهِ على الدوام. أمّا مشاهدةُ كوكبِنا وهو يرنو إليهم من بعيد، ويتحدّبُ أكثر فأكثر، يتجلّى تقوُّس سطحِه ثمّ يتقلّص أكثر فأكثر، فقد أضحى كلَّ ما يبحثُ عنه السائح المعاصر!

الفنادقُ الفضائية تزداد، مثل المحطّات الفضائية. صارت السياحة الفضائية للتجوّلِ والسباحةِ في الفضاء (والسائحُ معلّقٌ بأسلاكٍ وحبالٍ فولاذيّة تربطُه بِسُرّةِ مركبتهِ الفضائية)، أكثرَ ما يستحوذ على الناس اليوم، ويُفجِّر فيهم أروعَ السعادات قاطبة، وكثيراً من الشعور النرجسيّ بالسموّ وبالعظمة.

أشعر بالحزن، مثل رفاق بيغاسوس، والكرةَ الأرضيّة تتقلّص كليّةً أمام أعينهم، وسط فضاءٍ مزدحم، وأنا ألاحظ أن هذا الفضاء، حتّى هذه الحدود المريخيّة، لم يعد نقيّاً شفّافاً كما كان عند أول رحلةٍ فضائية لجاجارين. ها هو يعجُّ بمحطّات فضائية في كل ركنٍ ومدار، بمركبات وصواريخ ومسابر ومجسّات وروبوتات وأقمار صناعية متنوّعةٍ مرتبطةٍ برحلات سياحيّة أو علميّة أو عسكرية بلا عدّ، كأنهُ طريقُ سيّاراتٍ سريع، حول مدينةٍ أرضيّةٍ مكتظّة!

ليس ذلك فقط، لكنه يعجُّ أيضاً بعشرات آلاف خردات بقايا قطع صواريخ ومركباتٍ إنسانيةٍ قديمة، ونفايات فضائية متنوِعة، مختلطة بكويكبات وأجرامٍ سماوية تتطاير في كلِّ بقعة ومكان.

أعرف أنّ المشاعرَ الإنسانيّةَ النبيلةَ تتدفّقُ دوماً هنا، في روح السائح أو الباحثِ ورائدِ الفضاء، عند رؤية هذه المشاهد (العيشُ الدائم في الفضاء هو الأفضل لحياة البشر، من يدري؟ يُقدِّسون كوكبَنا هناك، يهتمّون بصحّتهِ

على حين غرّة. حتّى مخلّفاتهم البيولوجية تتحوّل فيه إلى شهبٍ بديعة، تزيّن لياليه الساهرة).

ثمّ عند عودتهم إلى كوكب المهدِ، ينسون كلّ شيء. يواصلُ العائد، من جديد، تخريبَه البيئيّ ودورَهُ في صناعة يوم قيامةِ الكوكب، وهو يستهلكُ الوقودَ الأحفوريّ الذي يقود إلى الاحتباسِ الحراريّ. ("الطريق إلى جهنم مفروشٌ دوماً بالنوايا الحسنة!").

ينسى ما كان يقوله عن اختلال التوازن البيئي الذي تشكّلَ طوال ملايين السنين، وعن "جنونِ الطبيعة" الناتجِ عنه: تصاعد حرارة الكوكب، ذوبان الجليد، ارتفاع مستوى البحر وطمّه لليابسة، التسوناميات والزوابع الكبرى المتواترة، الجفاف المزمِن الذي تتخلّلهُ أحياناً أمطارٌ تدميريّة، حرائق الغابات وفناء الكوكب...

يقترب رفاق بيغاسوس أخيراً من المحطّة المريخيّة حيث قرّروا حطَّ رحالِهم. لم تصلْها قبلهم، إلا روبوتاتٌ ذكيّة فقط، لأداءِ مختلفِ الخدمات الطبيّة أو الترفيهيّة أو الاستشاريّة.

سعادتُنا، في لجنة الإشراف، تتفجّرُ أحياناً، مثل قلقِنا وخوفِنا من خللٍ أو مرضٍ مفاجئٍ ما، لا سيّما أنّنا نلاحظ أن ثمّةَ شيئاً ما يعتملُ في دماغ وأنسجة خولة (يصعبُ القبضُ عليه واستيعابُه أو تصنيفُه!).

لم ينقشع الهمُّ والغمُّ والمخاوف إلا عندما اقترب الصاروخ العملاق الذي يحملُ بيغاسوس من الكوكبِ الأحمر، المغلَّفِ حينها، بأكملِه تقريباً، بقطيفةٍ كثيفةٍ من غبار العواصف الصحراوية، وعند وصولِ طاقمِها المحطّةَ بسلام (بعد انفصال مركبتهم عن الصاروخ)، وبعد ملاحظتِنا عودةَ القِردين الجميلين، سباسكي وفيشر، للنطِّ بحماسة من نافذةٍ إلى نافذة، لاختطافِ صورٍ جديدة لمجلدِهم الثالث، استهلّاها بمناظر "أمواجِ الرملِ الحمراء وهي تبتلعُ كلَّ سماء المريخ" على حدِّ تعبير سباسكي الذي ضمرتْ مقدراته البلاغيّة وتيبّست، كما يبدو، بعد وعثاء هذه المسافات.

ثمّ صورةٌ رهيبة، من الأعالي، لِقُبّةِ أكبر عملاقٍ في المجموعة الشمسية: أوليمبوس! احتاجا إلى 11 صورة متجاورة لسبرِ قاعدتِهِ العريضة (قطرهُ يتجاوز 620 كلم!)، ليُكوِّنا بها صورةً واحدةً، عريضةً جداً، كاملةً له، أهدياها، في موقعِهما، إلى "رفيقَي العُمْر، أحبِّ وأجملِ ثنائيٍّ في الوجود: خولة وجلال!". عشراتُ ملايين "اللايكات القلبيّة" للصورة توالتْ في سويعات، وشهقاتُ إعجابٍ كثيرةٌ انهمرت من عشّاقٍ (أنا أحدُهم) يتابعون يوميات خولة وجلال في موقع مركزِنا الفضائي، وموقع سباسكي وفيشر!

تلتْها صورةٌ بديعةٌ لِقمَري المريخ الاثنين معاً: فوبوس وديموس! (سباسكي وفيشر، كما أحبُّ تسميتَهما). صورٌ أخرى أثارتْ إعجاب الكثيرين لِربيع المريخ المُشرقِ في قطبِهِ الشمالي، لِصحاريهِ الحمراءِ المدهشة، لِبعضِ صخورِهِ ذات الأشكال الغرائبيّة، لِمذنباتٍ تعبرُ علياءه، تنفثُ، من مؤخراتِها، عواصفَ جبّارة من الأتربة العملاقة.

تناقلت أخبارَ بيغاسوس الصحفُ الدوليّة بإعجابٍ وفخر: "استيطانُ المريخ أضحى على بُعدِ خطوتين!"، "غزو الفضاء: خطوةٌ جديدةٌ جبّارة للإنسان!"...

احتفلنا في المركز، بطبيعةِ الحال، حالَ وصولِهم مدارَ المريخ. نلاحظ، مفتونين سعداءَ، عودةَ الحياة لنشاطاتهم الجماعيّة الباهرة في المحطّة، وتَضَاعُفَ "مليونيّات" المعجبين بهم، على الشبكات الاجتماعية. وتفجّرَ حُمّى المشاركات الجماهيريّة، على الإنترنت، لِصورِ ألبومات سباسكي وفيشر الجديدة.

ثمّ دام الاحتفال ثلاثةَ أيامٍ متوالية، إي نعَم، قبل أن يتحوّلَ إلى مهرجان سعادةٍ حقيقيّة، عندما وصلتْنا رسالةٌ تاريخيّة بعثتْها من بدأتْ تستعيدُ ثقتَها بالنفس، بعد توالي النجاحات: الألمعيّة مانيارا.

رسالةٌ هزّ زلزالُها مركزَنا طبعاً، وكلَّ شبكات المراكز الفضائية الدوليّة التي تسرّبَ إليها الخبر:

"لعلّ هناك قلباً يخفق في بطن خولة!".

- عفواً، ماذا قلتِ مانيارا؟ (سألتُ بعفويّة تحت وقع المفاجأة).

- ثمّة طفلٌ، جميلٌ وبديعٌ ورائعٌ بالضرورة، ينمو في بطن خولة!

26

تقرير الطبيبين

انقضى شهرُ الزواجِ التجريبيّ كسَمنٍ على عسَل. نجاحٌ ساحق. "مشروعُ برنامج العمل" الذي قدَّمهُ نون، وأشرفَ الكمبيوترُ الذكيّ على تنظيمِ أداءِ البندِ الثاني منه، حوّلَ مركبتَهم جنّةً متناغِمة، مصنعَ سعادة. تحمِلُ اسمَها بجدارة: "مركبة العائلة السعيدة".

صارت، طوال الشهر التحضيريّ لمشروع الزواج، مثلَ "عين الإعصار": مساحةً آمنةً لذيذةً هادئة، تحيطُها الزوابعُ والتوابعُ من كلِّ مكان.

لم يكتفِ الأفاتارُ البهيُّ، مُجَدوِلُ "وادي عبقَر"، بإعداد أجندات اللقاءات الأسبوعية لِنُون، بكلِّ واحدةٍ من زوجاته، مُحتَرِماً أمزجةَ الجميع، ومحتكماً بالقرعة عند الحاجة. لكنه كان يطلب، في نهاية كلِّ أسبوع، من كلِّ واحدٍ من الخمسة، في حوارٍ ثنائيٍّ بينهما فقط، رأيَهُ بجودةِ وعدلِ ودقّةِ توزيعِ جداول النكاح الأسبوعيّة بين الأزواج الأربع، وتقييمَه الشخصيّ لحصيلة الأسبوع، من أجل تحسين أداء برمجيّات الكمبيوتر للأيّام القادمة!

فاقت كلَّ التصوّرات نتائجُ تقييم أفراد الطاقم الخمسة لأداءِ البرمجيات. نموذجيّةٌ خالصة، في كلِّ أسبوع! بمعدّل "98.99 على 100" كما قال لي زميلٌ في لجنة الإشراف على رحلتهم. "وكلّما سألَ 'وادي عبقر' أيَّ واحدٍ منهم: 'هل اكتفيتَ؟'، ردَّ: 'هل من مزيد؟'، رغم أن أمدَ المعاقرة واللذّة، في سفن الفضاء، يدوم أضعافَ نظيرِه في كوكبِ الأرض"، أضافَ زميلي.

بعد انقضاء الشهر، عُقِدتْ حفلاتُ الزواج الأربع، تحت إشراف الأفاتار القاضي، كما اقترحها "برنامج العمل"، وعدّلها اجتماع "اتحاد نساء Yyy4+1W". رقصٌ، بهجةٌ وإبداعٌ وسعادةٌ كليّة، و"توابل وزمبليطات"، حسب تعبير شين!

"لكَ عزيزي أن تتخيّلَ ذلك!" قال لي زميلي العزيز المشرف السعيد على

هذه الرحلة الممتعة، الذي لم ينقصهُ إلا سيجار كوهيبا باهر وهو يقول ذلك.

ثمّ توالتْ، في الأسابيع التالية، حفلاتُ الرقص في مركبةِ العائلة السعيدة، بمتعةٍ تتجدّد، كما لو كان أفرادُها يعقدون حفلات زواج يوميّة!

خمسُ فراشات ترقص بولعٍ ووله، بفانيلات رياضيّة أو بفساتين احتفالية خفيفة تفتح النفس، على بُعدِ مئات الكيلومترات من الأرض. تجيدُ كلّ أنواعِ الرقص الغربي أو الشرقي، "الروك" أو "السلو"، الهنديّ أو الفلامنكو، التانجو أو السامبا، أو "الليوة" رقص سُقطرى وشرق أفريقيا...

"لِلرقصِ بعيداً عن الجاذبيّة الأرضيّة، في ديسكو كاتدرائيّةٍ معلّقةٍ بين سماواتٍ صاخبة، 'لمن جرّب ذلك'، سعادةٌ إلهيّةٌ لا تضاهيها سعادة" كما يقول نون.

(ما أحلى: "لمن جرّبَ ذلك"! أجدُ نفسي معها واحداً من أرذل سكّان العالمين الذين لم "يجرّبوا ذلك". آه، الرحمة بنا، نحن فئران الأرض، نون العجيب!).

أكّد لي ذلك زميلي في لجنةِ الإشرافِ على رحلتهم، قبل أن يضيف: "أضحت يوميّات خمستهم، بحقّ، منبعَ بهجةٍ لا تتوقّف، جذلى كما لا يخطر ببال، لولا معضلة واحدة!".

آه، لولا معضلة واحدة!

لم يأتِ ملاكٌ لزيارة نون في "جزيرة الوحي"، رغم خروجهِ اليوميّ للاستحمامِ المتهوِّر حول المركبة (رغم أنفِ فيتو زوجاتِه الأربع، وقرارات "وادي عَبْقَر" الرافضة للخروج المتكرر، بالطبع)، ورغم تحديقهِ بكلِّ أرجاء الكون بحثاً عن إشارةٍ ما، عن إلهامٍ ما، عن نصٍّ إلهيٍّ ما سيُغيّرُ حياةَ بشريّةِ الأرضِ وكافةِ الكائنات الذكيّة في "فيدرالية كواكب المجرّات الكونيّة والأكوان المتوازية"، عندما يذهب مسبارٌ خاص، Voyager 5, 6...، لِترتيل نصِّهِ المقدَّسِ في كلِّ أرجائها.

بدلاً عن ذلك، بدأ جسدُ نون يُعاني من ضعفٍ ما، أصاب زوجاته بالذّعرِ الشديد، وأثار قلقَ كمبيوترِ الرحلة وسخطَهُ أيضاً!

في اجتماعٍ استثنائيّ لِـ"اتحاد نساء Yyy4+1W"، بعد ثلاثة أشهر من انطلاق الرحلة، قرّر الجميعُ الانتقالَ من هذه المحطّةِ الأرضيّة الأولى، نحو مدارٍ مجاورٍ للمريخ مباشرة، دون أي ترانزيت في أيّ محطّة قمريّة، ليس فقط بسبب "الحنين الاستباقيّ" لرؤية الكواكب البعيدة، ولبدءِ الاكتشافات الكبرى للرحلة، بل لِتصفيدِ نون، طوال أكثر من شهرٍ من الطيران بسرعة خارقة، داخل المركبة، لِيظلّ معتكفاً في أحضانِ زوجاتِهِ فقط، لا يُفكّرُ في الخروجِ للاستحمامِ والبحثِ عن الوحي.

لإبلاغ نون بقرار الاتحاد، قالت الكابتن فاء، وهي تمسّ خدَّها بِطرفِ سبّابَتِها، مُخفِيةً رُبعَ ابتسامة:

- قرّرنا الانطلاق نحو مدارٍ فضائيٍّ قرب المريخ، من يدري، قد تجد هناك "جزيرة الوحي"!

دخلَتْ شين على الخط، بانزياحاتِها البريئة الجميلة دوماً:

- إذا لم يجدها "ابن الحلال" في أحضاننا، فلن يجدها في مكانٍ آخر!

بعيداً عن يوميّات الأنسِ والطرب لِشلّة Yyy4+1W: السعادةُ الجماعية لِرفاق XxxXx00F، بما يترعرع في أحشاء خولة، فاق، بطبيعةِ الحال، كلّ سعادة.

حدثٌ تاريخيٌّ فريد: لأوّل مرّة في تاريخ البشريّة سيولَدُ طفلٌ صُمّمَ في الفضاء، خارج الجاذبيّة الأرضيّة، أمام القمر (كما حلِمتْ بذلك خولة منذ صغَرِها. أتذكّرُ ردَّها على سؤالنا التمهيدي: "ما الذي يجذبُكِ للعمل في مجال الفضاء؟")!

سيُطلَقُ عليه: ابن القمر أو ابنة القمر، ابن الفضاء أو ابنة الفضاء... لا أدري.

وسيكون عنوانُ مسقطِ رأسِهِ مختلفاً عن كلِّ من سبقهُ من بني البشر (باستثناء آدمَ وحوّاء، والله أعلم): "مركبة بيغاسوس، رحلة XxxXx00F، مدار المريخ المنخفض" إذا بقيَتْ بيغاسوس هناك. أو عنوانٌ آخر لإحدى كبسولات القرى السكنيّة في المريخ، إذا رافقَ ميلادَه وجودُهم هناك. أو في صُقع من أصقاع الفضاءات السحيقة.

ضاعفَ حَبَلُ خولة من مهام مانيارا: وجبَ عليها أن تبعثَ لمركِزنا الفضائي، يومياً، فحوصاتٍ صحيّة طويلة، وتقاريرَ كثيرة تكتبُها، هي و"وادي عبقر"، عن كل حركات وسكنات أوّلِ أنثى في التاريخ ينمو في أحشائها جنينٌ تعانقت بويضته وحيوانه المنويّ خارج نطاق جاذبيّة كوكب الأرض.

كتمَ الجميعُ الخبرَ (رغم تسرُّبِهِ في البدء هنا وهناك)، بانتظارِ نتائج الفحوصات ومرورِ الأشهر الأولى من الحمل، ومن أجل التحضيرِ الجيّدِ للإعلان الصحفيّ الرسميّ عنه، الذي سيهزُّ العالم، وسيفتح البابَ لضجيجٍ وشطحاتٍ ونزواتٍ فضائيّةٍ لا نهاية لها:

سيتضخّم غرورُ الإنسان ونخرُهُ بإنجازاتِه الاستيطانيّة الفضائيّة، وستتدفقُ سيولُ شهواتِه بغزوِ الكونِ واستباحتِه، وكأنّه يعيدُ تجربةَ كريستوفر كولومبوس في استعمارِ القارّتَين الأمريكيّتين.

خولةُ في قمّة سعادتِها ومجدِها، شهيّةٌ مبتسمةٌ طوال اليوم، تتفجّرُ نشاطاً وبهجة. جلال، الذي يُسبّحُ بحمدِ خولتِهِ في كلِّ نظراتِه العاشقةِ المعجبةِ بها، وبجمالِ بدءِ تكوُّرِ بطنِها، لا يقلُّ سعادة.

أما مانيارا، فيَزداد تخبُّطُها الوجودي مثلي، وهي ترى فراغَ حياتها الخاصّة إلّا من كتابة التقارير وإدارة مركبة الرحلة، والتفاعلِ الذي لا يتوقّف مع المركز الفضائي، وكأنّها روبوتٌ بجسدِ إنسان!

تشعرُ بتضاعُفِ مسؤولياتها بعد حَبَلِ خولة. تفقدُ أعصابها قليلاً أحياناً وهي تتراسلُ معنا في لجنة الإشراف الأرضي، إذا لم نجب عن تساؤلاتِها سريعاً.

"اطمئنّوا! خولة في أفضلِ وأجملِ حال! لماذا لا تتوقّفون عن طلب

الفحوصات الصحيّة عدة مرات كلّ يوم؟ ما هي نتائج كلِّ الفحوصات السابقة؟"، تكتب أحياناً.

وعندما لا تستلم الردَّ، مني أو من لجنة الإشراف، على تساؤلاتها التي تتوالى من يومٍ لِيوم، من أسبوعٍ لأسبوع، تضيف:

"كَوني كابتن الرحلة، وحسب ميثاقِ تعاقُدِنا، يلزمكم الردّ على أسئلتي حالاً، وإشعاري بأي معلومات عن أحوال فريق رحلتي. طلبتُ منكم مراراً، دون ردّ، إشعاري بنتائجِ فحوصات خولة السابقة. أراها متألِقّةً في أفضل أحوالِها، فيما لا تتوقفون، مع ذلك، عن طلب الفحوصات والتقارير اليوميّة!".

وعندما يتضاعفُ قلقُها، ترسل مثلاً:

"تعرفون أني أكتم السرّ. ما نتائج الفحوصات؟ سنتناقشُ حول ما يُفترَضُ عمله، إن كان هناك إجراءٌ ضروريٌّ يلزم اتخاذُه".

الحقّ أننا، في لجنة الإشراف، لم ندرِ ما نفعل أمام عاصفة أسئلة مانيارا عن نتائج الفحوصات. لاحظتْ أننا نُلَمِّحُ لها، بكلمات غامضة، عن وضعٍ صحيٍّ غير اعتياديّ لِخولة. وأيقنَتْ أننا نكتمُ سرّاً ما، أرادتْ معرفَتَهُ بضراوة، بحكمِ أنّها من تدير طاقمَ الرحلة، والمسؤولةُ المباشرة عن رفاقِها.

ثمّ هو سرٌّ غريبٌ بالنسبة إليها، لا يخلو من مفارقةٍ فاقعة: خولة أكثر إشراقاً وجمالاً وصحّةً من أي وقتٍ مضى. يكفي الاقترابُ منها واستنشاقُها لِيتفجّرَ في حنايا الروح ينبوعُ سعادة!

ماذا يحدثُ بالضبط؟! يسكن مانيارا هوسُ استيعابِ هذا السرّ!

لم نعرف كيف نحمل النبأَ لمسمعِها، لأن ملخّص تحليل بيان الطبيبيَن المتخصِّصَين (أهمّ خبيرَين في المركز)، كان واضحاً جميلاً في شطرِهِ الأوّل: "خولة حُبلَى بِبنت!"، وكابوساً مرعباً في شطرِهِ الثاني: "لا يمكن لخولة الحياة أكثرَ من 3 أشهر!".

أعيشُ شخصياً، منذ قراءة تقريرهما، قلقاً يوميّاً عاصفاً، فاجعة تستنزفني، تفتكُ بي. لا أدري ما أفعل.

قلتُ لمانيارا، في محاولةٍ لتخفيفِ حدّة تساؤلاتها:

"تعرفينَ، عزيزتَنا الموهوبة مانيارا، أن هذه أوّل مرّةٍ في التاريخ تحملُ فيها امرأةٌ خارجَ جاذبيّة كوكبِ الأرض. تأثير ذلك على الجنين، وتداعيات الأشعّة الضارّة عليه، ما زالت مجهولة علميّاً. طبيعيٌّ أن نهتمَّ بهذه الحالة كثيراً وعلى نحوٍ استثنائي، وبديهيٌّ أنها لن تخلو من بعض الصعوبات، وربما بعض المخاطر".

"كَوْني كابتن الرحلة، أحتاجُ سريعاً إلى معرفة نتائج الفحوصات. في ضوء ذلك، سنُقرِّرُ الخمسةُ اتجاهَ مواصلة الرحلة"، تردُّ بثبات، دون أن يعرف رفاقُها ما يدور من حوارٍ وشدٍّ وجذب بينها وبيننا.

"خولة حُبلى ببنت!"، قلتُ لها.

فرحٌ عارمٌ يجتاحها. أرى غشاءَ دموعٍ خفيفٍ يغمر عينيها، وسط الشاشة. ابتسامةٌ تتفجّر في شفتيها الورديّتين (طالما ارتجفتُ عند رؤيتْيهما... خطر ببالي أن أغمض عينيّ حينها، ولتسقط السماء على الأرض وأنا أعبِّر لها عن حلمي بأن يكون لنا طفلٌ يوماً ما!).

ثمّ تعودُ إلى مربط الفرس:

"أروع خبر! سأحملُ، لها وللجلال، أجمل وأعظم بشارة. لكن ما نتائج كلّ هذه الفحوصات اليومية؟ ما سببُ السريّةِ في الحديثِ عن نتائجها؟".

"مانيارا كابتنٌ صلب" أقولُ لِنفسي. إذا كان هناك شَبَهٌ ميتافيزيقيٌّ ما بين المرأةِ والشجرةِ (جسداهما يتجدّدان بالدورة الشهرية، يثمران بالإنجاب...)، فمانيارا تُشبِهُ شجرة دمِ الأخوين في صلابتها وصمودِها وجمالِها وتفرُّدِها.

لا تقبل دورَ الخروفِ أو الروبوتِ المطيع. تُجيد الوحدةَ إذا لزم المرء، مثل كلِّ قائدٍ بالفطرة، وتعرف كيف تمارس دورَها القياديّ على نحوٍ

مستقلٍّ صامت.

وعندما لا تستلمُ الردّ، تخترقُ الأطر (تتهوّرُ قليلاً. لِصغرِ سنّها؟)، وتوجّه أسئلتَها مباشرة، وبعصبيّة، للطبيبَين المشرفَين في مركزنا الفضائي على نتائج الفحوصات الطبيّة لخولة.

وعندما لا تستلم الردّ منهما، تلجأ للإزعاج، ولِقليلٍ من الصراخ أو اللدغ الحادّ!

فقدَ أحدُ الطبيبَين أعصابَه، ذات مرّة، وهو يقرأ رسائلَها المتشنِّجة.

بعد جدلٍ مباشرٍ بينه وبينها، وانزياحات لفظيّة متطرِّفة من الاثنين، وبعد اتهامِ مانيارا لهُ بإخفاء سرٍّ ما عليها، تسلّلتْ منه، بلا وعي، جملةٌ فجّرتْ غيضَ مانيارا، وأنا أشاهدُ، على نحوٍ مباشر، احمرارَ عينيها سريعاً، نظراتها الجمريّة، في شاشة مكتبي.

انفتحت شفتاها الورديّتان قليلاً، عضّتْ شفتَها السفلى بعنف، مبهوتةً مما قال. (تبدو ملامحُها البدويّةُ أكثرَ، عندما تغضب. أتمعَّنُ فيها بلا وعي: لوحة متوهجة نقشتَها أصابع إلهٍ فنان، جمالٌ كليٌّ مشتعل).

ثمّ تجمّدتْ عيناها اللامعتان الملتهبتان، وهي تُعيد، من جديد، قراءةَ عبارتِه على الشاشة، أكثر من مرّة:

"لماذا تُعطين لنفسك كلّ هذه القيمة؟ ما الذي تستطيعين عملَه ولا يستطيع روبوتٌ ذكيٌّ أداءَهُ بدلاً عنك؟".

عاصفةٌ في نظراتِها، وفي نظراتي. صدمةٌ كهربائيّة في تماوجاتِ المنحنياتِ البيانيّة لِدماغِها على شاشتي، قرأتُ فيها هذه الجملة المفاجئة الكثيفة: "ابن الكلب!".

يا لسوءِ وغرورِ ولامهنيّةِ هذا الخبير المتخصِّص وخساستهِ ووقاحتِه! أحد أهمِّ كبار أطبّاء المركز، مع ذلك، إن لم يكنْ أهمَّهم!

ألا يدرك أن الضغطَ على أعصابِ روّادِ الفضاء، في بيئتهم المنعزلةِ منذ

أكثر من 10 أشهر، تدميرٌ كليٌّ لهم؟ وأنّ هشاشتَهم وقابليتَهم للانهيار، بعد انغلاقِهم الطويل في أقفاصِ أبراجِهم العاجيّة السماويّة، تتضاعفُ، كما يعرف أكثر من غيره؟ وأنهم صاروا اليوم ذوي حساسيّةٍ مفرطة، قابلين للانفجارِ بكلِّ سهولة؟

"يا لهُ من حمارا" خانتني هذا العبارة التي ظلمتُ بها كلَّ حمير العالَم.

بذلتُ كل قصارى جهدي لِتهدئة مانيارا. عبثاً! كتبتُ لها رسائل تطمين كثيرة (كدتُ أتجرّأ في إحداها كتابةَ "حبيبتي الجميلة مانيارا"، بدلاً من "عزيزتي الموهوبة مانيارا"، لكني لم أكن جسوراً كما ينبغي؛ كنت جباناً كالعادة).

اعتذرَ الخبيرُ اللامعُ لها، حسب طلبي وطلبِ لجنة الإشراف. ثمّ كرّر اعتذارَه بإخلاص، بعد هدوءِ أعصابه. عبثاً!

رفضَتْ قبولَ عذرِه، قبل استلامِ نتائج الفحوصات، وعودةِ الشفافيّة والسرعة في ردود لجنة الإشراف، كما كانت سابقاً، قبل حَبَلِ خولة.

لحسنِ الحظ أنّها لم تُهدِّدْ بالاستقالة من منصبِها ككابتن الرحلة، كما كنتُ أخشى، لأنَّ ذلك كان سيعني، بكل بساطة، أنّها سقطت في الهاوية.

27

لقاء المركبَتين

لم تخلُ رحلةُ Yyy4+1W، نحو مدارِ المريخ المنخفض، هي الأخرى، من المطبّات الهوائيّة:

بعد ثلاثة أشهر من بدايتها، وقبل نحو أسبوعٍ من وصولِها إلى المدار، ازداد انهيارُ جسدِ نون على نحوٍ ملحوظٍ ومقلقٍ جدّاً.

بدأ يشعرُ برخوِ العظام وهشاشةِ المفاصل، وضعفِ المقاومة والمناعة. يبدو أحياناً كأنّهُ رجلٌ مطّاطيٌّ، مصنوعٌ من صلصال.

ثمّ دهمَهُ وجَعٌ في الضرس لم تنفع معه أي أدويةٍ مُهَدِّئةٍ، بانتظارِ موعدِ اقتلاعهِ من روبوتٍ متخصِّصٍ في المحطة الفضائية التي توقّفتْ فيها بيغاسوس.

تكدّرتْ أيّام شلّة Yyy4+1W، كما عرفتُ من زميلي المشرف على رحلتِهم. انتهت بهجاتُ حفلاتِ الأنس والطرب الغنائيّةِ الراقصةِ اليومية، وتوقّفَ البندُ الثاني العظيم من ميثاق "مشروع العمل"، وصار شعارُ مركبةِ العائلة السعيدة: "لا صوتَ يعلو فوق صوتِ صراخ نون، وآلامِ ضرسِه".

آخر عبارة قالها نون، قبل أن يتوقّفَ عن الكلام بسببِ ألمٍ أصمّ، زلزلَ جمجمتَه وكاد يطيح به، هو تذكير زوجاته بما قال الأقدمون: "لا همّ مثل همِّ العُرس، ولا وجعَ مثل وجعِ الضرس!" مضيفاً: "في ظِلِّكنّ، معبوداتي الأبديّات، عرفتُ أحلى همّ، وأمرّ وجع!".

لم تتمكّن فاء، هي أيضاً، رغم إلحاحِها، من معرفة نتائج الفحوصات الخاصّة بنون، من لجنة الإشراف على رحلتهم، لكنها لم تدخل معهم بمواجهاتٍ جبهويّة، كما فعلتْ مانيارا.

كلّ ما استلمَتْهُ منهم: أمرٌ بالتوجُّهِ سريعاً لِلمحطّةِ التي توجَد فيها بيغاسوس، لاقتلاعِ الضرس سريعاً من الروبوتِ المختصِّ بطبِّ الأسنان هناك!

التقتِ المركبتان في المحطّة، في لحظة لا تنسى. عناقٌ دافئٌ طويلٌ جدّاً. سعادةٌ لا تُوصف غمرتِ الفريقين: روّادُ الفضاء، حيثما كانوا، وأينما كانت مدارس تخصُّصِهم، طائفةٌ باطنيّةٌ تعرف بعضها بعضاً، تجمعُها علاقةٌ تحت أرضيّة متينةٌ وعميقة، وميولٌ متشابهةٌ كثيرة لا يستوعبها من لا يرفعُ رأسَهُ كلّ يومٍ للتحديقِ بالنجوم.

ثرثراتٌ طويلة، حميمة جدّاً، لخّصوا فيها بعض يوميّات رحلتيهما. تداخلت معها ذكرياتٌ أرضيّةٌ مشتركةٌ قديمة.

سكنَتْ قليلاً أوجاعُ نون، بفضل ثلاث حبّاتِ قرنفل أعطتهُ إيّاها مانيارا، حال رؤيته (كانت تحتفظ بها بجانب بخورِها السقطريّ)، لِيَضعَها على ضرسِه الذي كدّرَ رحلةَ العائلة السعيدة. بانتظارِ اقتلاعه، بُعيدَ سويعات من التقاء المركبتين في المحطّة.

لم تنفعَهُ أو تؤثّر فيهِ كلُّ مهدّئاتِ المركبة، طوال أسبوع، كما فعل هذا القرنفلُ السقطريّ العجيب!

ثمّ، على سليقتها، سرّبتْ الشاعرة شين لِرفاق بيغاسوس، بلغةٍ ممتعةٍ لذيذة، وسخريّةٍ وديّةٍ بريئة، مذكّراتِ تبَلْورِ "مشروع العمل" وميثاقِ الزواج، ومحاضرِ نقاشاتهم الخمسة، وتجربةِ زواجِهم الجماعيّ، قبل أن تتغيّر نبراتُها وهي تسردُ، بخوفٍ لا تستطيع كتمانه، بدءَ تدهورِ صحّة نون على نحوٍ سريعٍ مفاجئ، خلال الأسبوعِ الأخير على نحوٍ خاص، نتيجة خروجهِ الدائمِ للاستحمام والبحثِ عن "جزيرة الوحي"، طوال الأشهر الثلاثة الأولى منذ مغادرةِ الأرض، وابتلاعِهِ كمّيّةً هائلة من الإشعاعاتِ الخطِرة.

اختتمتْ شين سردَها السلس بسؤالٍ مرِحٍ لِتلطيفِ مزاجِ الجميع (جعلني أفزّ فزّاً في مكتبي، رغم مرحِه!)، وهي تنظر باتّجاه مانيارا:

"ماذا لو صارتْ ملكةُ القرنفل والبخور، مانيارا، زوجتَك الخامسة؟ أيّ سعادةٍ في الكون أكبر من ذلك، حبيبنا المسكين نون؟ سنتقاسمك، من دون أنانية، في السرّاء والضرّاء، في زمن السبع البقرِ السمان أو السبع

العجاف... أيلزمُ حينها تعديلُ 'مشروعِ العمل'؟ أم إضافةُ ملحقٍ خاصٍّ له؟".

لم أفهم شيئاً مما دار في دماغ مانيارا حينذاك، وأنا أراقب بتمعّنٍ دقيقٍ حركات عصبوناته، عند سماعها سؤال شين. منحنياتُ مناطقِ اللاوعي الغامضة كانت وحدها من تتفاعل وترطن بلغةٍ لا تستطيع البرمجيات فكَّ أسرارِها بعدُ، لسوءِ حظّي.

لا أدري هل جرَحَ السؤالُ كبرياءَها، أم هل أجّجَ رغباتِها بالانضمام إلى شلّة "حريم" الشيخ نون، أم هل ضاعفَ، لا غير، من تخبُّطِها وتيهِها الوجوديّ، وهي تستحضر فراغَ حياتها من العشق!

كانت نظراتها صمّاء مغلقة، على نحوٍ عام، فيما كنتُ أتخبّطُ في زوبعةٍ مماثلة، أختنق.

ما إن تمّ اقتلاعُ الضرس من قبل الروبوت الذكيّ الماهر، بكلِّ سهولة، وعادَ لِنون هدوءه ووقارُه، رغم استمرارِ تدهورِ أوضاعِ عظامِه ومفاصِله، حتّى بدأتْ نشاطاتٌ مشتركة تجمع الفريقين: ساعاتُ رياضةٍ جماعيّة يُساهمُ فيها نون بصعوبةٍ بالغة، تَبادُلُ صوَر...

تلتْ ذلك دردشاتٌ لا تنتهي، بدأتْ بالحديث عن جوهرِ ما يجمعهم العشرةَ على نحوٍ أو آخر: الاستكشافُ والبحث المعرفي بِسفنٍ ما لهنّ مراسٍ (كلما اقتربتْ من شاطئ، اختفتِ اليابسة، وانفتحتْ بحارٌ وأسرارٌ جديدة).

أشعرُ أن الكونَ وفكَّ أسرارِه هو إلههم الحقيقيّ الواحد الأحد (مَنْ عبادتهُ اكتشافُه والتوغّلُ في أسراره)، مثلهم في ذلك مثل كبّار العلماء والفلاسفة والباحثين عن هتك ستار المجهول، عن رؤية ما وراء الأكمة، ما خلف الأفق.

انطلقوا من آخر أخبار أبحاثِ دمجِ نظريةِ النسبيّة بالميكانيكا الكونتية، التي "ستسمح باختراق حائط بلانك" على حدِّ تعبير الفيزيائيّة زاي، وربما "برؤية ما دار في الخمس دقائق التي سبقتْ البيغ بانغ" أضافت الشاعرة شين، أمام

ابتسامات جلال وسباسكي وفيشر، وبريق أعينهم!

عرجوا بعد ذلك إلى جديد أخبارِ الكواكب والنجوم، وآخر الاكتشافات فيها، قبل نقاشٍ جماعيّ أوقعتهم في مطبّاتِه الفيلسوفةُ فاء، عن تعريفِ مفهوم "التقدّم الحضاريّ"، وكيف يُقاس، كاد يخلقُ حرباً بين المركبتين، أو بالأحرى بين الجميع ضد الجميع (مهووسةٌ فاء بهذا المفهوم. هي التي تبحثُ، كما قالت في امتحانات الانتقاء التي ساهمتُ في تحكيمِها، عن كوكبِ "بشرٍ" سبقونا حضاريّاً بملايين السنين!).

يا إلهي! نقاشٌ فلسفيٌّ أرستقراطيّ، حول مفهوم "التقدُّم الحضاريّ"، في برجٍ عاجيٍّ، قرب المريخ! يا للعجب! من كان يتوقّعُ ذلك يوماً!

الإنسانُ حيوانٌ سرياليٌّ عجيب، فاتنٌ جداً، "يجيب الدوخة"!

احتفظتُ بمذكّرتي بتعريفات التقدّم، من وجهات نظر مانيارا، نون، وخولة:

- مانيارا: التقدّم الحضاريّ هو توسيعُ وتعميمُ الحياة البشريّة، ونقلُها إلى الكواكب المجاورة. يُقاس بمدى اختراقِ الإنسان للطبيعة والحياة، وتطويعِهما لإرادته.

- نون: التقدّم الحضاريّ هو مدى النجاح في ضمّ الكائنات الذكيّة في الأرض وبقية الكواكب، في حضارةٍ متطوِّرةٍ متناغمةٍ إنسانيّةٍ واحدة، تجمعها رسالةٌ نبويّةٌ خالدة!

- خولة: التقدّم الصناعيّ والتكنولوجي في حياتنا ظاهرةٌ لا يختلف حولها اثنان. لكنه، كما عرفَتْهُ البشريّة، منذ ثلاثة أرباعِ القرن، ليس تقدّماً حضاريّا، في رأيي، لأنه قاد إلى خرابِ الكوكب! أمّا التقدُّم على صعيد الحياة الفرديّة، من وجهة نظري، فهو مفهومٌ شخصيٌّ بحت، يُصيغهُ كلٌّ واحدٍ، ويُقيّمهُ حسب رغباتِهِ ومشيئتِه. بالنسبة إليّ، التقدّمُ الحقيقيّ هو ازدياد ثراء العشقِ الإنساني للآخر، للطبيعة، للكون! هو النجاح في أن تَعشقَ وتُعشَقَ، أكثر فأكثر، مع كلِّ يومٍ يمرّ من حياتِك! كلّ جميلٍ وسعيدٍ في

الحياة ينبعُ من ذلك، وكلّ ما عدا ذلك نزواتٌ وتفاصيلُ صغيرة. أمّا مفهومُ التّقدم المجتمعيّ، فتعريفُه لا محلَّ له من الإعراب غالباً: إشكاليّةٌ فلسفيّة تقليديةٌ مطروحةٌ بالغلط، في رأيي: ما هو تقدُّمٌ لِأحدِنا قد يكون أحياناً تخلّفاً من منظورٍ آخر، وإن يُمكنُ قياسُ الإحساسِ به بسهولة، مع ذلك، بمدى شعورِ كلِّ جيلٍ (أي بحاصل مجموع شعورِ أفرادِه) بأنّهُ أكثر سعادةً من جيلِ آبائه. لا أرى ترمومتراً أدقّ من ذلك!

لم يجد الفريقان وقتاً لنشاطاتٍ مشتركة كثيرة، ولا لمزيدٍ من التعريفات والنقاشات في صومعاتٍ فلَكيّة جديدة، حول المفاهيم الفلسفيّة المثيرة للنزاع والجدل، أو حتّى لقليلٍ من الثرثرةِ والمرح:

جاء الأمرُ العسكريّ الغاشم واضحاً حاسماً من أعلى قيادةٍ في مركزِنا الفضائي، بعد يومين فقط من حياتهما المشتركة، سقط عليهم ككويكبٍ هائلٍ فوق جمجمةِ محطّةٍ فضائيّة، وفتح لي مليون أفقٍ وأمل:

"على رحلة XxxXx00F العودةُ إلى الأرض، تقودُها مانيارا ومعها خولة وجلال ونون، لإجراءِ بعض الفحوصات الطبيّة الضروريّة، قبل رجوعِهم مجدداً إلى الفضاء، للالتحاقِ بطاقِمَيهما الأصليّين.

وعلى رحلة Yyy4+1W مواصلةُ برامجِها، كما يُحِبّ طاقمُها، بعد استبدالِ نون فيها، مؤقّتاً، بسباسكي وفيشر!".

نزل هذا القرار على مانيارا، تحديداً، كالصّاعقة. كلّ أحلامِها بقيادة أوّل رحلةٍ فضائيّة إلى المريخ، وبأن تكون نظيرَ أرمسترونج (أوّل إنسانٍ وضع رجلَه على القمر، عام 1969)، وهي في السابعة والعشرين من العمر، صارت هباءً منثوراً!

وكلُّ مشاريعها بزراعةِ القمرِ والمريخ بالورود، وبالأشجارِ العامرة بالفراشاتِ والعصافير، وبمراعي الدجاج والديوك والأبقار والأحصنة، انتهتْ جميعها بِسطرين فقط، بعثَتهما القيادةُ المركزيّة في الأرض!

بدلاً من كلِّ ذلك، يلزمُ على "فلّاحةِ القمرِ والمريخ الأولى" أن تكون

أشبهَ بقائدِ حافلةِ نقلٍ لا غير، بسائقةِ سيّارةِ إسعافٍ نحو الأرض!

وكذلك نزل القرارُ على نون أيضاً. أراد صاحِبُنا (الذي صرتُ أتمعّنُ فيه من شاشتي، بمحبّةٍ ورحمةٍ خالصة) أن يعودَ إلى الأرض برسالةٍ سماويةٍ تنسجم مع احتياجات عصر الروبوتات الذكيّة وغزوِ الفضاء وتأثيثِ الكواكب بالحياة وربطِ علاقات الأُخُوّة بين الكواكب الذكيّة في الأكوان المتوازية، لكنّه، بدلَ ذلك، عاد خالي الوفاض إلا من سرطانٍ فضائيٍّ جامد، يغزو العظام والمفاصل، ويستفحلُ يوماً بعد يوم!

"ثمّة في أقصى السماوات من رمى بأحلام هذين البطلَين في عرض الحائط، أو من leur a posé un lapin"، كما ستقول خولة ذات يوم، بتعبيرٍ أمتع وأكثر إيلاماً.

لا قلق على خولة وجلال، كما تلاحظ مانيارا. سعيدان بالعودة إلى الأرض، وسعيدان أيضاً بالتوجُّهِ إلى المريخ أو زُحل لو جرتِ الرياحُ نحوَهما، أو لو جاءَت التوجيهات المركزيّة بذلك.

كلُّ الاختيارات، مهما اختلفتْ وتباعدتْ، تفاصيل صغيرة من وجهة نظرِهما، ما دامت هناك بنتٌ تُرقصُ في بطنِ خولة، قرّرا معاً أن يُطلِقا عليها اسم: رنيم!

ألاحظُ من شاشتي: ثمّة زوابعُ تعصفُ في جمجمةِ مانيارا. اختياراتٌ وجوديّة جديدة تتشكّلُ فيها أمامي: عليها (كما يبدو من قراراتِها الأولى التي تعتمل في دماغها) أن تعودَ أوّلاً بسيّارةِ الإسعافِ الفضائيّة سريعاً وبسلام، قبل أن تُقرِّر أيّ منحىً عليها أن ترسمَ لِحياتِها الجديدة بعد ذلك. شريطةَ ألّا تتدهورَ حياةُ نون أكثر مما هي عليهِ الآن، وهو في طريق العودة، وشريطةَ ألّا يكون استقبالُ الصحفِ لها، عند الهبوط، بِعناوين ساخرة، مثل "عودة ملكة المباخر"، أو "عودة صاحبة المجمرة" التي أحرقتْ مركبةً فضائيّة.

أنتظرُها بجنون، هل تعلمُ ذلك هذه التي تتساءل عن أيّ منحنى عليها أن ترسمَ لِحياتِها الجديدة، بعد العودة؟

لا تعرف هذه العصفورة كم ناضلتُ، خلال اجتماعاتِ لجنةِ الإشراف، لإقناعِ رفاقي بأن تعودَ إلى الأرض، تقود "سيّارةَ الإسعاف"، وفي بالي أن كلَّ شيءٍ بيننا سيبدأ الآن فقط (أعرف أني سأقول لها أخيراً: "أعشقكِ!"، بصوتٍ يصلُ إلى أطراف درب اللبّانة).

"لا يوجدُ أضمنُ منها لِنجاحِ عودةِ بيغاسوس" كما قلتُ. أو "لِنجاح عودةِ جنينِ خولة إلى الأرض" كما كرّر، بعدي، أكثر من صوتٍ في لجنة الإشراف، وكأنَّ كلّ ما عدا الجنين الفضائيّ التجريبيّ ("ابنة القمر" كما نسمّيها) لا أهميّة له!

ثمّ تستحضرُ مانيارا، بعينين جاحظتين، عبارةَ الخبير الطبّي (ما زالت ترفضُ قبولَ اعتذارِه):

"لماذا تُعطين لنفسك كلّ هذه القيمة؟ ما الذي تستطيعينَ عملَه ولا يستطيعُ روبوتٌ ذكيٌّ أداءَهُ بدلاً عنك؟".

تُحرِق أعصابَها ببطء هذه العبارةُ. "تُهين كرامتَها" حسب تعبيرِها الذي تكشفُ حساسيّتُهُ كم اكتوَت أعصابُها واكفهرّت.

تتساءلُ إن لم تكن فعلاً، بالنسبة إلى القيادة المركزية، أشبهَ بِروبوتٍ مؤنسنٍ، من لحمٍ ودم؟!

كم نتشابهُ كثيراً، مانيارا وأنا! أتساءلُ، أنا أيضاً، عن غاية حياتي ومعناها. أكدحُ في مكتبي من الصبح الباكرِ حتّى نهاية المساء. أحترقُ مثل كلِّ مُعذّبي الأرض. لا حياةَ أخرى لي خارج الشاشات والاجتماعات. روبوتٌ مثل كلِّ بَنِي الروبوتات. ما أتعسَ فعلاً من لم يَعشقَ ويُعشق!

وداعٌ حميمٌ، مرتبِكٌ جداً، بين الطاقمين، على أملِ اللّقاء قريباً جدّاً!

- تذكّرْ وعدَ البندِ الأوّل، حبيبنا نون الذي سوف نفتقدهُ كثيراً! (تقول الشاعرة شين، بعينين دامعتين، لزوجِها ورفيقِها في الانزياحاتِ الكبرى، والأحلام ما وراء الكَونيّة).

- أيّ وعد، حبيبتي شين؟

- إن كان في بطنِ إحدانا طفلٌ، فستكونُ لنا الخمسة نهايةً مشتركة. سترافقُنا حيث سنسكنُ الأربع. أنسيتَ ذلك حبيبنا الغالي؟ (تسترسلُ وهي تلعَقُ ما يتطاير من دموعها في الوقت نفسه).

- بالطبع، لن يكون غير ذلك. أيّ وعدٍ أقدسُ من هذا، حبيبتي شين؟! (يجيبُ نون بهدوءٍ وصدقٍ مطلَق).

- ثقْ أنّ في بطنِ إحدانا، أو جميعنا ربما، إشاراتٍ جنينيّةً لِأمرٍ سيتطلّبُ عودتكَ سريعاً، واستمرارَ حياتنا العائليّة السعيدة! لن أقول أكثر من ذلك، وليس الآن موعدُ البشارات والفرح (تُعلّقُ الفيلسوفة فاء، كابتن الرحلة، وهي تُمسّدُ خصلةً من شعرِها الأشقر، بلا وعي، كأنّها تتعمّدُ إخفاءَ شيءٍ ما، لتجنّبِ إرباكِ مشروعِ علاجِ نون. بانتظار بشارةٍ جماعيّة قاطعةٍ مانعة، لاحقاً).

- سيحتاجُ منكَ احتمالُ اقترابِ عيدِ البشارات إلى كتابةٍ استباقية لِمشروعِ البند الخامس! (تقول البيولوجية باء).

- أيُّ بندٍ خامس؟ ما وظيفتُه؟ لا أفهم (يسألُ نون).

- منعكَ الكليّ من الخروج للاستحمام الفضائي، مثل أيّ أبٍ افتراضيٍّ يحترمُ نفسَه، ويهمّهُ مصير أطفالِه وزوجاتِه (تردّ الفيزيائيّة زاي، كناطقٍ رسميٍّ دائم باسم الاتحاد).

يدخل على الخط "وادي عبْقر" العائلة السعيدة، في هذه اللحظات الحرجة الحزينة التي لا يستطيع أحدُ التعبيرَ فيها عمّا يختلجُ بعواطفه، وما يودُّ قولَه بحميميةٍ وانفراد.

يدلي بهذا القرار العاجل الحكيم:

"يلزم أن يختليَ نون الآن بكلِّ واحدةٍ من زوجاتِه، لمدّة سبع دقائق ونصف، قبل التحامِ بيغاسوس بصاروخها، بعد نصفِ ساعة.

حسب القرعة، سيكون ترتيب جدول الاختلاءات الحميمة كما يلي: باء، شين، فاء، وزاي.

ويلزمُ على نون توزيع نفسِهِ وما تبقّى من طاقاتهِ المنهَكَةِ بسبب المرض، على نحوٍ عادلٍ دقيق، في هذا الظرفِ الاستثنائيّ البائس المضغوط!".

ثمّ، بعد تنفيذ قرار "وادي عبقر" بحذافيرهِ كما يلزم، تنطلق بيغاسوس، دون تباطؤ، تحت ضغطِ وإلحاح توالي الأوامرِ الأرضيّة المركزيّة العاجلة.

تُقرّرُ الفيلسوفةُ فاء وطاقمُها الجديد (الذي انضمّ إليه سباسكي وفيشر، بدلاً عن نون، وسكنا في غرفته) التريّثَ في هذه المحطّة المريخيّة، والاستقرار فيها حتّى انتظار عودة نون، ورفاقِ بيغاسوس الثلاثة، من الأرض.

يزدادُ وضعُ نون هشاشةً وخطورةً وهو في طريق العودة، مما يُذكي أوجاعي وأوجاعَ مانيارا المتلاطمة، من جديد، ويجعلُها تشعرُ بنفوذِ صبرِها، وتعبِها.

"أشعرُ بالإعياء الشديد!" قالتْها أكثر من مرّة، بصوتٍ خافتْ، أثارَ قلقَ رفاقِها. إرهاقُها تجاوزَ فعلاً كلّ الحدود.

أتفحّصُ وجهَها على الشاشة. فقدتْ بريقَها النحاسيّ، ملامحَها البدويّة الخلّابة، لمعةَ عينيها المتلألئتين... أستحضرُ أوّلَ انطباعٍ خطر ببالي عند أوّل لقاء: "ثمّة بُعدٌ تراجيديٌّ في شخصيةِ هذه الفتاة!".

يغشاني تعبٌ مماثلٌ لِتعبِها، رعبٌ وحسراتٌ متضاربةٌ أيضاً. عدتُ لِقضمِ أظفاري بشراهة، بلا وعي، كما كنتُ أفعل في الطفولة. يتوالى قرعُ قلبي على نحوٍ مخيف. ذعرٌ فتّاكٌ أعرفُ مسبقاً أنه يحملُ شرّاً لا مناص منه.

تراقبُ قائدةُ "سيّارةِ الإسعاف" أختَها الكبيرة خولةَ يوميّاً، دون أن تلاحظ عليها أي ملامح تشير إلى خطرٍ مرتقب.

بدأ بطنُها ينتفخُ أكثرَ، ويتكوّرُ نهداها على نحو آسر، مما ضاعفَ من سعادتِها وجمالِها، وشدّةِ نخرِ جلال وتعلّقِ نظراتِه بها، بل خصوبةِ وتفجّرِ رغباتِهِ البدائيّة البريئةِ الظامئة أحياناً، بلا وعي، أمام الأعين الحائرة لِنون

ومانيارا.

أدركَتْ "فلّاحة القمر والمريخ الأولى" أن أهمَّ درسٍ استوعبتهُ من هذه الرحلة: "السعادة الحقيقية الوحيدة، على كوكب الأرض (والمجموعة الشمسيّة أيضاً)، هي أن تَعشقَ وتُعشقَ. كلُّ ما عدا ذلك نزواتٌ تافهةٌ صغيرة".

في مساءٍ مكفهرٍّ عاصف، قبل أسبوعٍ بالضبط من وصول بيغاسوس إلى الأرض، نستلمُ من جلال، في لجنة الإشراف، هذه الرسالة التي تنزلُ عليّ كالصاعقة:

"سأتولّى قيادةَ المركبة. مانيارا تشعرُ بالدُّوَار، تجدُ صعوبةً بتحريكِ بعضِ أطرافِها، وبالكلامِ أيضاً. أخشى أن تكون قد أصابتْها جلطةٌ حادّةٌ بالدماغ!".

لَغَمٌ مفاجئ! رجّةٌ في الدماغ كهربَتْني عند قراءة هذه الكلمات، نشفَ ريقي بثانيةٍ واحدة! لم يحدث ذلك في حياتي من قبل. انهمرتْ دموعي في المكتب، لم أتمالكْ نفسي، صرختُ بلا وعي عباراتٍ مُلخبَطةً، لا يجمعها إلا ما يشبهُ اللعنَ والشتمَ لكلِّ شيءٍ في هذه الحياة!

عيناي الحمراوان لا تفارقان الشاشة. أتبادلُ بِعصبيّةٍ الرسائلَ مع جلال (الذي يسيطرُ على الوضع بهدوءٍ وعقلانيّة وحكمة)، مع "وادي عبْقَر"، دون توقّف. أرتجف. لا أغادر مكتبي حتّى آخر الليل.

المنظرُ التراجيديّ الذي لن أنساه مدى العمر:

خولة تحيط بمانيارا، تحتضنُها. لا تعرف ما تفعل. تُقبِّلُها. لا أسمعُ ما تتمتمُ كلُّ واحدةٍ في أذنِ الأخرى. لعلّها لا تفهم ما تقول لها مانيارا، أو العكس!

سيظلُّ هذا المنظر عالقاً في دماغي، غائراً في تلافيفه، أشعرُ بالألمِ وبكلِّ مرارات الدنيا، حال تذكّره. أقصد: معظمَ الوقت.

ثمّ هلَعٌ جنائزيٌّ شنيعٌ اعتراني، لم أعرفهُ طوال حياتي.

فكّرتُ سريعاً في الاستقالة من منصبي، ثمّ قررتُ تأجيلَ ذلك حتّى يتمَّ

إنقاذُ ما يمكن إنقاذُهُ أوّلاً.

انتظرتُ، لتقديم استقالتي، اقترابَ بيغاسوس من البحر وهبوطَ الطاقم نحوه، وَلَيْتَني لم أفعل. كان المنظرُ في منتهى الفظاعة. مروحيّاتٌ وسيّاراتُ إسعافٍ هرعتْ تقود الطاقم نحو مستشفى المطار، "لعزلِ روّاد الفضاء، وإجراء الفحوصات الروتينية، وتدريبهم على الحياة والمشي من جديد، في سياقِ جاذبيّةِ الأرض" كما قال الإعلان الرسميّ التلفيقيّ لمركزِنا الفضائي!

لم أجرؤ على معاينة سيارات الإسعاف عند باب المستشفى. زميلٌ فعلَ ذلك قبلي، وعاد مباشرةً بوجْهٍ أحمر قرمزيّ متلعثمٍ لا يخلو من الصعقة. جاء لِيُتمتِمَ في أذني:

- تبدو خولة بصحةٍ جيّدة، رغم تقرير الطبيبين اللذَين تنبآ بموتِها خلال 3 أشهر! فيما...

- فيما... ماذا؟ (أقاطعُهُ بعصبيّة).

- فيما توفّي كلا الطّبيبَين، تباعاً، في الأيام القليلة الماضية! يا للعجب! لِلحملِ خارج الجاذبيّة الأرضيّة خصائص غير اعتياديّة، ومصادفات ومفاجآت لا يفهمها أحد.

- وماذا عن مانيارا ونون؟ (سألتُهُ بعجل).

- وضعُهما مختلفٌ تماماً، لا أريد الحديثَ عنه. لا أنصحكَ أن تراهُما، أو حتّى أن تقتربَ منهما!

لِأترك جانباً منظرَ جلال الذي كان بهيّاً كعادتِه، رغم المجزرة المحيطة به، ومنظرَ خولة التي كانت أروعَ وأجملَ من أيّ وقتٍ مضى، رغم وعثاء الرحلة، ورغم صدمةٍ لا تُطاق، تعيشُها وأعيشُها.

هناك منظرٌ كابوسيٌّ لاثنين آخرين، لا أستطيع وصفَهُ، أو حتّى التلميح بِه.

سلامٌ على روحَيهما، ولا بقيّةَ أستحقُّها شخصياً في حياتي أبداً!

كان أفضل ما أستطيعُ عملَه بعد أن شاهدتُهما هو مغادرة المركز الفضائيّ من بابٍ خلفيٍّ صغير، والانعزال الكليّ بعيداً عن هذا العالم...

رنيم

لم أعُدْ إلى منزلي (في مجمّعٍ سكنيٍّ قريبٍ من المركز الفضائي). توجّهتُ، بدل ذلك، إلى "الحصنِ" مباشرةً، لأنعزلَ فيه مع جراحي، وجهاً لِوجه، بعيداً عن العالَم.

في ذاكرتي مناظرُ أليمة لا تُمحى، وتعذيبٌ كثيرٌ للنفس. أشعرُ أني كنتُ ضليعاً، على نحوٍ أو آخر، في أكثر من جريمة:

1. عدم البوح المباشر لمانيارا بما أكنّ لها، قبل السفر، أو بعده. ربّما كان ذلك سيعطي لحياتها بُعداً آخر، وسيُغيِّرُ شيئاً من مسار الرحلة أو مصيرها.

2. إصراري (وغيري، لا سيّما كمبيوتر الانتقاء) على تعيينها كابتن للرحلة رغم صُغرِ سِنّها، وتحميلِها ما لا طاقة لها به.

3. إصراري (وغيري) على قيادَتِها لرحلة عودةِ بيغاسوس...

مرّت 34 شهراً، دون أن أغادرَ الحصن. لم أنمْ خلالها ليلةً واحدةً على نحوٍ مكتمل. أثقالٌ كثيرة تقصم ظهري، تصعدُ إلى سطح الروح، أقضي يومي في محاولةِ إغراقها أو التجديفِ بعيداً عنها.

أتقاسمُ مع إخوتي في العائلة المجاورة، قدرَ ما أستطيع، حياةً بسيطةً "هادئةً" إذا جاز القول، "بعيداً عن ويلاتِ العالم وأوهامِه" كما كتبَ جدّي ببابِ الحصنِ بخطِّ يدِه.

نصطادُ كثيراً معاً، نزرعُ معاً، نعيش حياةً بدائيةً بعيدةً عن غزو الفضاء، عن إحصائيّاتِ ارتفاعِ مستوى البحر، عن العويلِ اليوميّ جرّاء تسوناميات وفيضانات وزوابع متتابعة أنهكَتْ الأرخبيل وقضمته، عن الضجيج اليومي، عن تقارير GIEC (15) التي صار الذكاءُ الاصطناعيّ يكتبُها سنويّاً لِوحدِه (دون الحاجة إلى ألف خبير، ومليون ساعة عمل)، عن الشبكات

الاجتماعية ومواقع الإنترنت، عن تلويث البيئة والاحتباس الحراري وارتفاع سخونة الأرض، عن آخر صرخات التكنولوجيا، عن السياسة والصراعات والحروب الدائمة، وعن يوميّات مشاريع ما بعد الإنسانية...

(15) الهيئة الحكوميّة الدّولية المعنيّة بتغيّر المناخ.

يسافر أحدُ أفراد العائلة، كلّ أسبوعٍ، إلى "المدينة" (كما نُطلق على كلِّ ما هو خارج القرية)، ليجلبَ بعضَ احتياجاتنا الأوليّة التي أشاركُ كما يلزم في دفع ثمنِها الزهيدِ، بل أصرُّ غالباً على دفعهِ لوحدي، مساهماً، بمحبّةٍ خالصة، في حياتنا الجماعيّة الأخويّة.

أحاولُ، عند صفاء الذهن قليلاً، أن أدرسَ وأفهمَ ما آل إليه مصيري ومصيرُ مانيارا، ثمّ أتوقّفُ سريعاً. لم يعدْ ذلك ممكناً، بعد أن تعقّدت حياة بشرِ اليوم إلى حدٍّ لا يمكن استيعابُه، أو التفاوضُ معه، أو مقاومتُه، أو تغييرُه ظاهراً أو باطناً.

أحاولُ، ما استطعتُ إليه سبيلاً، تناسي صدماتي وإخفاقاتي وفشل حياتي الكليّ، وإن لا أستطيعُ، في كلِّ الأحوال، أن أرمِّمَ ما لا يمكن ترميمه.

على بعد نحو 130 كيلومتراً من الحصن، تسكنُ خولة وجلال، في محميّةٍ طبيعيّةٍ صغيرةٍ محروسة، لا خوف لساكنيها من هيجانِ البحر أو غضب الطبيعة.

انتقلا إليها بعد أسابيع من هبوط بيغاسوس.

لم تخْبُ يوماً، في أعماقي، رغبةٌ عنيفةٌ بالذهاب لزيارتهما، منذ اعتكافي في الحصن، لكنّي لم أجرؤ يوماً على ذلك.

خوفٌ قاتلٌ كان يعصفُ بي لمجرَّد افتراض أننا قد ننبش جراحات رحلة بيغاسوس، أو نستحضر ذكراها معا، أنا الذي لا أبحث إلا عن نسيان كلِّ ما يرتبط بها من قريبٍ أو بعيد.

هما، مع ذلك، كلُّ ما تبقّى من فريقٍ عشتُ أراقبُهُ على الشاشة، خلال

عامٍ كامل تقريباً، مندمجا برعشاتهِ وسكّاتهِ طوال اليوم.

عشقتهُ كلّاً من أعماقي. ولم يمرّ يومٌ واحدٌ دون أن أستعيد ذكرياته رغما عنّي، منذ لجوئي إلى الحصن، أو أن أستحضرَ، عدّة مرات، منظرَ خولة وهي تحتضن مانيارا، بعد إصابتِها بالجلطة الفاتكة، وتُتَمتمُ وإيّاها معاً همساتٍ موشوشةً غامضة لم أسمعْها. أتوقُ بضراوة لمعرفة ما ستقوله خولة عنها، إن كان فيها ما يمكنُ استنطاقه!

دون الحديثِ عن هول وبشاعة آخر منظرٍ رأيتُه في مستشفى المركز، عقب هبوطِ بيغاسوس. أشنع الكوابيسِ قاطبة. أغلقتُ عينيَّ مباشرةً بعده، هربتُ خارج العالَم من بابٍ خلفيٍّ ضيّق، وناضلتُ كلَّ هذه الأشهر في عزلةِ الحصنِ لِتناسِيه...

وفي صباح يومٍ رائق، من شتاءِ سُقُطرى الساحر، اكتسحتْني أشواقٌ ورغبةٌ عنيفةٌ، صعُبَ كبحُ جماحِها، لِرؤيةِ خولة ("إلهة الجاذبيّة الأرضيّة والسماويّة" كما أطلقُ عليها) وجلال. ودهمتْني تساؤلاتٌ فضوليّةٌ مفاجئة عن مصير رنيم، سكنَتْني كهوَس.

توجّهتُ مُسَرْنماً، مجذوباً، ممسُوساً، تجرُّني إليهم قوّةٌ ميتافيزيقيّةٌ تتجاوز مقدرتي على الاستيعاب أو المقاومة.

تقعُ قريتهم في مكانٍ معزولٍ عن السوّاح والبشر، قرب "كهف مشافقة" في أقصى جنوب شرق الجزيرة.

الكهفُ مدخلٌ جبليٌّ مدهش، يؤدّي إلى مساحةٍ واسعة بأعمدةٍ مثيرة، وثُقبٍ هائل، أشبه بجسرٍ يقود مباشرةً إلى الشاطئ.

فِيلّتهم البحريّةُ الجميلة المرتفعة محطُّ اهتمامِ ورقابةِ المركز الفضائي، ولا شكّ. تحيطُها فيلّات جيرانٍ أربع، لا غير. يتبادلون زياراتٍ دائمة، لا سيّما في عصر كل يوم، لالتقاءِ أطفالِ عائلاتِهم الخمسةِ، في ركنٍ صغير داخل حديقة خولة وجلال التي اقتربتُ من بابِها المفتوح، قبل نهاية العصر!

لا أدري لماذا استحضرتُ طُرفةَ بنَ العبد (رغم الاختلافِ الجذريِّ بين حالتِه وحالي، بين أطلالِ خولتِه وفيلّا خولتي)، صاحبَ معلّقة:

نِخولةَ أطلالٌ بِبُرقةِ ثَهْمدِ

تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ

كانت رنيمُ أوّلَ من لمحتُ وأنا أقترب من مربّعٍ رمليٍّ تتناثرُ عليه ألعابٌ كثيرة، خلف باب الفيلّا.

سنتَان ونصف تقريباً. أطولُ نسبيّاً من المتوسطِ. عينان لامعتان عسليّتان كأمّها، تحرّكُ وتتحدّثُ بثقةٍ جليّةٍ بالنفس. فراشة هي أيضاً! تلعبُ، وسط خمسة أطفال لا يتجاوزُ أكبرُهم الرابعةَ من العمر.

تنظرُ بابتسامةٍ ملائكيّة، في كلِّ الاتجاهات، بما فيها نحو هذا الغريب الذي يقتحمُ بابَهم المفتوحَ على مصراعيه.

غير بعيدٍ عن المربع الرمليّ، بعضُ الأمّهاتِ والآباءِ يتناولون المشروبات على طاولةٍ في وسط الحديقة، وهم يراقبون شدَّ وجذبَ أطفالِهم.

الفاتنةُ أبداً، خولة، في وسطِهم. بهيّةٌ مشعشِعةٌ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. فستانُها خزاميّ اللونِ بموتيفاتٍ سُحبيّةٍ بيضاء، يخرج من جانبيهِ ساعدَين بِكتفَين رشيقتين طليقتين، بلمعاتٍ ذهبيّة نقشتْها سماءُ سقطرى، لا جمال مثل جمالهما.

ما إن رأتني، حتّى هرَعتْ نحوي بَشُوشةً ومستغرِبة! اعتدتُ على رؤيتِها تطيرُ في بيغاسوس، وها هي تمشي، على قدميها، مثل كلِّ إنسانٍ فانٍ!

"لِخطوتِها سحرٌ، لا يضاهيه سحر" كنتُ أردّدُ هذه العبارة، عند رؤيتِها مع فريق بيغاسوس قبل مغادرتِهم الأرض.

"سحرٌ دائم"، في الحقيقة.

احتضنّا بعضنا طويلاً. تيّارُ سعادةٍ غمرَني، ودمعتان خفيفتان لذيذتان،

تسلّلتا إلى آماقي، دون أن يراهما أحد.

تمنّيتُ ألّا ينتهي هذا الاحتضان.

تذكّرتُ احتضانَها لِجلال، أثناءَ كوابيسهِ الليليّة، على بعد خطوتين من القمر... ما أسعدَه!

جلال يُعِدّ شيئاً ما في المطبخ، كما عرفتُ.

قبل بدءِ حديثنا، وحسب توجيهات أطبّائها النفسيّين، لَزِمَ ألّا نفتحَ ذكريات بيغاسوس، بعد أن عرفتْ أني أجهلُ كلَّ شيءٍ عما دار في العالم، عقبَ هبوطِها.

أطبّاء يتابعون، بانتظام، تطوّر حياة رنيم ("ابنة القمر". أوّل طفلةٍ صُمّمتْ خارج نطاق الجاذبيّة الأرضيّة!)، ودكاترةٌ نفسيّون متخصّصون يساعدون والدَيْها على تجاوزِ الخرائب النفسيّة، إثرَ ما عاشاه أثناء عودتِهما، مُصَفّدَين بين السماء والأرض، قرب جسدَين يعبثُ بهما الموتُ ببطءٍ وساديّة، يمثّلُ بهما، ويُحوِّلهما إلى جثّتَين يستحيل نسيانُ منظرَيْهِما لمن رآهما، ولو مثلي لِربع ثانيةٍ واحدة، فما بالكم بمن تحمّلا مسؤوليّة قيادتِهما وإخراجِهما من بيغاسوس باتّجاهِ... البحر!

اكتفتْ خولة بعبارتَين مقتضبتَين عن مانيارا التي تمتمتْ باسمي، بعد استفحال جلطةِ الدماغ، وهي في أحضان خولة، دون أن تستوعب الأخيرةُ ما كانت تقوله، وما لن أعرفهُ، إذاً - ما أتعسني! - حتّى نهاية الأبديّة!

نهايةٌ غراميّةٌ فقيرةٌ مغلقَة، انتهتْ بتراجيديّةٍ صمّاء ستسكُنني حتّى الموت، ستلاحقني حتّى آخر دقيقة من العُمر!

لم تستطع خولة السيطرة على نفسها وهي تستحضرُ ذلك. حُبُّها لمانيارا، وإعجابُها بها، يتجاوزان كلّ عشقٍ وإعجاب.

شعرتُ بالقلق، ارتجفتُ بصمت، ثمّ اعترتني رعشةٌ مرئيّةٌ مارقة، وأنا أستحضرُ منظراً ملتصقاً في مركز دماغي، بميسَمٍ جمريّ: منظر خولة وهي

تحتضن مانيارا، مِلءَ الشاشة، وتهمسان لبعضهما ما لا تتّسِعُ له أيُّ لغة.

"من يعيدُ لنا مانيارا؟!" تَمْتَمْتُ بِحُرقة، وبِنبرةِ من يحاول إقفال الحديث، والخروج من الورطة، والسيطرة على الوضع.

محاولةٌ فاشلة. انفجرت دموعُ خولة وهي تصغي لِسؤالي. احمرّ وجهُها وعيناها. لحظاتُ اضطراب حادّة. خفتُ فيها أن يصيبها مكروهٌ بِسببي.

أتذكَّرُها في مختبرات بيغاسوس، في عيد ميلادِها الثلاثين، وهي تضغطُ على عينيها لإفراغِهما من الدمع، لِتتراكم حبّاتُهُ وتتعلّق في هواء مختبرات بيغاسوس. تلعقها حبّةً حبّة، قبل عودتها بعد ذلك لمشاهدَةِ لَغَمَي الفيديو الذي أهداهُ لها جلال.

صمتٌ محرِجٌ ومؤلمٌ طويل.

أردفتْ خولةُ كلِمَتَين أخيرتَين، عن مصير "مركبة العائلة السعيدة"، قبل إغلاق ذكريات الآلام كليّةً:

"قرّر الستّةُ، بعد أشهر من الاستقرارِ بانتظارِنا في المدار المريخيّ المنخفض، وبعدَ يقينِهم من استحالة عودتِنا الأربعة مع بيغاسوس، الذهابَ إلى الكوكب الأحمر!

وصلوهُ فعلاً!

هل تعرف أن صديقاتنا الرائعات حَبَلْنَ من نون، هنّ أيضاً، بأربع بنات؟

نعم، بأربع بنات!

أثار ذلك دهشةَ الباحثين العلميّين، لدرجة أن بعضهم يُصِرّ اليوم أن مستقبل الإنجابِ خارج الأرض سيكون أنثويّاً فقط! ومنهم من وجدَ تفسيراً لذلك!

ثمّ انقطعَ تواصلُ الأرضِ مع مركبتِهم، منذ أشهر، لسببٍ تقنيٍّ لم يتمّ استيعابُهُ وإصلاحُه بَعدُ، أو الإفصاحُ عنه!

لا قلقَ على كميّة الغذاء والأكسجين والماء، في كبسولات المريخ التي يمكنهم التوجّهُ إليها، لكنّ انقطاعَ تواصلِهم مع الأرض، كلّ هذه المدّة، لا يُبشّر بخير.

نعيش، جلال وأنا، قلقاً يومياً على مصائرهم".

ثمّ أغلقْنا الحديث عن رحلتَي بيغاسوس ومركبة العائلة "السعيدة"، وإن صرتُ أشكّ في فحوى هذه الصِّفة، التي يطلقها الناس، بسخريّة لئيمة، على غرار مصطلح اليمن "السعيد".

أمواجُ البحر المواجهةُ لبابِ الفيلّا هادئةٌ ممتِعة. تَبايُنُ الألوان الطبيعيّة الفاقعة، كما يبدو من الحديقة، متطرِّفٌ آسِر:

زرقةُ البحر لازورديّة، نقيّةٌ ناصعةٌ جدّاً. نزيفُ احمرار الأفق الدامي، في نهايتِها، يشفطُ النظَر. سيعلوهُ بعد قليل اشتعالُ ألوانِ الغسقِ الذهبيّة، قبل انسيابِها تدريجيّاً، نحو جوفِ ليلٍ مدلهِمٍّ بهيم، تتلألأ فيه نجومٌ لا تعرف أسرارَها إلا خولةُ وجلال.

تربطهما بها علاقاتٌ غرامية وميتافيزيقيّة، يتجاوزُنا سبرُ أغوارِها أو مقاربتُها فقط، نحن فئرانُ الأرض.

عصافير وطيور لا يراها المرء إلا في الأرخبيل. أسرابٌ من طيور الصرد السقطريّ والغاق، ملء الشاطئ الفضيّ. ثلّةٌ من صقورٍ سقطريّةٍ رهيبة تحوم بفخرٍ وهدوء في أعلى الجبل الكحليّ، فوقي أيضاً. تبدو أجنحتُها البيضاءُ المنتهيةُ بريشٍ أزرق وبنفسجيٍّ طويلةً، مستقيمةً عمودياً باتجاهِ السماء.

- ما الذي يجذبُكَ للعمل في مجال الفضاء؟

أتذكّر ردّي على هذا السؤال، وأنا أتقدّم لدخول مسابقات كليّة علوم الفضاء وميكانيكا السماء. لم أمتلك، قَطعاً، مواهبَ وقدراتٍ كافيةً لأكون رائدَ فضاء، لكن تعلّقي، بل هوَسي، بكلِّ ما يتجاوز ويقاوم الجاذبية الأرضيّة، ويخترقها، جينيٌّ، أكاد أقول. خرج ردّي للجنة الامتحانات على

نحوٍ عفويٍّ بريء:

- منظر الصقور الفخورة الجبّارة في الأعالي، وأسراب الوزّ وهي تعبر السماء بأشكال عجيبة، أسرَني منذ الطفولة. طالما تمنّيْتُ حينها أن أكون طائراً، لعامٍ واحدٍ فقط! أجول كلّ الكرة الأرضية بـ"نخسٍ واحد" مثل الطيور المهاجرة. أعبرُ من كندا إلى نيوزلندا فوق المحيط الأطلسي خلال عشرة أيّام، ومن نيوزلندا إلى تشيلي عبر المحيط الهادي خلال أسبوعين... وفي الجامعة، عندما درستُ نظرية النشوء والارتقاء، ندمتُ لأن التطوّر البيولوجي لم يسمح لهوموسابيان وسلفِه بامتلاك أجنِحة! أشعرُ بالصّغر أمام الطيور المحلّقة، أو تلك القابعة فوق رؤوس التماثيل (تاركةً أحيانا مخلّفاتها فوق جماجمهم دون اكتراث). كم جذبتني وسكنتني أيضاً كلّ الأساطير التي تعكس حلم الإنسان بالسيطرة على السماء، والتجوّل فيها: عبّاس بن فرناس، الجنّ والعفاريت، آلهة الإغريق، العفريت الذي حمل قصر الملكة بلقيس من مملكة سبأ إلى القُدس! لا تعصف بي أكثر من رغبة فتك أسرارِ هذا الفضاء، ورؤية تاريخه، منذ اندلاع "الفجرِ الكونيّ": ولادةِ الضوء وتشكّلِ أولى المجرّات، ولا أحلم لذلك إلا بالمساهمة، على نحوٍ ما، بأوديسة غزو الإنسان للفضاء واستيطان كواكبِه، وأن أكون يوماً من يعطي الضوء الأخضر للإقلاع نحو الكواكب البعيدة: عشرة، تسعة... اثنان، واحد، صفر.

آه، ليتني لم أعطِ بيغاسوس يوماً هذا الضوء الأخضر المشؤوم المنحوس اللعين!

يُقبِلُ جلال، "ابن السماء" كما أسمّيه دوماً، من داخل الفيلّا، لِيعانقَني بحرارة. هو نموذجِي أبداً في الحياة. يعرف كم أحبّه، وأظنّ أنه يدركُ كم تمنّيتُ دوماً أن أكون في محلِّه!

يدعوني للعشاءِ معهم هذا المساء، ولِلنومِ في بيتِهم، "إذا أحبّبت!".

يستحيلُ أن أرفض البقاء بِقربِ ملاكَين، يكفيني رؤيتهما ليلةً واحدة، ليضيءَ وهجُ ما في روحي الثلجيّة المظلمة، يساعدني على قليلٍ من الحياة.

أدخلُ معه صالونَ الفيلّا. لم ألاحظ أنّ جلالاً استعادَ شارِبهُ الكثّ الأرستقراطيّ الجميل، الذي يمزجُ فيه عمر الشريف بدالي، إلّا الآن فقط!

كلُّ الجدران، تقريباً، معارضُ صُورٍ لِرنيم: مع أبويْها، مع أصدقائها، لوحدِها، في أماكن ومواضع وتنويعاتٍ فنيّة لا تعدُّ ولا تُحصى، بألوانٍ أو بلا ألوان...

تلالٌ من دُمى لُعَبِها في كلِّ مكان. الفيلّا متحفُها. ابنةُ القمرِ أمامي، إذا لم تكن في أحضان أحدِهما، فهي في أحضان الآخر.

بعد نحو ساعةٍ راقبتْني خلالها عن بُعد (بابتسامةٍ مقتضبةٍ استطلاعية، وَاكبَتْ فرحَ استقبالِ أبويها لي، وتناغَمتْ معه)، بدأتْ، لا سيّما بعد عودةِ أصدقائها الأطفال إلى فيلّاتهم، الاقترابَ مني أكثر من مرّة، دون أن تدعني أحتضنها. مناوشاتٌ لا غير.

ثمّ قبِلَتْ، بعد ساعةٍ أخرى تقريباً، أن أحتضنَها، وأقبِلّها قُبلةً واحدةً فقط.

لا أستطيع وصف السعادةِ التي تفجّرتْ في أعماقي حينها.

لا أدري لماذا عادتْ إلى ذاكرتي، حينذاك، لحظاتُ جدَلِ طاقَمي المركبتَين، في المدار المريخيّ المنخفض، عن "مفهوم التقدّم الحضاريّ، وكيف يُقاس"، عندما قالت خولة:

"... بالنسبة إليّ، كما قلتُ سابقاً: العشقُ نسغُ الروح، والتقدّمُ الحقيقيّ هو ثراءُ هذا النسغ، هو ازديادُ العشقِ الإنسانيّ للآخر، للطبيعة، للكون... هو النجاح في أن تَعشقَ وتُعشَقَ، أكثر فأكثر، مع كلِّ يومٍ يمرّ من حياتِك! كلّ ما عدا ذلك نزواتٌ وتفاصيل صغيرة".

نسيتُ نصفَ آلامي وهمومي وأنا أضع قُبلةً صغيرةً أخرى، دون إذْن، على خدِّ رنيم، قبل أن تنتزعَها خولةُ من أحضاني، وتصعدَ معها إلى بلكونةٍ في أعلى الفيلّا، تواجهُ القمر.

"طقسٌ يوميٌّ مقدّسٌ، يربط خولةَ ورنيم" كما قال جلال. "كما لو كانتا في

'الفقاعة'، في علياء بيغاسوس!" أضافَ بلا وعي.

لحظاتٌ إلهيّة، أراقبُها بتقديسٍ دينيّ خاشع، أعادتْ لِبَالي ما يُمثِّل القمرُ بالنسبة إلى خولة، وإلى جلال، وإلى رنيم التي تبرعَمَتْ على بعدِ خطوتين منه، في ليلةٍ ليلاء، ملأتْ مجرّةَ درب اللبّانة سعادةً وفرحاً.

أتذكّرُ كلَّ تفاصيلِ ليلةِ تبرعُمِها، منذ المرقصِ على خلفيّةِ "إشراقةِ الأرض"، رقصِ الشلّة الجماعيّ المراهِق على إيقاع Live is life، نشوبِ الحريق و"حادثةِ المِجْمرة"، نومِ مانيارا المضطربِ في غرفةِ خولة، حشرجاتِ جلال، القُبلَةِ العميقة الظامِئة التي تلت كابوسَهُ الأخير، لعقِ خولة وجلال لدموعِهما المتطايرةِ، ضحكاتِهما الطفوليّةِ التي أضافتْ لِلدموعِ دموعاً، لهفةِ شرايينِهما وقُبْلةِ جسدَيهما الاندماجيةِ الصعبة المعقّدةِ الأولى، قبل سيطرتِهما على الوضع لاحقاً، بل على كلِّ الأوضاع الـ36، من "كاماسوترا الصوفيّ" إلى "أوركسترا العصافير"، واستثمارِهما لاتّساعاتها الباذخة في فضاء الزمكان ذي الأبعادِ الأربعة.

خولةُ تحتضن رنيم. أراهما، أحدِّقُ بهما طويلاً، موشّحتَين معاً بضوءٍ إلهيٍّ فِضيٍّ ناعم!

أحتفظُ بهذا المنظر في واجهة ذاكرتي، في مؤخرتِها، في مركزِها، في عمقِ أعماقِها، في أحشاءِ أحشائها.

لا منظرَ عداهُ يستحقُّ التذكّرَ والسّردَ والعبادة.

همساتٌ بينهما، لا تخلو من الغناءِ والضحك، أرمقُ إيماءاتِها، وأصغي لِموسيقاها من بعيد...

شُكر

جزيل شكري وعرفاني للصديقين العزيزين الناشرة مارجريت أوبانك والروائي صموئيل شمعون، في إدارة مجلة *Banipal*، والأستاذتين الجامعيّتين الصديقتين العزيزتين سوزان فرينك والروائيّة فادية الفقير، في إدارة وهيئة تدريس جامعة درَم ببريطانيا، على دعوتي زميلاً زائراً في الجامعة، لبِضعةِ أشهر. من أحشاء هذه الزيارة الملهِمةِ المثمرة وُلِدتْ هذه الرواية!

جزيل شكري ومحبّتي للأصدقاء الأعزّاء فارس الشرجي، وأحمد عبدالله عمر، وعبدالله شمسان، على نقاشات علميّة وجغرافية ممتعة معهم، أفادتني عند كتابة هذه الرواية، وللرفيقَين والأخَوين أحمد علي عبداللاه وعلي محمد زيد على قراءتِهِما الدقيقتين لها.

وشكر خاصّ لرائد الفضاء توماس بيسكِت (ابن منطقتي في فرنسا) على كتبِهِ ومقابلاته التي فتحتْ شهيّة مغامرة كتابة هذه الرواية.

حول الكتاب

نبذة

عشراتُ الملايين من السكّان يشاهدون ما يحدث. أنظارُ العالم شاخصةً نحو المركبة:

ثلاثة، اثنان، واحد... الرّحلة انطلقت.

خمسةُ روّاد يحيون حفلات طرب ورقص وأعياد ميلاد على بعد كيلومترات من الأرض.

هناك، في الأعالي، تولَد قصّةُ حُبّ بين جَلال وخولة. ثمّ فجأةً تعلو الصّرخة:

خولة حامل. ستكون أوّلَ إنسانة في تاريخ البشرية تُنجبُ في أرجاء السّماوات.

فماذا ينتظرها؟ وما مصير طفل تكوّن خارج نطاق الجاذبية الأرضية؟

رحلةٌ غير مألوفة إلى الفضاء حيث الدموع تحرق العينين ولا تسيل منهما البتّة.

عن المؤلف

حبيب عبد الرب سروري كاتب وروائي يمني. بروفيسور في علوم الكمبيوتر في قسم هندسة الرياضيات التطبيقية، كلّية العلوم التطبيقية، روان، فرنسا.

صدر له عن دار الساقي: «أروى»، «ابنة سوسلوف» (في القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية 2015)، «حفيد سندباد»، «الملكة المغدورة»، «وحي».